التحرير والتحبير

في أصول التفسير

الدكتور

محمد عناية الله أسد سبحاني



دار عمار

التحرير والتحبير

في أصول التفسير

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

المملكـة الأردنيـة الهاشميـة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٦/٥/٢١٢٤)



دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

E-mail: dar_ammar@hotmail.com

التحرير والتحبير
في أصول التفسير

الدكتور
محمد عناية الله أسد سبحاني





مقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق ليشملهم بعطفه، وينزل عليهم شآبيب رحمته، وخص بني آدم بقُدُرات العقل والبيان ليكرّمهم، ويتم عليهم سابغ نعمه.

فبعث فيهم الأنبياء والرسل، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وليس ذلك فحسب، بل ليخرجوا من غوائل الجهل وغمّته، إلى معاقل العلم وعصمته.

وله الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وله الثناء كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، حيث أكرمنا نحن بني آدم بخاتم النبيين وسيد المرسلين، محمد النبيّ الأمين، وجعله رحمة للعالمين، وأسوة للمصابين، وقدوة للمحسنين.

كما أكرمنا بكتاب معجز مستبين، فيه علوم الأولين والآخرين.

أكرمنا بكتاب يغنينا عن كل كتاب، ولا يغنينا عنه أيّ كتاب.

أكرمنا بكتاب، إذا تمسّك به الإنسان سلِم ونجا، وإن استغنى عنه خاب وهوى.

أكرمنا بكتاب لا تنتهي عجائبه، ولا تنفد غرائبه، ولا يسبر غوره، ولا يخلق على كثرة الردّ، فكان فضل الله على المؤمنين عظيما، ولقد صدق ربنا إذ قال:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فمن تبعه عزّ وعلا، وفاز بخير الدنيا والآخرة، ومن هجره خاب وتردّى، وخسر الآخرة والأولى.

وهنا يثور سؤال:

أين نحن من هذا الكتاب العظيم؟ هل نقدره حق قدره، ونؤدّي ما يجب علينا من حقه؟

هل نبذل له من الحب والولاء، والإجلال والتوقير ما لا نبذُلُه لغيره؟

هل بوّأناه في حياتنا مبوّأ صدق، وأخضعنا له من أعمالنا ورغباتنا كل صغير وكبير؟

هل نتذوقه كما نتذوق أطيب الثمار، وأطيب الفواكه؟ و هل نستعذبه كما نستعذب الماء العذب الزلال؟ وهل نسكن إليه في ليلنا ونهارنا بحيث لا نطلب له بدلا، ولا نبغي عنه حولا؟

هل نستعين به كلما اكفهرّت في وجوهنا أيامنا، وعبست ظروفنا وأوضاعنا؟

وهل نحبّبه إلى من لا يعرفه ولا يحبه، أم نَنفِر عنه، ونُنفّر عنه من كان يحبه وكان مولعاً به؟

يقول الأستاذ الإمام سيد قطب في مقدمة كتاب له قيّم في بلاغة القرآن:

«لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير،لا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه، ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه، ولكنني كنت أجد في نفسي منه شيئاً.

لقد كان خيالي الساذج الصغير يُجسِّم لي بعض الصور، من خلال تعبير القرآن، وإنها لصور ساذجة، ولكنها كانت تشوق نفسي، وتلذ حسي، فأظل فترة غير قصيرة أتملاها، وأنا بها فرح، ولها نشيط.

ويقول رحمه الله:

تلك أيام... ولقد مضت بذكرياتها الحلوة، وبخيالاتها الساذجة، ثم تلتها أيام، ودخلت المعاهد العلمية، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعت تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ، أو أسمع، ذلك القرآن اللذيذ الجميل، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا.

وا أسفاه! لقد طُمست كل معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق.

تُرى هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب الميسّر المشوّق، وقرآن الشباب العسر المعقّد الممزّق؟ أم إنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير؟

وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير، وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب، وأجد صوري المشوقة اللذيذة.

إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك. لقد تغير فهمي لها، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مَثَلٌ يضرب، لا حادث يقع.

ولكن سحرها ما يزال، وجاذبيتها ما تزال.

الحمد لله لقد وجدت القرآن!» (١)

فيا للعجب!! قرأ الرجل هذا القرآن في صغره بغير كتب التفسير، وأساتذة التفسير، فوجد فيه لذة، ووجد فيه متعة، وإن لم ترق مداركه إلى آفاق معانيه.

ثم قرأه بعد ما شبّ وترعرع، ودخل المعاهد العلمية، قرأه في كتب التفسير، وتلقاه من أساتذة التفسير، ففقد كلما كان يجده من لذة وحلاوة في آيات القرآن، حتى طُمست كل معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق!

ثم عاد إلى القرآن يقرؤه في المصحف، لا في كتب التفسير، فعاد إليه قرآنه الجميل الحبيب!

هل هذا معقول يا إخوة الإسلام؟

سواء كان معقولاً، أم غير معقول، فهو الواقع الذي وقع!

الواقع المُرّ الذي مرّ به صاحب الظلال، وجرّبه في حياته!

ولعل تلك التجربة، التي مرّ بها سيد قطب في رحلته العلمية، لا تخصه، وإنما الذي يخصه هي تلك الشجاعة الأدبية، التي قد سيطت من لحمه ودمه، والتي حملته على أن يجهر بتجربته التي مرّ بها في حياته العلمية، من غير وكس ولا شطط، ومن غير أن يخاف في الحق لومة لائم!

وإلاّ فكم من الناس يمرّون في دراسة القرآن وتفسيره في كتب التفسير، وفي

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧-٨.

فصول التفسير، وفي حلقات التفسير بنفس التجربة المؤلمة، حيث لا يجدون فيه ما يحيي قلوبهم، أو يثلج صدورهم، أو ينوّر عقولهم، أو يوقظ نفوسهم، أو يلهب مشاعرهم، أو يذكي عواطفهم، أو يحرّك وجدانهم، أو يفتح عيونهم على عظمة القرآن، وروعة أسلوبه، أو يملأ أكفّهم بخزائن حكمته، وكنوز معارفه!

وإن كان هناك شك في الأمر، فما الذي صرف الأمة الإسلامية عن كتاب ربها؟ ما الذي صرفهم عن تعلمه، والتفقه فيه؟ ما الذي أغفلهم عن تدبره وتذوّقه والتحلي بآدابه؟

نحن لا نغضّ من شأن كتب التفسير، ولا من شأن الجهود التي بذلت في علوم التفسير؛ فكلنا عالة عليها، ولا نستغني عنها أبداً.

❖ ولكن أين فقه القرآن؟ الذي جعل من الأميين ينابيع العلم، وجعل من رعاة الإبل قادة الأمم!

❖ وأين حكمة القرآن؟ التي ملأت القلوب حكمة وإيماناً، وبُنيت على أساسها حضارة ملأت العالم أمناً وسلاما.

❖ وأين نظام القرآن، وأين المناسبة بين آياته وسوره؟ وأين تلك العلوم والمعارف التي وضعها الله في نظم كلامه؟ فهذا النظام وهذا الترتيب هو الذي جعل القرآن بحراً لا يُسبر غوره، ولا ينفد كنزه، ولا تنتهي عجائبه!

❖ وأين أساليب القرآن؟ التي لها من الحلاوة والطلاوة والفخامة ما جعله أحلى من العسل، وأسنى من القمر، وأفخم من الجبل!

❖ وأين بلاغة القرآن؟ التي لا يشق لها غبار، ولا توطأ لها آثار، والتي لا يساميها إنس ولا جان، فقد سجد لها الصديق والعدوّ، وأذعن لها الحاضر والبدو!

❖ وأين مناهج القرآن في تربية الأجيال؟ فقد ربت تلك المناهج أجيالاً كالجبال، أجيالا ليس لها في التاريخ مثال!

❖ وأين إعجاز القرآن في تفجير مواهب الإنسان؟ فقد فجّر القرآن من الحجارة

أنهارا، وجعل من النحاس إبريزا، وجعل من الأغمار أبرارا، وجعل من البطّالين أبطالا!

تلك موضوعات ما طُرقت في كتبنا وأبحاثنا، وإن طُرقت فما طُرقت إلا عَرَضاً، فلا نجد لها ذكراً مذكوراً، ولا نلمس لها أثراً ملموساً في كتب التفسير ولا في بحوث التفسير، ولا في مناهج المعاهد والجامعات، التي تُعنى بعلم التفسير!

ولعل السبب في ذلك قلة الاعتناء بأصول التأويل، وقواعد التفسير، ومفاتيح التدبر، حيث لم يبذل لها من الجدّ والعناية و الاهتمام ما كانت تستحقه، فأنشئت مئات من مجلدات التفسير قبل أن تؤسّس أسس التأويل، وقبل أن تحرّر قواعد التفسير، وقبل أن تحكم مفاتيح التدبر، فلم يكن هناك منهج محكم مدروس تلتزم به كتب التفسير في تأويل الآيات، وإنما كان لكل طريقته ومنهجه الذي يروقه.

فجاء كل تفسير مرآة لطبيعة صاحبه، ومرآة لميوله وأفكاره، ومرآة لنزعاته وخلفيّاته، بدلا من أن يكون مرآة لرسالة القرآن، ومعارف القرآن، وأسرار القرآن لا غير!

وبسبب الغفلة عن مفاتيح التدبر بقيت جوانب من إعجاز القرآن لم تُطرق، وبقيت أقفال من أسرار القرآن، ومعارف القرآن لم تُفتح، وهي تنتظر من يطرقها ويفتحها.

وللإمام عبدالحميد الفراهي لفتة وجيهة إلى ما كان من تفريط في شأن أصول التأويل، قال رحمه الله:

«جعل العلماء طرفاً من أصول التأويل جزءا من أصول الفقه، أي فروع الشرائع، فلكونه جزءا صار شيئاً غير مستقل، ولم يعط من الإمعان والإتقان ما يعطى لعلم مستقلّ.

ثم لكونه مستخدماً للفروع لم يعط من التيقظ والاحتياط ما يعطى لأصول الدين، ومعلوم أن الاختلاف في فروع المسائل هيّن، فهان أمره.

ثم لكونه مشتركاً بين الكتاب والسنة لم يختصّ بما هو أهله، والسنة معظم العناية

فيها بنقد الرواة، فلا يتعمق في متونها من قبل خواصّ ألفاظها وتراكيبها، فإن الروايات أكثرها بالمعنى.

وأما القرآن فَيُعضُّ عليه بالنواجذ، فيحافظ على حروفه وحركاته، ويعتمد على ما يستنبط من نظمه وإشاراته، وتنفى الاحتمالات الضعيفة عن تأويل آياته، ويردّ ما اشتبه منه إلى محكماته، فلا يغتفر فيه الأخذ بالهوينى، لا في تأويله ولا في تنزيله.

فلو اعتُبر هذا العلم علم التفسير لعظُم محله في الدين، ولتوجهت إليه الهمم، وبذلت فيه الجهود، واشتدّ الحذر من الآراء الضعيفة، وبعد ذلك لم يكن هناك مانع من استخدامه في الأحاديث وسائر أنواع الكلام أيضاً.

وبالجملة فإدماج أصول التأويل في أصول الفقه بمعنى علم المسائل الفرعية حطّ علم التأويل عن محله من ثلاثة وجوه:

الأول: أنه كان حريّاً بأن يعتبر علماً مستقلاً، ويحسب له حساب مستقل، ولكن اعتبر مادة مشتركة بين شركاء، فصار مغموراً فيها.

والثاني: أنه كان في معظمه علم التفسير لكونه أصولا لفهم القرآن، وإذ جعل من علم الفروع لم يبالغ في تنقيحه، حتى يصير لعلم التأويل كالمعيار والميزان، مثل علم النحو والعروض، فما بلغ مبلغ العلم المنقّح، بل كان قصاراه أن يكون أصولا شخصية مثل قوانين الأمم المختلفة، فيقال إن أبا حنيفة جرى على هذه الأصول، والشافعي على تلك.

والثالث: أن القرآن ليس مقصوراً على الفروع، بل معظمه يتناول العقائد وبواطن الأخلاق، وإذ اندمجت أصول التأويل في أصول الفقه صارت مقصورة عليه، ومن هذه الجهة بالذات وقع خلل فاحش في بناء العلم الذي يهدي إلى فهم القرآن».(١)

فحينما لم تُدوَّن أصول التأويل وقواعد التفسير ومفاتيح التدبر كعلم مستقل ذي شأن عظيم، وأنشئت التفاسير من غير التزام بأصول مدروسة محكمة للتأويل لم يتيسر

---

(١) الفراهي - التكميل في أصول التأويل: ٢-٣.

لها أن تبلغ مستواها العالي الباذخ، ولم يقدّر لها – مع وجاهتها وغزارة مادتها العلمية- أن تحقق الهدف المنشود منها، ألا وهو فتح الطريق إلى علوم قرآنية بحتة، وتيسير التذوق لمعارف قرآنية متنوعة يزخر بها كتا ب الله، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض منها.

وإذاً، فلا بد من تأصيل علم التفسير وتقعيده كعلم عظيم مستقل، ولا بد من وضع أسسه وضوابطه بكل حرص وعناية، وبكل دقة واهتمام، حتى نجد ذلك القرآن الجميل، وحتى نظفر بذلك القرآن الحبيب الذي طال ما فقدناه، ففقدنا أنفسنا!

لا بد من ذلك كله حتى نجده، كما وجده صاحب الظلال!

ولماذا نقنع بما وجده صاحب الظلال؟ فنحن نودّ لو نجد ذلك الكتاب العزيز، والقرآن العظيم الذي وجده صحابة رسول الله، فغيّرهم وغيّرهم، وطهّرهم وطهّرهم، وزكّاهم وزكّاهم، ورفعهم ورفعهم حتى أنشأهم خلقا آخر، فأصبحوا ينابيع العلم، وأعلام الهدى، وأصبحوا مثل النجوم التي يسري بها الساري!

وانطلاقا من هذه الأمنية الغالية العارمة، التي تضطرب في أحشاء الكاتب، وتضطرب في أحشاء كل مسلم واعٍ، وُضع هذا الكتاب.

وعسى ربنا أن يقرّ أعيننا بتحقيق تلك الأمنية الغالية العارمة، وليس ذلك عليه بعزيز، وهو بالإجابة جدير:

مُنًى إنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ المُنى وإلاَّ فقد عِشْنا بها زَمناً رَغْدَا

ولسنا هنا بصدد تعريف هذا الكتاب، فهو يعرّف نفسه، ولعل تعريفه يكون أدق وأصدق وأحسن مما يعرّفه غيره.

وأملنا وطيد في أن القارئ الناضج المتفتح سيجد فيه بغيته، وسيطّلع فيه على ما يقرّ عينه، ويثلج صدره، ويقنع ضميره بإذن الله.

وليس من شأننا أن نجحد جهود العلماء المتقدمين، أو نغضّ من قيمة تلك الإنجازات التي تمّت على أيدي رجال معروفين بفضلهم وتقدمهم، فالأمر هنا ليس أمر جحود وإنكار، وإنما هو حرص على كتاب الله العظيم، وإسهام في إماطة اللثام عن

كنوزه وفرائده.

وليس هذا الجهد المتواضع إلا اقتباسا من إفادات المتقدمين والمتأخرين، واستفادة من كتاباتهم القيّمة، مع زيادات وإضافات إليها، حيث جمعنا فيه ما كان مفرّقا مبثوثا في غضون كتبهم وأبحاثهم ودراساتهم، مما كان يتصل بالموضوع، وكان يتسم بالجودة والجدّية، وأضفنا إليه ما فتح علينا ربنا سبحانه وتعالى مما يتصل بالموضوع تحديثاً بالنعمة، وتتميماً للفائدة.

والمجال فيه سعة، والموضوع فيه فراغ، والأمر ما زال بحاجة ماسّة إلى جدّيّة صارمة، وغربلة ناخلة، ودراسة واعية هادفة، حتى يتحقق المطلوب، ويُدرَك الأمل المنشود، والله من وراء القصد، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر.

الفقير إلى رحمة ربه
محمد عناية الله أسد سبحاني

لمحة إلى منهج البحث

سيجد القارئ المتأمل في هذا البحث المتواضع ما يسرّه وينال إعجابه بإذن الله؛ فإن الجهد الجهيد، الذي بُذل في إعداده يمتدّ إلى سنين، وما دام أن هذا الجهد الجهيد لم يكن وراءه إلا حب القرآن، والحرص الشديد على ربط الحياة بالقرآن، فالأمل وطيد في أنه سيجد مكانه في القلوب، وسيجد ممن أنزله تبارك وتعالى حسن القبول.

ولكن لا تعدم الحسناء ذاماً، فقد يفاجأ القارئ فيه بما يُحفِظه، أو يثير دهشته، حيث يرى فيه مواقف وآراء تختلف عن مواقف وآراء كثير من أعلام المفسرين!

فليهوّن القارئ الكريم على نفسه، وليربع على ظلعه، إذا رأى شيئاً من ذلك، وليعلم أن الباحث إن اختلف مع جماعة من العلماء والمفسرين في تأويل آية من الآيات، سواء اختلف مع سوادهم، أو اختلف مع بعضهم، فهذا ليس اختلاف شخص مع شخص أو مع أشخاص.

وأنّى لهذا القزم الضئيل النحيل أن يرفع رأسه أمام هؤلاء الأئمة الأعلام! وأنّى له أن يختلف مع فطاحل العلماء وفحول المفسرين!

وإنما هو اختلاف منهج مع منهج ليس إلّا. فالواقع أن المفسرين رحمهم الله لم يكونوا جادّين في الأمر، ولم يكونوا موفّقين حينما بنوا تفسير الآيات على الآثار والروايات؛ فإنهم حينما فعلوا ذلك، فعلوا ما حسبوه هيّناً، وهو في الواقع عظيم، حيث جعلوا الآثار والروايات فوق الآيات! وأنّى للآثار والروايات أن تكون فوق الآيات!

فالآثار والروايات، بما فيها من علّات، وبما فيها من احتمالات، لا تصلح أبداً لأن تكون أساسا لتأويل الآيات، ولا تصلح أبداً لأن نُخضِع لها الآيات.

وإذا كانت الآية ترشدنا بنظمها وسياقها، ولفظها وأسلوبها إلى مفهومها، فلا مبرّر للعدول عنه إلى أيّ مفهوم أجنبيّ عنها، تمليه علينا الآثار، وتمليه علينا الروايات.

فالمفهوم الذي يستفاد من نظم الآية وسياقها، ولفظها وأسلوبها، هو المفهوم

الأمثل، وهو المفهوم الأفضل من أيّ مفهوم آخر.

وتفسير الآية في ضوء لفظها وأسلوبها، ونظمها وسياقها من تفسير القرآن بالقرآن، وقد أجمع العلماء قديماً وحديثاً على أن أحسن تفسير هو تفسير القرآن بالقرآن.

وتفسير القرآن بالقرآن ليس محصوراً في بعض الآيات، وليس محصوراً في بيان المجمل، أو تخصيص العام، أو تقييد المطلق، وما شابه ذلك. بل هو أعمّ من ذلك وأشمل بكثير.

فالتمسك بنظم الآيات وسياقها يمكّننا من تطبيق هذا المنهج في القرآن كله، وإذا استطعنا أن نفسر القرآن كله بالقرآن، فأيّ تفسير يكون أحلى وأقوى من هذا التفسير؟

وهو المنهج الذي كان عليه رسولنا عليه الصلاة والسلام، وهو المنهج الذي كان عليه صحابة رسول الله، ومن تبعهم من السلف الصالحين، والدليل عليه هذا البحث كله.

هذا المنهج الذي نحرص عليه، وهذا المنهج الذي ندعو الناس إلى أن يعودوا إليه.

قد يقال، إن كان هذا منهج رسول الله وأصحابه، فكيف تخلى عنه جمهور المفسرين، وكيف أصبح هذا المنهج غريباً مهجوراً في الأمة طيلة قرون؟

نقول:لم يكن هذا المنهج غريباً مهجوراً نهائياً، ولكن قلّ من انتهجه وتبناه، وذلك لصعوبته ووعورة طريقه فقط. قال الإمام الزركشي:

«وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته. وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره:

«أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».

وقال بعض الأئمة:

«من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً».

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة. قال القاضي

أبوبكر بن العربي في سراج المريدين:

«ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه».[1]

وهذا المنهج يفرض على الباحث أحياناً أن يعدل عن روايات وردت في كتب الصحاح، وعلى رأسها صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وذلك حينما تتعارض تلك الروايات مع الآيات، ولا يمكن التوفيق بينها وبينها، مع الحفاظ على روح الآيات وأهدافها، ومع الحرص على روعتها وبلاغتها.

في مثل تلك الحالات يضطرّ الباحث إلى أن يتمسك بالآيات، وينصرف عن تلك الروايات؛ لكونها لا تنسجم مع تلك الآيات.

وإذا انصرف الباحث عن مثل تلك الروايات، فهذا لا يعني أبداً أنه رغب عن تفسير رسول الله، أو عن تفسير صحابة رسول الله، وأيّ مسلم واعٍ يرغب عن تفسير رسول الله؟ أو أيّ عالم عاقل يزهد في تفسير صحابة رسول الله؟

وإنما يعني ذلك أن تلك الرواية لم تستكمل شروط صحتها، لأنها لو استكملت شروط صحتها، لما تعارضت مع كتاب الله، بل انسجمت معه انسجاماً كاملاً.

وإن تعارضت الرواية مع كتاب الله، فهذا أكبر دليل على أنها ليست من كلام رسول الله، ولا من كلام صحابة رسول الله، وإنما هو كلام شخص مجهول تسرّب إلى تراثنا المجيد على غفلة منا!

وحاشا لرسول الله، وحاشا لصحابته الفقهاء أن يكون كلامهم متعارضاً مع كتاب الله!

وجهابذة المحدثين لهم فضلهم، ولهم مكانتهم، ولهم ثوابهم العظيم عند الله، حيث بذلوا جهودهم الجبارة في جمع الأحاديث، وفي ميز سقيمها من صحيحها،

---

(١) البرهان في علوم القرآن- النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات: ١/ ٣٦.

ولكنهم في كل حال كانوا من البشر، وما كانوا مبرّئين مما لا يتبرّأ منه البشر من ضعف ونسيان، وكانوا يصيبون ويخطئون، وكانوا يحفظون وينسون.

نعم، إنهم غربلوا الروايات غربلة، ومحّصوها تمحيصاً، وطهّروها تطهيراً، ولكن مع ذلك لا يُستبعد أن تكون قد فاتتهم أشياء، فإذا ظهر شيء منها خلال دراستنا لكتاب ربنا، فلا بد أن ننتبه لها، ونتبرّأ منها.

وليس من الدين، وليس من الأمانة أبداً أن نصرّ على صحة أية رواية تتعارض مع كتاب الله، وإن كانت من روايات الشيخين، أو من روايات غيرهما من جهابذة المحدثين، فنحن لا نعتقد في أيّ جهبذ من الجهابذة العصمة من السهو والخطء والزلل، فالعصمة لله ولرسوله، وليس لأحد سواهما.

ومن الغلوّ في الدين أن نحكم على أيّ رأي يختلف مع رأي قدماء المفسرين، بأنه من المحدثات، فالمحدث ما خالف نصاً صريحاً من آية محكمة، أو سنة ثابتة من سنن رسول الله، أو سنن خلفائه الراشدين.

وأما كونه مخالفاً لما قاله قدماء المفسرين، فهذا لا يغضّ من قيمته، ولا يُدخله في عداد المحدثات، إذا كان يستند إلى دليل علميّ متين.

ولا يعزبنّ عن بالنا أن الآراء التي وصلت إلينا في تأويل الآيات، هي ليست كل شيء، فكم من الآراء السديدة، وكم من اللفتات الصائبة، وكم من الاستنباطات القيمة الدقيقة لم يقدّر لها أن تصل إلينا، حيث تلاعبت بها الأيام، وامتدت إليها يد الحدثان!

ثم الجهابذة القدامى لم يكونوا كلهم أصحاب تفاسير، ولم يدوّنوا آراءهم وفتوحاتهم في أسفار، وإنما كانت لهم مجالس و حلقات، فهم علّموا الأجيال، وأعدّوا الرجال، ثم ارتحلوا، ولم يتركوا وراءهم شيئاً يُذكرون به.

والذين لم تدوّن آراؤهم، ولم تقيّد أوابدهم يفوق عددُهم عددَ من دوّنت آراؤهم، وقيّدت أوابدهم مرّات ومرّات، فليس لقائل أن يقول كلما سمع رأياً، أو تأويلاً لا يوجد في التفاسير المتداولة:

(نعوذ بالله، نعوذ بالله، هذا والله من المحدثات، **لم يقل به أحد من السلف!**)

فتلك دعوى فارغة، ذات أضرار بالغة! حيث منعت كثيرا من أصحاب الحقائق أن يبوحوا بما عندهم من الحقائق، خوفا من ألسنة الدهماء، وإن باح به بؤوح على الرغم من تلك الدعوى الفارغة،لم يجد من يُصغي إليه، ويقبل منه إلا من رحم ربك!

وذلك لأن أيّ مسلم عاقل لا يحب أن يتردّى في هوّة المحدثات! نعوذ بالله من شر المحدِثين ونعوذ بالله من شر المحدَثات!

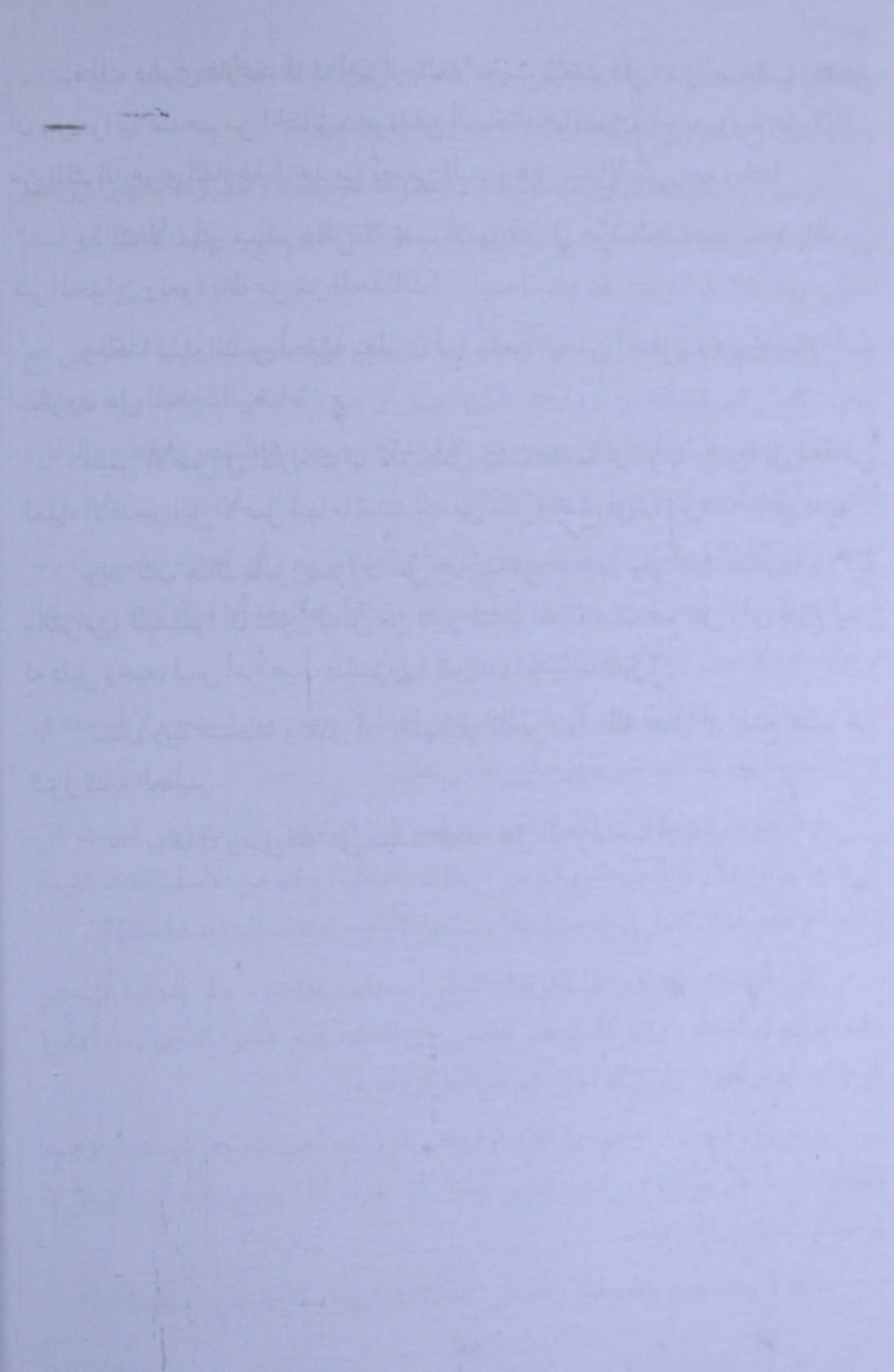
وهكذا لبث الناس أحقاباً يتقلبون فيما وقعوا فيه من أخطاء، وهم يحسبون أنهم سائرون على المحجة البيضاء!

فليس الأصل في الآراء كونها مُدْرجاً في كتاب قديم، أو كونها منسوباً إلى أحد من العلماء الأقدمين، بل الأصل فيها ما تستند إليه من دليل واضح قويم، وبرهان ساطع متين.

وإن كان هناك ناس يصرّون على محاربة كل جديد، ولو كان مدعوما بالأدلة والقرائن، فليعلموا أن تنفير الناس من تدبر كتاب الله، وتجميدهم على رأي فارغ ليس له دليل وجيه، ليس أمراً هيناً، فالمسؤولية كبيرة، والحساب ثقيل!

نسأل ربنا سبحانه وتعالى أن يفقّهنا في الدين، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من كنوز كتابه العظيم.

هذا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الأصل الأول
إخلاص النيّة لله

الأصل الأول لتفسير القرآن، وتدبر آياته، والتوصل إلى مراميه وأهدافه، هو إخلاص النية لله، والتجرد الكامل من الهوى، وتفريغ القلب من كل فكرة طارئة، لا يوجد لها أصل في القرآن. سواء كانت قديمة متوارثة، أو جديدة مستحدثة.

لا بد من ذلك كله حينما نجلس مع القرآن الكريم، نتدبره، ونستمع إليه.

لا بد من تفريغ الذهن من تلك الأفكار الطارئة، أو عرضها على القرآن الكريم، واستفتائه فيها بكل صدق وإخلاص، فإن أقرّها القرآن، أقرها الباحث المسلم، واطمأن إليها، وتمسك بها، وإلا انصرف عنها، ورمى بها عرض الحائط، ثم استبدل بها ما يهديه إليه القرآن.

فمن شأن العالم المسلم أن ينطلق دائماً مع القرآن، ويعطيه زمامه، حتى لا يحيد عن الطريق في رحلاته العلمية، وتطوراته الفكرية، ونشاطاته السلوكية، وتعاملاته الفردية أو الاجتماعية، وحتى يمضي في سبيله قُدُما وهو على نور من ربه.

هذا الإخلاص، وهذا التجرد هو زاد العالم المسلم في طريق فهم القرآن وتدبره، حيث تُفتح عليه أبواب معارف القرآن، ويملأ كفيه بما لم يخطر منه على بال، وكلما غاص فيه غوصة، أخرج منه درّة!

وهذا الإخلاص، وهذا التجرد هو الذي يكون سببا إلى الصحوة في حياة الفرد، وفي حياة الأمة، فالفرد يصحو، والأمة تصحو، وهم يكرهون حالة الركود والجمود، ويتطلعون إلى السموّ والعلوّ.

وأما إذا كان الرجل متعصبا لمذهب، أو متمسكاً بفكرة، أو معجباً بنزعة، ثم جلس مع القرآن، حتى يلوي عنقه، ويستخرج منه ما يقوي مذهبه، أو يؤيد فكرته، أو يقرّ نزعته، أو يمهّد له الطريق إلى ما يريده، فهو يشقى بالقرآن، ولا يسعد به، ولا يزداد

إلا خساراً، والقرآن لا يزيده إلا بعداً عن الحق، وتمادياً في الغيّ. ويصدق عليه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فلا يجوز أن يُجعل القرآن تابعا لمذهب في الفقه، أو نحلة في الكلام، أو مقولة في الفلسفة، أو شطحة في التصوف.

لا يجوز أن يُدرس القرآن، وكأنه نزل بمذهب معين من مذاهب الناس، فلا يقال: إنه نزل بفقه أبي حنيفة، أو بفقه مالك، أو بفقه الشافعي، أو بفقه أحمد، أو بفقه الظاهرية، أو بفقه الإباضية، أو بفقه الزيدية، أو بفقه الجعفرية، وما إلى ذلك.

لا يجوز أن يُدرس القرآن، وكأنه يدعم طائفة خاصة، أو فئة معينة من الناس، كائنة ما كانت تلك الطائفة، وكائنة ما كانت تلك الفئة.

بل يجب أن يُعتبر القرآن إماماً وقائداً للجميع، ومرجعاً للجميع، ومهيمناً على الجميع، وكل يُعرض على القرآن، ويقاس بمقياس القرآن، ويُعرف مكانه من الصحة والإصابة، بمكانه من القرآن.

قال الإمام ولي الله الدهلوي:

«أما النزاع والجدال في الأحكام، والآراء المستنبطة منها، وإحكام كل فريق لمذهبه، وطرحه لمذهب غيره، والهرب من الأدلة القرآنية، فكل ذلك لا يجوز.

ويجب على طالب علوم القرآن أن يبحث في مدلول الآية، ويتمسك بما يظهر من دلالتها، سواء خالف مذهبه أم وافقه.

وقد وقع خلل ونقص وتدافع غريب في إعراب القرآن الكريم، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهب سيبويه، فيؤولون كل ما خالف مذهبه، مهما كان التأويل بعيدا غير مستساغ، وهذا لا يصح، بل يجب الأخذ بالأولى والأوفق بالسياق، سواء

وافق مذهب سيبويه أم وافق مذهب الفراء».[1]

ولو أن الناس فعلوا ذلك، وراجعوا أفكارهم وعقائدهم ومذاهبهم في ضوء القرآن مراجعة جادّة، لكان فهمهم للقرآن أعمق وأوسع، وكان اجتماعهم في كثير من الأمور التي اختلفوا فيها أسهل وأيسر.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

---

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي :١/ ١١٦.

الأصل الثاني
حسن الاستجابة لدعوة القرآن

الأصل الثاني من أصول التفسير، هو حسن الاستجابة لدعوة القرآن، والمسارعة إلى تطبيقها، ولو كلّف ذلك ما كلّف؛ فإن العمل والتطبيق هو الطريق إلى معارف القرآن، والقرآن لا يمنح كنوزه إلا من يمنحه حياته، ويمنحه قلبه وفؤاده.

وأصحاب رسول الله كان لهم حظ كبير من علم القرآن، وفهم القرآن، وقد نهلوا منه وعلّوا، حتى أصبحوا جيلاً قرآنياً فريداً!

ولم يبلغوا ما بلغوا إلا لأنهم منحوا القرآن حياتهم، وكانوا أول مؤمن به، وأول مستجيب لدعوته، وقد شهد لهم بذلك ربنا سبحانه وتعالى حيث قال:

❖ ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٢].

❖ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤].

❖ ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

❖ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

❖ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ

شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

فعلم القرآن لا ينمو ولا يزدهر إلا بالعمل به، والتحلي بآدابه، ولا يسود ولا ينتشر إلا بتنفيذ أوامره وتطبيق أحكامه، وليس له نموّ، ولا انتشار، إذا لم يعمل به، ولم تطبق أحكامه.

والأمم الذين خلوا من قبل ما ضاعت منهم كتبهم إلا بعد ما تخلوا عن العمل بها، وجعلوها وراءهم ظهريّا!

ولنا العبرة فيما رواه أحمد والهيثمي، قالا: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، حدثني القاسم، مولى بني يزيد، عن أبي أمامة الباهلي، قال: لما كان في حجة الوداع قام رسول الله ﷺ، وهو يومئذ مُردف الفضل بن عباس على جمل آدم، فقال:

«يا أيها الناس خذوا من العلم، قبل أن يُقبض العلم، وقبل أن يرفع العلم، وقد كان أنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [المائدة: ١٠١] قال: فكنا قد كرهنا كثيرا من مسألته، واتقينا ذاك حين أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ.

قال: فأتينا أعرابياً فرشوناه برداء، قال: فاعتمَّ به، حتى رأيت حاشية البرد خارجة من حاجبه الأيمن، قال: ثم قلنا له: سل النبي ﷺ، قال: فقال له: يا نبي الله، كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها، وعلمنا نساءنا وذرارينا وخدمنا؟ قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب، قال: فقال: «أي ثكلتك أمك، هذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف، لم يصبحوا يتعلقون بحرف مما جاءتهم به أنبياؤهم، ألا وإن من ذهاب العلم أن يذهب حَمَلتُه، ثلاث مرار.[(١)]

وروي عن سيدنا علي بن أبي طالب، أنه قال:

---

(١) مسند أحمد رقم الحديث:٢٢٦٤٦، وغاية المقصد في زوائد المسند، للحافظ علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي باب ذهاب العلم: ١/ ٣٦٧.

يا حملة القرآن اعملوا به؛ فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً يباهي بعضهم بعضا... أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالستهم تلك إلى الله تعالى.[1]

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه:

اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فليست بقراءة[2].

وقال الحسن البصري:

إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله ... وما تَدَبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله، فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس! والله ما هؤلاء بالقراء، ولا بالعلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعة، متى كان القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء[3].

فالذي يدرس القرآن دراسة أكاديمية بحتة، ولا يجد في نفسه دافعا للتحلي بآدابه وأخلاقه، ولا ينشط لتطبيق ما عرف ودرس فيه، ولا يتحرك لتنفيذه، فمثله كمثل رجل دخل في حديقة كبيرة غنّاء مليئة بالفواكه والثمار، ثمّ خرج منها كما دخل، من غير أن يذوق ثمارها، ويشمّ رائحتها!

نعوذ بالله من مثل هذه الخيبة، ونعوذ به من مثل ذلك الحرمان!!

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

---

(١) كنز العمال: ١٠/ ٢٧٢، ١٢٠، والتبيان في آداب حملة القرآن: ١/ ٣٦.

(٢) كنز العمال: ١/ ٢٧٧٦.

(٣) سنن سعيد بن منصور: ٢/ ٤٢٠، وشعب الإيمان للبيهقي: ٤/ ٢٠٩، والزهد لابن المبارك، واللفظ له: ١/ ٢٧٤/ ٧٩٣.

الأصل الثالث
استشعار عظمة كلام الله

والأصل الثالث من أصول التفسير، استشعار عظمة كتاب الله، والإيمان بأنه كلام عليّ حكيم، كما قال تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

وإذا استشعر المسلم عظمة هذا الكلام، ازداد له حباً وإجلالاً، وازداد له تقديرا وتوقيرا، وأقام عليه ليلاً ونهاراً، وتلاه حق تلاوته كما ذكر الله من دأب الصالحين من أهل الكتاب حيث قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١].

وأثنى على أمة منهم، فقال:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وإذا استشعر المسلم عظمة هذا الكتاب، اعتزّ به اعتزازاً، واغتبط به اغتباطاً، حتى زهد فيما دونه، وأقبل عليه يتشبّع بروحه، ويتحلى بحليته، وينقّب عن كنوزه، ويبحث عن خزائن حكمته، ويستحيي من ربه، إن بدر منه أي تقصير في حقه، ويتمنى لو استطاع أن ينشر نوره في الآفاق، وينقذ به البشرية مما وقعت فيه من نُصب وعذاب. وكان جاداً متأنياً في تأويل آياته، فلا يبني تأويله على أساس هارٍ ينهار لساعته! ولا يقبل من أحد أيّ رأي يتصل بتأويل الآيات، قبل أن يضرب وجهه وعينه، وقبل أن يطمئن إلى صحته ووجاهته.

فإن لم يقتنع بذلك الرأي، ولم يطمئن إلى صحته ووجاهته، انصرف عنه انصرافا، ولم يشدّ عليه يديه إجلالا لقائله، أو تهيباً لشخصيته، كائناً من كان.

وهيهات أن يستخدم كلام الله، من عرفه واستشعر عظمته، لأهداف ساقطة هابطة!

هيهات أن يشتري به ثمناً قليلاً، أو يميل به إلى غير اتجاهه لهوىً في نفسه، أو إجلالا، أو تهيبا، أو تقليدا لغيره.

هيهات أن يحمله على غير محمله، حفاظا على مصالحه، أو مصالح أشياعه وكبرائه. وإن فعل ذلك فاعل، فليس له معنى إلا أنه لم يعرف كتاب الله، ولم يدرك عظمته.

كلام ليس كمثله كلام

ومن أبرز معاني عظمة القرآن أنه كلامُ من ليس كمثله شيء، فهو كلامٌ ليس كمثله كلام، فلننظر في كلام الله دائماً بحيث إنه كلام الله، وهو كلام لا يماثله أيّ كلام، بل لا يناهزه، ولا يدانيه.

وبالتالي ليس لنا أن نشبّه كلام الله بكلام الناس، ولا بكلام الملوك والسلاطين، لا في أسلوبه، ولا في ترتيبه، لا في استهلاله، ولا في اختتامه، لا في مطالعه، ولا في مقاطعه، لا في نظمه، ولا في مضامينه، فإنه خلاف الأصل، وخلاف الواقع تماماً.

وأين الثرى من الثريا؟! وأين السمك من السِّماك؟!

ليس من تعظيم القرآن أن يقال:

❖ ومن هنا نرى أنه ليس من تعظيم القرآن أن يقال:

«افتَرِض القرآن الكريم كمجموعة الرسائل والفرامين، التي يوجهها الملوك والسلاطين إلى رعاياهم حسب مقتضيات الأحوال، ومتطلبات الظروف، يوجهون واحدة، ثم أخرى، فثالثة، فرابعة، وهلم جرا، حتى تجتمع نماذج كثيرة من هذه الفرامين، فيقوم شخص بتدوينها، وترتيب مجموعة لها».

❖ وليس من تعظيم القرآن أن يقال:

«وبما أن أسلوب السور يناسب تماما أسلوب فرامين الملوك والسلاطين، فقد

روعي فيه عند بداية السور ونهايتها طريقة الرسائل والفرامين السلطانية.

فكما أن بعض الرسائل تبدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه، وبعضها ببيان الغرض المقصود، وبعضها ببيان اسم المرسِل والمرسَل إليه، وبعضها تكون رسائل وخطابات صغيرة بغير عنوان وتمهيد، وبعض الرسائل تكون مُطوَّلة، وأخرى مختصرة، كذلك الرب تبارك وتعالى استهلّ بعض السور بحمده وتسبيحه، وبعضها ببيان الغرض من التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ الآية.

❖ وليس من تعظيم القرآن أن يقال:

وهذا القسم من السور يشبه استهلالها استهلال الوثائق والمعاهدات، حيث يقولون:

(هذا ما صالح عليه فلان وفلان) (هذا ما أوصى به فلان) وقد كتب النبي ﷺ في صلح الحديبية: (هذا ما قاضى عليه محمد)

واستهل بعضها بذكر المُرسِل والمُرسَل إليه، كما قال تعالى:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

وهذا القسم يشبه الفرامين التي يكتب فيها: (هذا ما صدر من الباب العالي) أو (إعلام صادر من حضرة الخلافة إلى سكان البلد الفلاني)

وكتب النبي ﷺ: (من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم)

وابتدأ بعض السور على طريقة الرسائل والخطابات المختصرة من دون عنوان وتمهيد، كقوله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾

❖ وليس من تعظيم القرآن أن يقال:

«بما أن أبرز فصاحة العرب، وقدرتهم البيانية كانت تتجلى في القصائد، وكان بدء القصائد بالتشبيب، وبذكر المواضع العجيبة، والوقائع الهائلة هو من عادتهم القديمة، وأسلوبهم المعروف، فقد اختار القرآن الكريم هذا الأسلوب في بعض السور كما في قوله تعالى:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا (١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا (٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾

❖ وليس من تعظيم القرآن أن يقال:

«وكما أن السلاطين يختمون رسائلهم وفرامينهم بجوامع الكلم، ونوادر الوصايا، والتأكيد على التمسك بالأوامر المذكورة، والتهديد لكل من يخالفها، ويخرج عليها، كذلك الله تبارك وتعالى ختم أواخر السور بجوامع الكلم ومنابع الحكم، والتأكيد البليغ والتهديد العظيم»[(١)]

تلك نُقولٌ من كلام الإمام الدهلوي رحمه الله، ولا نعدم أشباهها ونظائرها عند العلماء الآخرين. فقال – مثلا- الإمام الشوكاني رحمه الله، وهو بصدد تأويل الآية (٤٠) من سورة البقرة:

«... وإذا كان الأمر هكذا، فأيّ معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدّم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه، ممن تصدّى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا، وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول، وما يقال له من تضييع الأوقات، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع

(١) ولي الله الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير: ١/ ٨٥-٨٧.

على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه، ورسائله وإنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحاً، وأخرى هجاء، وحيناً نسيباً، وحيناً رثاءً، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع، فناسب بين فقره ومقاطعه، ثم تكلّف تكلفاً آخر، فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك، وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء، والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك، لعدّ هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله[1].

ويزيد الإمام الدهلوي، فيقول:

إجابات لا تُغني ولا تشفي!

❖ لو أثار أحد السؤال: لماذا لم يراع الترتيب في بيان مباحث القرآن العظيم، ولماذا نثرت هكذا نثراً؟

نقول: إن قدرة الله تبارك وتعالى، وإن كانت محيطة بجميع الممكنات، ولكن القول الفصل في هذا الباب إنما هو للحكمة، والحكمة هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، ولم يكن لدى العرب إلى حين نزول القرآن الحكيم كتاب، لا كتاب إلهي، ولا كتاب بشري.

وإن الترتيب الذي اخترعه المؤلفون والمصنفون المتأخرون، لم يكن يعرفه العرب الأولون، وإذا كنت في شك من هذا فارجع إلى قصائد الشعراء المخضرمين، واقرأ رسائل النبي الكريم، ورسائل سيدنا عمر بن الخطاب حتى تنكشف لك هذه الحقيقة جلية واضحة، فلو جاء الكلام على غير ما كانوا يعهدونه من طرائق البيان، لوقعوا في الحيرة، وواجههم شيء لا يألفونه، ولا يأنسون به، وشوش عقولهم، وأقلق خاطرهم.

ثم إن الغرض ليس مجرد إفادة ما لا يعلمونه، بل إفادته مع التكرار والاستحضار

---

(١) الشوكاني- فتح القدير- سورة البقرة، ١/ ٩٤-٩٥.

مرة بعد مرة، ويتوفر هذا المعنى في غير المرتب أكثر من توفره في المرتب من الكلام، وهذا على طريقة المتون الكتابية.

ويقول رحمه الله:

ولو سئلنا: لماذا لم يختر القرآن الكريم تلك الأوزان والقوافي التي تعرف لدى الشعراء، وهي أحلى وألذّ؟ لقلنا: إن اللذة والحلاوة أمر نسبي، يختلف باختلاف الشعوب والبلدان والعقول والأذواق، ولو سلمنا – جدلاً – أن تلك أحلى وألذّ، فإن أبداًع أسلوب جديد، ونموذج جديد من الأوزان والقوافي على لسان الرسول الكريم، الذي كان أمياً، لم يقرأ ولم يكتب، آية ظاهرة من الآيات الدالة على نبوته ورسالته، ولو كان القرآن قد نزل على أوزان الشعر وقوافيه المعروفة، لذهبت بالكفار الظنون إلى أنه شعر من شعرهم المتداول المعروف، ولم يُعيروه كبيرَ اهتمام، ولم يبالوا به.

ومعلوم أن البلغاء من الشعراء المفلقين، والكتاب المجيدين حين يحاولون إبراز مزيتهم، وفضلهم، ورجحانهم على أقرانهم ومعاصريهم على رؤوس الأشهاد، يأتون بصناعة جديدة، ويستنبطون بحوراً جديدة، ويقولون عند ذلك: هل هنالك من يقرض القصيد مثلي، وينشىء الكلام على حذوي؟ فلو جرى هؤلاء على الطريقة المطروقة في الشعر والنثر لم تظهر براعتهم إلا للمحققين البارعين.[1]

هذا ما قاله الإمام الدهلوي، وهو كله- فيما يبدو- من تشبيه كلام الله بكلام الناس، وذلك يتنافى مع عظمة كلام الله، فليس هناك أيّ شبه، وأي سبب بين الكلامين. ولعل الوليد بن المغيرة كان أدق نظراً، و أشد إدراكاً للبلاغة القرآنية، وكان أشد تذوقاً لأساليب كتاب الله، إذ قال:

«فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، و إنه

---

(١) ولي الله الدهلوي، الفوز الكبير في علم التفسير:١/ ٩٩-١٠٠.

ليحطّم ما تحته».[1]

أشياء غريبة!

ثم كلام الإمام الدهلوي يشتمل على أشياء غريبة، حيث قال:

ثم إن الغرض ليس مجرد إفادة ما لا يعلمونه، بل إفادته مع التكرار والاستحضار مرة بعد مرة، ويتوفر هذا المعنى في غير المرتب أكثر من توفره في المرتب من الكلام.

ويقول: ولوسئلنا: لماذا لم يختر القرآن الكريم تلك الأوزان والقوافي التي تعرف لدى الشعراء، و هي أحلى وألذّ؟

ويقول: ولو كان القرآن قد نزل على أوزان الشعر وقوافيه المعروفة، لذهبت بالكفار الظنون إلى أنه شعر من شعرهم المتداول المعروف، ولم يعيروه كبير اهتمام، ولم يبالوا به.

ويقول: ومعلوم أن البلغاء من الشعراء المفلقين، والكتاب المجيدين حين يحاولون إبراز مزيتهم، وفضلهم، ورجحانهم على أقرانهم ومعاصريهم على رؤوس الأشهاد، يأتون بصناعة جديدة، ويستنبطون بحوراً جديدة.

وهنا يملي علينا الموقف أن نقف وقفة، ونسأل:

أيّ فائدة تترتب في غير المرتب أكثر من توفره في المرتب من الكلام؟

وهل يقال عن مباحث القرآن، إنها ينقصها الترتيب؟

وهل هي نثرت هكذا نثرا من غير نظم؟

ثم أيّ الأوزان والقوافي عند الشعراء أحلى وألذّ من أوزان الآيات وفواصلها؟

وهل جاء القرآن على غير أوزان العرب وقوافيهم حتى لا يظنوا أنه شعر من شعرهم؟

وهل القرآن لا يملك ميزة غير تلك الأوزان والفواصل؟

---

(١) المستدرك للحاكم :٢/ ٥٩٦/ ٣٩٢٩- ودلائل النبوة للبيهقي، واللفظ له: ٢/ ١٩٨.

وهل يكمن الإعجاز القرآني كله في تلك الأوزان والفواصل؟

والقرآن حينما جاء بأساليبه البديعة الجذابة، واستخدم تعبيراته الأخّاذة المعجزة، فهل الغرض منها إظهار تفوقه على غيره، كما يفعله الشعراء والبلغاء؟ اللهم لا!

فالواقع أن الإمام الدهلوي رحمه الله ورّط نفسه حينما أثار أموراً كان عنها في غنىً!

وليس من قصدنا الغضّ من شأنه والحطّ من مكانته وكرامته، فالرجل أكبر من ذلك، ونحن نحسن الظن بالإمام الدهلوي ونُجلّه، ونقدر جهوده الجبارة ومواقفه الرائعة في خدمة كتاب الله، ولكن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة.

لا يقاس كلام الله بأيّ كلام:

وما تحدث مثل تلك المشاكل إلا إذا قيس كلام الله بكلام البشر!

ونزول القرآن بلسان العرب لا يعني أبداً أن تكون أساليبه كلها أساليب العرب، وتصاريفه كلها تصاريف البشر. وإنما هي ألفاظ وكلمات، وتراكيب الكلام، حيث جاءت كما كانت معروفة عند العرب، ومألوفة لديها.

وأما الأساليب، سواء كانت أساليب الخطاب، أو أساليب الاستدلال، أو أساليب الإقناع والحجة، أو أساليب الاستعارة والمجاز، أو أساليب الاستهلال والاختتام، أو أساليب الوصل والفصل، وما إليها من أنواع الأساليب، فهي أساليب متميزة لها ميزتها، ولها روعتها، وهي من اللطافة، والبلاغة، والندرة على أقصى الغايات، فهي من السهل الممتنع الذي لا تناله الأيدي، مهما امتدّت وتطاولت.

تراها سهلة سلسة مستعذبة بحيث تدخل في الأذُن بغير إذْنٍ، و تجد فيها في نفس الوقت من القوة والمتانة والجزالة والفخامة بحيث تخالها زبراً من حديد!

شرع كامل لا يقبل أيّ زيادة

ومن أبرز معاني عظمة القرآن أنه شرع كامل دائم، حيث قال تعالى:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

ومن هنا لا يحتمل القرآن أيّ زيادة، أو إضافة، فإنه ختم عليه بالكمال على لسان الوحي، والكامل لا يقبل زيادة، ولا إضافة. والذي يقبل الزيادة والإضافة، ليس بكامل.

ومن هنا يُقبَلُ من الروايات والآثار ما كان من قبيل البيان، ولا يقبل منها ما كان من قبيل الزيادة، والإضافة؛ فإن الله سبحانه وتعالى استأثر بحق التشريع على غيره، وأمر رسوله أن يبين للناس ما شرع لهم، ولم يأمره، أو لم يأذن له بالزيادة فيه، حيث قال تعالى:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى:

﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

فالزيادة في شرع الله ليست من وظيفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإنما وظيفته التي أُسندت إليه هي البيان والبلاغ. ولعل هذا هو السر في أنه عليه السلام حينما ألقى خطبته الأخيرة في حجة الوداع أشهد الناس، ثم أشهد الله على أنه بلغ الرسالة. فقد روى مسلم جزءاً من خطبته عليه السلام، فكان فيما قال:

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّى فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟

قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثَلاثَ مَرَّاتٍ.[1]

---

(١) صحيح مسلم، باب حجة النبي: ٤/ ٣٩/ ٣٠٠٩.

لا يقال: إن الزيادة والإضافة من البيان، فإن الزيادة هي الزيادة، والإضافة هي الإضافة، والبيان بيان، وليست الزيادة ولا الإضافة من البيان. فبينهما بون شاسع.

فالقرآن – مثلاً – حينما ذكر حدّ الزنا مائة جلدة، ولم يذكر الرجم، ولا تغريب عام فالرجم، وتغريب عام لا يضافان إلى مائة جلدة، ولا يقال: إنهما أيضاً من حدّ الزنا، فإنه زيادة على ما جاء به القرآن وهو مائة جلدة، وليس ذلك من البيان.

والقرآن كامل، ووصف القرآن بالكمال يأبى أي زيادة أوإضافة إلى شرع القرآن، والذين يستسيغون الزيادة في كتاب الله، ويركنون إليها، يخلعون عنه وصف الكمال، سواء قصدوا، أم لم يقصدوا، وسواء شعروا، أم لم يشعروا!

رواية بما فيها من إشكالات:

قد يقال: فماذا نفعل بتلك الروايات التي رواها أهل الحديث، وعلى رأسهم الإمام البخاري، حيث قال:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّهُمَا أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ. وَقَالَ الآخَرُ وَهُوَ أَفْقَهُهُمَا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ ، وَأْذَنْ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ. قَالَ «تَكَلَّمْ». قَالَ إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا - قَالَ مَالِكٌ: وَالْعَسِيفُ: الأَجِيرُ - فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ ، فَأَخْبَرُونِى أَنَّ عَلَى ابْنِى الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَبِجَارِيَةٍ لِي، ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ مَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَإِنَّمَا الرَّجْمُ عَلَى امْرَأَتِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ، أَمَّا غَنَمُكَ وَجَارِيَتُكَ فَرَدٌّ عَلَيْكَ». وَجَلَدَ ابْنَهُ مِائَةً وَغَرَّبَهُ عَامًا، وَأَمَرَ أُنَيْسًا الأَسْلَمِيَّ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَةَ الآخَرِ، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا، فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا.(١)

نقول: إن راوي هذا الحديث، وهو عبدالله بن يوسف، ضعّفه بعض صيارفة

---

(١) صحيح البخاري، باب إذا رمى امرأته أو: ٤/ ٣٤٦/ ٦٨٤٢.

الحديث مثل ابن عدي، حيث ذكره في كتاب أفرده لضعفاء الرجال.[1]

مشاكل في متن الحديث

مشكلة أولى:

وإن أغضينا الطرف عن السند، فهناك إشكالات أخرى تتعلق بمضمون الرواية، فالرواية توحي بأن النبي عليه الصلاة والسلام حكم على الولد باعتراف أبيه، ولم يسأل الولد شيئاً، مع أنه عاقل بالغ مسؤول عن نفسه، فهل الأمر هكذا؟ وهل يكون اعتراف الوالد حجة على ولده البالغ الكبير، ويقام عليه الحد، على أساس اعترافه، بدون أن يجري الاعتراف على لسان الولد؟

مشكلة أخرى:

وهناك مشكلة أخرى أكبر منها، وهي أن الرواية تقول إن النبي عليه السلام حكم في القضية على اعتراف أحد الطرفين، وحكم بما حكم في غيبة الطرف الآخر، فهل يتفق ذلك مع طريقة النبي عليه السلام في الفصل والقضاء؟ وهل يجوز للقاضي أن يصدر الحكم اعتماداً على كلام أحد الطرفين، قبل أن يسمع من الآخر، وقبل أن يفسح له المجال حتى يبوح بسرّه، ويدلي بدلوه في الموضوع؟

وهذا الذي حصل من سيدنا داود، عليه السلام، حيث جاءه خصمان بغى بعضهما على بعض، فاستمع إلى أحد الخصمين، وعجل بالحكم قبل أن يستمع إلى الآخر، فعاتبه ربه أشد عتاب، حيث قال تعالى:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

مشكلة ثالثة:

وهناك مشكلة أخرى ثالثة، وهي أنه جاء في الرواية:

فَقَالَ أَحَدُهُمَا: اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله.

---

(١) ابن عديّ، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: يحيى مختار غزاوي: ٤/ ٢٠٥.

وَقَالَ الآخَرُ، وَهْوَ أَفْقَهُهُمَا: أَجَلْ يَا رَسُولَ الله، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله.

فقال رسول الله: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله.

فتكرر ذكر القضاء بكتاب الله ثلاث مرات، والذي ذكر في القضاء، أعني: الرجم والتغريب، لا يوجد لهما ذكر في كتاب الله، باعتبار أنهما من حدّ الزنا!

فهذا التركيز على القضاء بكتاب الله، مع أن الوارد في القضاء لا شأن له بكتاب الله، يجعل الباحث يشك في صحة الرواية، ويلقي في روعه، كأنها محاولة غير مشكورة لإيهام الناس أن الرجم والتغريب من حد الزنا في الإسلام، وأنه لا يخالف كتاب الله!

لا نسخ مع بقاء الحكم!

قد يقال: إنه من الوحي الذي بقي حكمه، ونسخت تلاوته! ولكن هذا النوع من الوحي غير معهود في كتاب الله. ولا يحل لأحد أن يقول عن شيء لا يوجد في كتاب الله، إنه كان في كتاب الله، ثم نُسخ.

لا يقول ذلك بناء على الآثار والروايات، فكتاب الله هو الذي جاءنا عن طريق التواتر، جاءنا بتواتر لا يماثله أيّ تواتر. جاءنا عن طريق الأجيال المتكاثرة المتتابعة، لا عن طريق ناس معدودين، ولا عن طريق الآحاد. والأخبارُ والرواياتُ، سواء كانت متواترة أم كانت آحادية، ليس من شأنها أن تحكم بكون شيء في كتاب الله، ولا أن تحكم بنسخ شيء منه.

والأحكام، إذا لم تكن لها آيات تتلى، كانت بحاجة لثبوتها أو لثبوت قرآنيّتها، إلى تواتر الرواة مثل نصوص الآيات، فهي لا تطير في الآفاق بدون جناح، ولا تُقبل المعاني والأحكام باعتبار أنها من القرآن، إلا إذا جاءت بنفس التواتر الذي جاءت به نصوص الآيات.

وإذاً، فلا يوجد للرجم ولا للتغريب ذكر في القرآن، لا يوجد لهما ذكر في حق الزناة والزواني، وإن كان يوجد لهما ذكر في حق المحاربين المفسدين في الأرض، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فالتقتيل هو القتل البطيء الفظيع المتقطّع، الذي يرهب المجرمين المفسدين، ولا يصدق هذا التقتيل على شيء بقدر ما يصدق على الرجم، وأما التغريب فهو النفي من الأرض.

مشكلة رابعة:

ثم هناك مشكلة أخرى رابعة، وهي فيما ورد في آخر الرواية:

«وَأَمَرَ أُنَيْسًا الأَسْلَمِيَّ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَةَ الآخَرِ فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا،فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا».

أليس فيه قلة الاهتمام، وعدم المبالاة؟ مع أن القضية خطيرة، والأمر جلل!

وهذا أمر لا يقبل في شأن رسول الله، فرسولنا عليه الصلاة والسلام لم يُر منه إلا الجدّ والصرامة في مثل هذه الأمور، وكان يولي القضايا دائماً ما تستحقّه من العناية والتيقظ والاهتمام.

وإذا كانت مثل تلك القضية الخطيرة في دولة الإسلام، فهل يُحضر المتهم في المحكمة أمام لجنة القضاة، وينظر في الأمر بكل جدّ، وبكل دقّة، أم يُرسل شخص إلى بيت المتّهم، حتى يسأله، ثم يرجمه؟

هذا، وهناك معضلات أخرى سنفصلها في موضعها بإذن الله. وهي لا تخص تلك الرواية فقط، فالروايات التي تضيف إلى الجلد، الرجم وتغريب عام، حدا للزنا، كلها معلولة، وهي بحاجة إلى أن تبحث، وتعالج بكل دقة وموضوعية، وهذا ليس محلها، وسنفرغ لها في بحث مستقل بإذن الله.

وليس هذا الموضوع فقط، فالروايات التي جاءت بالزيادة على كتاب الله، كلها لا تخلو من علات! ولا تخلو من معضلات!

وظيفة الرسول هي البلاغ:

ونبينا عليه الصلاة والسلام ما كان من وظيفته، كما أسلفنا، أن يزيد على كتاب الله، وإنما كانت وظيفته البلاغ، والبيان لما أشكل على الناس فهمه من حكم الكتاب، ولقد روي عنه عليه الصلاة والسلام، أنه قال:

«إني والله لا أُحِلُّ إلا ما أحل الله في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه».(١)

وروى البيهقي: أَخْبَرَنَا أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَسَنِ قَالاَ حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ قَالَ سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيَّ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَانَهُ وَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ الْحُجَرِ يُحَذِّرُ الْفِتَنَ وَقَالَ:

«إِنِّي وَاللهِ لاَ يُمْسِكُ النَّاسُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ، ألا أَنِّي لاَ أُحِلُّ إِلاَّ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَلاَ أُحَرِّمُ إِلاَّ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ»(٢)

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاؤوس عن أبيه أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لا يمسكنّ الناس عليّ بشيء، فإني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه(٣).

ومن هنا نقول: من الصعب جداً أن نوافق صاحب «سبل السلام» فيما قاله تعليقا على حديث العسيف، حيث قال:

«الحديث دليل على وجوب الحد على الزاني غير المحصن مائة جلدة، وعليه دل القرآن، وأنه يجب عليه تغريب عام، وهو زيادة على ما دل عليه القرآن ودليل على أنه

---

(١) الإمام الشافعي، الأم: ١/ ٨٠.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٧/ ٧٥ / ١٣٨٢١.

(٣) مصنف عبد الرزاق: ٤/ ٥٣٤ / ٨٧٦٦.

يجب الرجم على الزاني المحصن وعلى أنه يكفي في الاعتراف بالزنا مرة واحدة كغيره من سائر الأحكام»(١)

فهذا القول تردّه الأحاديث التي ذكرناها آنفاً، كما ترده الآيات التي أسلفنا ذكرها.

ولعل صاحب «زهرة التفاسير» كان أحسن قولاً، وأقرب رشداً حينما قال في تأويل آية الجلد:

«هذه عقوبة الزنى، ونعتقد أن حكم الآية عام، والظاهر من الألفاظ أنها تعمّ المحصن وغير المحصن».(٢)

حديث: نكاح المرأة على عمتها:

وأما نهيه عليه السلام عن أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، أو العمة على بنت أخيها، أو الخالة على بنت أختها، كما وردت به الروايات، مثلما روى البخاري، قال:

حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله أَخْبَرَنَا عَاصِمٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ سَمِعَ جَابِرًا رضي الله عنه قَالَ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا. وَقَالَ دَاوُدُ وَابْنُ عَوْنٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.(٣)

أو مثلما روى النسائي، قال: أَخْبَرَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ أَنْبَأَنَا الْمُعْتَمِرُ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَالْعَمَّةُ عَلَى بِنْتِ أَخِيهَا(٤).

أو قوله عليه السلام: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، مثلما روى مسلم، قال:

---

(١) محمد بن إسمعيل الصنعاني، سبل السلام، شرح بلوغ المرام، كتاب الحدود: ٤/ ٤.

(٢) الشيخ الإمام أبوزهرة – زهرة التفاسير- تفسير سورة النور- ص: ٥١٤٢.

(٣) صحيح البخاري:٣/ ٤٥١/ ٥١٠٨: باب لا تنكح المرأة على.

(٤) سنن النسائي، باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، رقم الحديث: ٥٤٣٠.

حديث: الحرمة من الرضاعة:

وَحَدَّثَنَاهُ أَبُو كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ ح وَحَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْهُذَلِيُّ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمِ بْنِ الْبَرِيدِ جَمِيعًا عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ»(١)

فهذا كله بيان لما أُجمِلَ في قوله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣].

الحرمة من ناحية أحكامها نوعان:

بيانه: أن الله تعالى جعل المحارم التي ذكرها في الآية على نوعين، نوع يتضمن الأمهات والبنات، ونوع يتضمن الأخوات ومن بعدهن من العمات والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

وليست الحرمة في النوعين على درجة واحدة، وعلى حد سواء، بل يوجد الفرق في النوعين في حالة دون حالة، فتكون الحرمة أحياناً في النوعين على حد سواء، وأحياناً يكون الفرق في النوعين، وتكون الحرمة في النوع الأول ثابتة، وتكون في النوع الثاني طارئة من وجه، غير طارئة من وجه آخر.

الحرمة بسبب النسب والرضاعة:

فتكون الحرمة في النوعين - مثلاً - إذا كانت حرمة النسب، فتكون الأمهات،

---

(١) صحيح مسلم، باب يحرم من الرضاعة ما: ٤/ ١٦٢/ ٣٦٤٢.

والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت كلهن من المحارم، بدون أي فرق بينهن.

وكذلك تكون الحرمة في النوعين، إذا كانت حرمة الرضاعة، والقرآن لم يذكر المحارم من الرضاعة كلهن باللفظ، وإنما دلّ على ذلك بنظم كلماته، فذكر الأولى من النوع الأول: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ وذكر الأولى كذلك من النوع الآخر، وهي: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

فالأمهات شملت البنات، والأخوات شملت من بعدهن: من العمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت. وعلى هذا تكون الأمهات من الرضاعة، والبنات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، والعمات من الرضاعة، والخالات من الرضاعة، وبنات الأخ من الرضاعة، وبنات الأخت من الرضاعة كلهن من المحارم، على درجة واحدة، ومن هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ»

الحرمة بسبب الصهر:

ولكن إذا كانت الحرمة بسبب الصهر، اختلفت نوعيّتها، واختلفت جهاتها في النوعين، والقرآن لم يذكر ذلك باللفظ، وإنما دل عليه بنظم كلماته، فقال:

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

فالقرآن ذكر في المحارم من الصهر أمهات النساء، وبنات النساء فقط، ولم يذكر النوع الثاني من المحارم، وهن: الأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

وهذا يعني أنهن لسن من المحارم.

ثم قال تعالى بعد قليل: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ أي: أخت المرأة ليست حراماً عليكم، وإنما الحرام أن تجمعوا بين المرأة وأختها.

وهذا الحكم لا يخص أخت المرأة فقط، بل ينطلق على كل من في حكم الأخت من العمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت؛ فلا يجوز الجمع بين المرأة وأختها في النكاح، ولا يجوز الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وبين المرأة وبنت أخيها، وبين المرأة وبنت أختها.

فالنبي عليه السلام حينما نهى أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا، أونهى أن تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَالْعَمَّةُ عَلَى بِنْتِ أَخِيهَا، فهذا كله كان بياناً لما وضعه ربنا في نظم تلك الآية، ولم يكن ذلك زيادة على كتاب الله، كما وهِم ذلك من وهِم.

حرمة لحم الحمار والسباع في القرآن:

ويشبه ذلك نهيه عليه الصلاة والسلام عن لحم الحمار الأهلي، وكل ذي ناب من السباع، حيث روى الطبراني، قال:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن إِبْرَاهِيمَ أَبُو عَامِرٍ الصُّورِيُّ النَّحْوِيُّ، ثنا سُلَيْمَانُ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيُّ، ثنا الْوَلِيدُ بن مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن يَزِيدَ بن تَمِيمٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: يُحَرِّمُ لَحْمَ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَكُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.(١)

فمثل تلك الروايات بيان لما أطلق عليه لفظ الأنعام في مثل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وفي قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فالله سبحانه وتعالى ما أَحلَّ لنا إلا الأنعام، وبهيمة الأنعام، وكل ما كان سوى

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٦/ ٨٠/ ١٨٠٠١.

الأنعام، وبهيمة الأنعام، فهو حرام، والحديث بين لنا أن الحمار الأهلي ليس من الأنعام، ولا بهيمة الأنعام، فهو حرام، كما أن كل ذي ناب من السباع ليس من الأنعام، وبهيمة الأنعام، فهو حرام.

حديث: أحلت لنا ميتتان ودمان:

ومثله قوله عليه السلام: «أحلت لنا ميتتان ودمان» حيث روى عبد بن حميد، قال: ثنا عمر بن يونس اليمامي أبو حفص، ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[1] .

فهذا الحديث بيان لقوله تعالى:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣].

حيث بين لنا نبينا عليه السلام من خلال هذا الحديث أن الحوت والجراد ليسا من الميتة المحرمة في الآية، كما أن الكبد والطحال ليسا من الدم الحرام. فالحوت والجراد لا يذبح ولا ينحر، وإنما يؤكل بعد ما يموت.

والحوت والجراد لا يطلق عليهما لفظ الميتة في لسان العرب، وإنما أطلق عليهما النبي عليه السلام هذا اللفظ نظراً إلى واقع الأمر، وتفهيماً لمن يعتبرهما ميتة لغفلته عن فقه اللغة.

والكبد والطحال لا يسميان دماً في العرف، وإذا أطلق لفظ الدم، فلا يراد به إلا الدم المسفوح، والذي حرّمه القرآن هو الدم المسفوح، حيث قال تعالى في موضع آخر:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

والنبي عليه الصلاة والسلام ما سمى الكبد والطحال دما إلا نظرا إلى حقيقة الأمر، وتفهيما لمن يعتبرهما دماً لبعده عن فقه اللغة، وإلا فالعرب ماكانوا يعتبرونهما دما.

---

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: ٥٧٢٣ - ومسند عبد بن حميد، رقم الحديث: ٨٢٠.

فهذا كله وما شابهه من قبيل البيان، وليس فيه أيّ إشكال، إنما الإشكال في الزيادة على كتاب الله، وليس لأحد أن يزيد على كتاب الله.

روايات الزيادة على كتاب الله:

قد يقال: هناك روايات صحيحة صريحة تدل على أن نبينا عليه السلام، ما أوتي القرآن فقط، بل أُوتي (الكتاب وما يعدله) أو أوتي (الكتاب ومثله معه) مثلما روى الطحاوي، قال:

حدثنا ابن أبي داود قال: ثنا أبو مسهر قال: ثنا يحيى بن حمزة قال: حدثني الزبيدي عن مروان بن رؤبة أنه حدثه عن عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي عن المقدام بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إني أُوتيت الكتاب وما يعدله، يوشك شبعان على أريكته يقول: بيننا وبينكم هذا الكتاب، فما كان فيه من حلال حللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا وإنه ليس كذلك. لا يحل ذو ناب من السباع ولا الحمار الأهلي[1].

أو مثلما روى أبوداود، قال:

حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ثنا أبو عمرو بن كثير بن دينار عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معد يكرب: عن رسول الله ﷺ أنه قال «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته (السرير) يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها. ومن نزل بقوم، فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه، فله أن يعقبهم بمثل قراه»[2].

قد يقال: فما المانع إذاً من القول بأن رسول الله ﷺ زاد على كتاب الله، وما المانع من القول بأن الأحاديث فيها زيادة على كتاب الله؟

---

(١) شرح معاني الآثار، باب أكل لحوم الحمر الأهلية: ٤/ ٢٠٩/ ٦٤١٠.

(٢) سنن أبي داود، باب في لزوم السنة: ٤/ ٣٢٨/ ٤٦٠٤.

نقد الأسانيد:

نقول: الروايتان من ناحية السند ليستا بحيث يعتمد عليهما في مثل هذا الأمر الخطير.

بيانه: أن عبدالرحمن بن أبي عوف الجرشي، وقد جاءت الروايتان عن طريقه، قال عنه ابن القطان: مجهول الحال.(١)

وأما يحيى بن حمزة في الرواية الأولى، فقد عدّه العقيلي في الضعفاء، وذكره في كتاب الضعفاء، وقال:

يحيى بن حمزة قاضي دمشق، حدثنا محمد حدثنا عباس قال: سمعت يحيى قال: يحيى بن حمزة قاضي دمشق يُرمى بالقدر(٢).

وأما حريز بن عثمان، تلميذ عبدالرحمن بن أبي عوف الجرشي، فقال عنه ابن حبان:

حريز بن عثمان الرحبي من أهل حمص كنيته أبو عثمان، وكان يلعن عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، بالغداة سبعين مرة، وبالعشي سبعين مرة، فقيل له في ذلك: فقال: هو القاطع رءوس آبائي وأجدادي بالقوس، وكان داعية إلى مذهبه، وكان علي بن عياش يحكي رجوعه عنه، وليس ذلك بمحفوظ عنه.(٣)

وقال: حريز ممن يتنكّب حديثه.(٤)

وحكى الأزدي في «الضعفاء»: أن حريز بن عثمان روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد أن يركب بغلته جاء علي بن أبي طالب، فحل حزام البغلة ليقع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) تهذيب التهذيب :٦/ ٢٢٣.

(٢) كتاب الضعفاء الكبير، أبوجعفر العقيلي، رقم الصفحة: ٤/ ١٥١٠.

(٣) ابن حبان، كتاب المجروحين: ١/ ٢٦٨.

(٤) ثقات ابن حبان، رقم التذكرة: ٦١٣٥.

قال الأزدي: من كانت هذه حاله، لا يروى عنه.(١)

ولا نريد أن نطيل، فأسانيد تلك الروايات لا تخلو من آفات، وهي ليست بحيث يعتمد عليها في مثل هذه الأمور.

مضمون الرواية يتضمّنه القرآن:

ومما يوهن أمر تلك الروايات، ويجعلها في حصار الشبهات، أن الأمور التي ذكرت فيها، باعتبار كونها زيادة على القرآن، هي كلها يتضمّنها نظم القرآن، وسياق آياته، وليست من الزيادة في شيء.

فأما حرمة الحمار الأهلي، وكل ذي ناب من السباع، فهي مفهومة من لفظ الأنعام، وبهيمة الأنعام، المذكور في آيات كثيرة؛ فإن السباع والحمير ليست من الأنعام، أو بهيمة الأنعام، وما أحلت لنا إلا الأنعام أو بهيمة الأنعام. وكل ما عداها فهو حرام، قال ابن منظور:

النَّعَم واحد الأَنعام وهي المال الراعية قال ابن سيده: النَّعَم: الإبل والشاء، يذكر ويؤنث، والنَّعْم لغة فيه. وقال ابن الأعرابي: النعم: الإبل خاصة، والأَنعام: الإبل والبقر والغنم، وقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] قال ينظر إلى الذي قُتل ما هو فتؤخذ قيمته دراهم فيُتصدق بها قال الأَزهري: دخل في النعم ههنا الإبلُ والبقرُ والغنم. وقال الفراء: النَّعَم ذكر لا يؤَنث ويجمع على نُعْمانٍ مثل حَمَل وحُمْلانٍ والعرب إذا أَفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلا الإبل، فإذا قالوا: الأنعام، أَرادوا بها الإبل والبقر والغنم.(٢)

ولقد بينا ذلك فيما مضى، ومن أراد زيادة البيان فليرجع إلى كتابنا: «إمعان في مشكل القرآن»؛ فإنه يجد فيه ما يقنعه، ويشفيه بإذن الله.

وأما لقطة معاهد، فحرمتها مفهومة من قوله تعالى:

---

(١) تهذيب التهذيب: ٢/ ٢٠٩-٢١٠.

(٢) لسان العرب: نعم.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فالمسلم مأمور بإيفاء العهد بنص القرآن، فإذا وجد لقطة معاهد، كان من واجبه أن يكون عند العهد، ويرد لقطته إليه، ولكن إذا أخذها ولم يردّها إليه، كان قد خان العهد، وأكل المال الحرام.

وأما الأمر الأخير، وهو قوله عليه السلام: «ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه، فله أن يعقبهم بمثل قراه». فهو مفهوم من قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

ومفهوم من قوله تعالى:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

فالنازل بقوم لا ينزل بهم إلا وهو في حالة جوع وفقر، ويكون في حكم المحروم، ويكون صاحب حق في أموالهم، وإذا كان شأنه كذلك، فله أن يأخذ حقه إذا منعوه، ولا حرج.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ [الذاريات: ١٩] قال: سوى الزكاة يَصِلُ بها رحماً أو يقري بها ضيفاً أو يعين بها محروماً.(١)

وذهب أهل التفسير إلى أن المراد بابن السبيل في آية سورة الروم، هو الضيف، وهو الذي ينزل بقوم، ويكون بحاجة إلى رعاية وضيافة، ويكون من حقه على هؤلاء القوم أن يضيفوه.

فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، سورة الذاريات، آية: ١٩.

﴿حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [الروم: ٣٨] قال: الضيف.(١)

مثال آخر لما يوهم الزيادة على كتاب الله:

ومما حسب فيه الناس زيادة على كتاب الله، وهو ليس منه، حديث المضمضة والاستنشاق، حيث أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالمضمضة والاستنشاق لمن قام إلى الصلاة، وأراد الوضوء، مع أن الله سبحانه لم يأمر بهما في آية الوضوء، حيث قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].

فما حكم المضمضة والاستنشاق في الوضوء؟

قال ابن كثير: «وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؟ لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خُزَيمة، عن رفاعة بن رافع الزّرقي؛ أن النبي ﷺ قال للمسيء في صلاته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة؟ أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستنثر» وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم لينتثر» والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق».(٢)

وقال الشوكاني: وأما المضمضة والاستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف فقد ثبت غسلهما بالسنة الصحيحة، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف».(٣)

ولعل القول الحاسم لما وقع بين الفقهاء من اختلاف في أمر المضمضة

---

(١) السيوطي، الدر المنثور.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨-٤٩.

(٣) فتح القدير: ٢/ ٢٣.

والاستنشاق، هو أن نبينا عليه السلام ما أمر بالمضمضة والاستنشاق، زيادة على كتاب الله، وإنما هو بيان وإيضاح لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾

فالوجه يشمل باطن الأنف والفم، ولا يتحقق غسله إلا بعد المضمضة والاستنشاق.

وإذا كانت المضمضة والاستنشاق من تمام غسل الوجه، كان لهما حكم غسل الوجه، ومن هنا قال رسول الله للمسيء في صلاته: «توضأ كما أمرك الله» فالمضمضة والاستنشاق داخلان فيما أمر الله.

معنى: «ومثله معه»:

وتلك الدراسة الوجيزة ترشدنا إلى أن نبينا عليه السلام إن أوتي القرآن ومثله معه، فهذا المِثْلُ ليس شيئاً زايداً على القرآن، وإنما هو الفهم الثاقب الذي ينفذ إلى اللآلئ المكنونة في غضون آيات القرآن، وتلك اللآلئ المكنونة تبدو بادئ ذي بدء، وكأنها أشياء جديدة، وزايدة على القرآن، ولكن إذا تأملها الفقيه الباحث، وعرضها على القرآن، وجدها مطويّة في نظم آياته.

قال عبد الحميد الفراهي: «ومثله معه» هو الفهم والبصيرة، والنور الذي أشرق به قلبه عليه السلام، مع إنزال الوحي كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] (١).

السنّة كلها شرح للقرآن:

ومن هنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله». (٢)

وقال سعيد بن جبير: «ما بلغني حديث عن رسول الله على وجهه، إلا وجدت

---

(١) تفسير نظام القرآن، ديباجة الكتاب، ص: ٢٣.

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ت: سعيد المندوب: باب في العلوم المستنبطة من القرآن: ٤/ ٣٣١.

مصداقه في كتاب الله».[1]

وقال مسروق: «ما تساءل أصحاب رسول الله ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن قصر علمنا عنه»[2]

وقال الشافعي: «جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن»[3]

وقال رحمه الله: «جميع ما حكم به النبي ﷺ، فهو مما فهمه من القرآن، قال السيوطي: قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: (إني لا أحل إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ماحرم الله في كتابه) أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في الأم».[4]

وقال الشاطبي:

«السنة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيلُ مجمله، وبيان مُشْكِله، وبسط مختصره، وذلك لأنها بيان له وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فلا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية. وأيضاً فكل ما دل على أن القرآن هو كليّة الشريعة وينبوع لها، فهو دليل على ذلك لأن الله قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وفسرت عائشة ذلك بأن خلقه القرآن واقتصرت في خلقه على ذلك فدل على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن».[5]

ومنه ما رواه سعيد بن منصور قال نا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار، فقلت: ما قال رسول الله ﷺ إلا وهو في كتاب الله عز وجل فقرأت فوجدته ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: باب في العلوم المستنبطة من القرآن: ٤/ ٣٣٠.

(٢) الخطيب البغدادي- الفقيه والمتفقه: القول في الأصل الأول وهو الكتاب: ١/ ١٩٧.

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم: مقدمة: ١/ ٦.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، ت: سعيد المندوب: باب في العلوم المستنبطة من القرآن: ٤/ ٣٣٠ .

(٥) الشاطبي، الموافقات، المسألة الثالثة: ٤/ ٣١٤-٣١٨.

[هود: ١٧][1].

وبالجملة، فكثير من الأحكام والشرائع وردت به الأحاديث، والناظر فيه يحسبه زيادة على كتاب الله، وهو ليس زيادة على كتاب الله، وإنما هو شرح وإيضاح له، وبيان وكشف لما وضع في لفظه، وفي غضون آياته ونظم كلماته. ولقد ذكرنا له أمثلة ونماذج فيما مضى.

«ألا لا وصية لوارث» مما يتضمّنه القرآن:

قال الإمام الفراهي:

«كم من آية في القرآن، إن تدبرتها، وفهمت معناها، وجدت من الأحاديث، ما جاء موافقا لها، فالحديث لم يزد شيئاً على القرآن، ولكن بين من الآية أمراً غامضاً، يكاد يخفى على من لا يتدبر، ترى، مثلا، في آية الميراث وصيتين: وصية من الله، وسمّاها فريضة من الله، حيث قال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١].

ووصية أخرى من الميت، وجعل التقدم لوصية الميت.

وقد علمنا أن الله أعلم، وأحكم، ووصيته أقدم، فلا بد أن تكون وصية الميت لغير وارثيه، ثم ترى النبي عليه الصلوات صرّح بذلك، فقال: «ألا لا وصية لوارث»[2]

فقوله عليه السلام: «ألا لا وصية لوارث» ليس زيادة على القرآن، وإنما هو مما تضمنه موقع الكلام ونظمه، وسياقه، فالوصية على وصية الله ليست من حسن الأدب مع الله، فلتكن وصية الميت لغير مَنْ أوصى الله بهم.

كان رسول الله شارحاً لا شارعاً:

ولكن إذا ثبت وتأكد أن الأمر أمر زيادة على كتاب الله، وليس من البيان في شيء، فالزيادة على كتاب الله لم تكن من وظيفة رسول الله، ولم يكن رسول الله شارعاً، وإنما

---

(١) سنن سعيد بن منصور.م م: ٥/ ٣٤١.

(٢) عبد الحميد الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص: ٦٥ .

كان شارحاً ومبيّنا لشرع الله، وهو شرف باذخ كبير، ولا غضاضة فيه، فليس وراءه شرف أكبر منه. قال تعالى في سورة النحل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

قال الإمام عبد الحميد الفراهي:

«الشارع ليس إلا الله، فله الحكم، والنبي رسوله، وليس له أن يشرع من عنده شيئاً». (١)

والروايات التي جاءت بالزيادة على كتاب الله، لا تخلو من تحريف أو تصحيف، وهي موضوعة، أو مقلوبة، أو مدخولة بالتأكيد.

ومن الزيادة على كتاب الله ما قيل في تفسير لفظ الكلالة في قوله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

معنى الكلالة في الآية:

قال أهل التفسير في تأويل تلك الآية:

قوله تعالى: (إِن امرُؤٌ هلك) أي: مات (ليس له ولد) يريد: ولا والِد: فاكتفى

---

(١) الفراهي، الرائع في أصول الشرائع، فصل: الأحكام من الله تعالى، ولا شركة فيه- مخطوط.

بذكر أحدهما، ويدلُ على المحذوف أنَّ الفتيا في الكلالة، هي مَن ليس له ولد ولا والد.[1]

وإذا أنعمنا النظر في الآية مباشرة، وجدنا أن الكلالة ليس معنى مفرداً، وإنما هي صورة من صور التوريث، أو حالة من حالات التوريث، فالإخوة لا يسمون كلالة في مصطلح القرآن، ولا غيرهم من الأقارب والأولياء، وإنما الكلالة: أن يموت شخص، وليس له ولد، وإنما له أخت، أو أخوات، أو إخوة لأب وأم، أو لأب، فهذه الصورة المتكاملة من حالة التوريث، هي التي تسمى كلالة.

وإذا كانت هذه الحالة، أو هذه الصورة من التوريث، سدّت الأخت مسد البنت، وسدّ الأخ مسدّ الابن، وسدّت الإخوة مسد الأبناء، وسدّت الأخوات مسدّ البنات. وإذا كانوا إخوة، رجالا ونساء، فللذكر مثل حظ الأنثيين، مثل ما يكون مع الأولاد تماما، جمعاً وتفريقاً.

هذا ما نجده من معنى الكلالة في القرآن.

فما لبث الناس أن زادوا في معنى الكلالة لفظ «الوالد» استناداً إلى بعض الروايات، وقالوا: الكلالة من ليس له ولد ولا والد!

وتلك الروايات ليست عن رسول الله، وإنما هي من بعض صحابته، وإذا لم تَجُزِ الزيادةُ على كتاب الله بما رُوي عن رسول الله، فكيف بما رُوي عن صحابته؟

رواية في معنى الكلالة:

فمن تلك الروايات ما رووه عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، قال ابن جرير:

حدثني يعقوب بن إبراهيم قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا عاصم الأحول قال، حدثنا الشعبي: أن أبا بكر رحمه الله قال في الكلالة: أقول فيها برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله: هو ما دون الولد والوالد. قال: فلما كان عمر رحمه الله قال: إني لأستحيي من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، سورة النساء، رقم الآية: ١٧٦.

الله أن أخالف أبا بكر.[1]

فالرواية جاءت عن طريق عاصم الأحول، وهو عاصم بن سليمان الأحول أبو عبد الرحمن البصري مولى بني تميم، وقد تكلم فيه عدد من أئمة الرجال[2]

وإذاً، فالرواية التي رويت عن سيدنا أبي بكر في تفسير الكلالة لا تخلو من ضعف، زِدْ إلى ذلك أنها زيادة على كتاب الله، فهي لا تصلح أبداً لأن يعتمد عليها في تفسير لفظ الكلالة.

العمدة في معنى الكلالة:

والعمدة في تفسير لفظ الكلالة هي آية الصيف، كما روي عن نبينا عليه الصلاة والسلام، أنه قال لسيدنا عمر:

«يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»[3]

وآية الصيف تفيد أن الرجل إذا مات ولم يترك من خلفه ولداً، وإنما ترك إخوة، فالإخوة الأشقاء أو الإخوة لأبيه، أو هم جميعاً ينزلون منزلة الولد، وهم يرثون ما يرثه الولد، حتى ولو كان الأب على قيد الحياة. والأب لا يكون حاجباً للإخوة، وإنما يرث مع الإخوة، ما يرثه مع الولد، وهو السدس مما تركه المورث.

ولا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأب في الإرث، لأن القرآن فرّق بين الإخوة الأشقاء وبين الإخوة لأم، ولم يفرّق بينهم وبين الإخوة لأب، بل ذكرهم بلفظ

---

(١) تفسير الطبري-سورة النساء، رقم الآية: ١٢، رقم الحديث: ٨٧٤٦.

(٢) قال ابن حجر: كان يحيى بن سعيد قليل الميل إليه، وقال ابن إدريس: رأيته أتى السوق فقال اضربوا هذا، أقيموا هذا، فلا أروي عنه شيئاً، وتركه وهيب؛ لأنه أنكر بعض سيرته.(تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٩) وقال الذهبي: قال ابن معين: كان ابن القطان لا يحدث عن عاصم الأحول، يستضعفه. وقال يحيى القطان: لم يكن بالحافظ. وقال عبدالرحمن بن المبارك: قال ابن علية: كل من اسمه عاصم في حفظه شيء. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالحافظ عندهم، ولم يحمل عنه ابن إدريس لسوء حفظه (ميزان الاعتدال:٢/ ٣٥٠).

(٣) صحيح مسلم: ٢/ ٨١/ ١٢٨٦.

واحد، فهم يرثون مع الإخوة الأشقاء سواء بسواء.

هذا ما يُفهم ويُستفاد من الآية، وهو خلاف ما درج عليه المفسرون والفقهاء، حيث يجعلون الوالد حاجباً للإخوة والأخوات، عملاً بتلك الرواية الضعيفة التي أسلفنا الكلام عليها.

كما يجعلون الإخوة الأشقاء حاجبين للإخوة لأب، ولا يورّثونهم في حالة وجودهم لرواية واهية رُويت باسم سيدنا عليّ.

ثم الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، بل يختلّ النظام كلّه، بتغير مفهوم الكلالة. والمقام لا يتسع لأن نفيض فيه القول، وأن نسترسل في الموضوع أكثر مما فعلنا.

ولقد أشبعنا الكلام على هذا الموضوع في كتابنا: «إمعان في مشكل القرآن» فيحسن الرجوع إليه.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل الرابع
رعاية النظام والمناسبات في تأويل الآيات

الأصل الرابع من أصول التفسير: رعاية النظام والمناسبات في تأويل الآيات، فإذا أردنا أن نفسر آية، أو مجموعة من الآيات، فلنلق عليها نظرة واسعة شاملة، ولننظر فيها، مع ما بين يديها وما خلفها من الآيات، فسياق الآيات له دور كبير في تحديد معاني الآيات، والغفلة عن سياقها وموقعها ترمي الباحث بعيداً عن مراميها وأهدافها.

فمن كان حريصاً على فهم القرآن فهماً سليماً، وكان حريصاً على أن يفوز بكنوزه فليشدد يديه على هذا الأصل.

ومما يدعو إلى العجب أنه أصل مذهول عنه على الرغم من أهميته وخطورة شأنه، فكم يخطئ المفسر معنى الآية، إذا فسرها غافلا عن نظمها وسياقها، و كم يصرف الآية عن وجهها، وهو لا يشعر بما فعل!

ولنضرب له مثالا حتى يتضح الأمر:

قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قال القرطبي في تأويل تلك الآية:

«قال مالك: لا حرام بيّن إلا ما ذكر في هذه الآية.

وقال ابن خويز منداد: تضمنت هذه الآية تحليلَ كل شيء من الحيوان وغيره إلا ما استثني في الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير. ولهذا قلنا: إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح.

وقال الكيا الطبري: وعليها بنى الشافعي تحليلَ كل مسكوت عنه، أخذاً من هذه

الآية، إلا ما دل عليه الدليل. وقيل: إن الآية جواب لمن سأل عن شي بعينه فوقع الجواب مخصوصاً. وهذا مذهب الشافعي.

وقد روى الشافعي عن سعيد بن جبير أنه قال: في هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله ﷺ فأجابهم عن المحرمات من تلك الأشياء. وقيل: أي لا أجد فيما أوحي إلىّ أي: في هذه الحال، حال الوحي ووقت نزوله، ثم لا يمتنع حدوث وحي بعد ذلك بتحريم أشياء أخر.

وزعم ابن العربي أن هذه الآية مدنية (وهي مكية في قول الأكثرين) نزلت على النبي ﷺ يوم نزل عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ولم ينزل بعدها ناسخ فهي محكمة، فلا محرّم إلا ما فيها، وإليه أميل. قلت: وهذا ما رأيته قال غيره.[(١)]

فلننظر إلى حيرة الناس في تأويل تلك الآية، وليست تلك الحيرة إلا نتيجة طبيعية لذهولهم عن نظم الآية وسياقها، ولو أنهم تأملوا في نظم الآية وسياقها لما وقعوا فيما وقعوا فيه.

فالحديث هنا ليس حديثاً عامّا مطلقاً، وإنما هو حديث خاصّ يدور حول الأنعام، فالمشركون قد حرّموا على أنفسهم كثيرا من الأنعام، ممالم يأذن به الله، قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – سورة الأنعام: ٧/ ١١٦.

ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [١٣٨-١٤٤].

هذا هو سياق تلك الآية، وهل يدع هذا السياق مجالاً للشك في أن المحرمات التي ذكرت في الآية، هي محرمات الأنعام لا غير؟ وأما ما عدا الأنعام من الحيوان فكله حرام، فإن ربنا ما أحل لنا من الحيوان إلا الأنعام، وأما غير الحيوان فمحرماته كثيرة لا تحصى.

فلننظر إلى ما وقع فيه جماعة من الفقهاء والمفسرين، من جراء خطئهم في تاويل الآية، ولم يكن هذا الخطأ في التأويل إلا بسبب ذهولهم عن نظم الآيات وسياقها.

هذا مثال، وستتبعه نظائره في الفصول القادمة.

ومن هنا نرى الإمام الفراهي ينوّه بضرورة التمسك بنظام الآيات، حيث قال:

«فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام، وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه».(١)

وقال رحمه الله:

«القائلون بوجود التناسب جعلوه علماً شريفاً، ولكن لم يجعلوه جزءاً عظيماً من مفهوم القرآن، فبقي متروكا لإشكاله، وأما نحن فنقول: إن فهم القرآن محوّل إليه.

والتردد بين الوجوه الكثيرة في التأويل، وعدم التوصل إلى التأويل الصحيح الذي يسدّ باب الاحتمالات، إنما نشأ من قلة الاعتناء بنظام الآيات؛ فإنه هو الموصل إلى صحيح التأويل، وهو العصمة من الشكوك والحيرة في التفكير».(٢)

---

(١) عبدالحميد الفراهي - دلائل النظام: ١٠.

(٢) عبدالحميد الفراهي - دلائل النظام: ٧٥.

الفرق بين نظام الآيات وتناسب الآيات:

ومما يجدر له الانتباه أن هناك شيئين، شيء يسمى: «تناسب الآيات»، أو «مناسبة الآيات»، وشيء آخر يسمى: «نظام الآيات»، أو «نظام القرآن»، وبينهما فرق كبير.

يقول الفراهي، وهو يبين هذا الفرق:

«لقد صنف بعض العلماء في تناسب الآي والسور، وأما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع عليه، والفرق بينهما: أن التناسب إنما هو جزء من النظام، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، وربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بُعدٍ منها، ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب، فأنكروه، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً، ومنها ما ترى فيه اقتضاباً بَيِّناً، وذلك إذا كانت الآية، أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بُعدٍ منها.

وبالجملة فمرادنا بالنظام: أن تكون السورة كلًّا واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعدٍ ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر، فتبين مما تقدم أن النظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء.[1]

هذا ما أفادنا الفراهي في الفرق بين «التناسب» الذي يكثر ذكره في كلام سادات المفسرين، وبين «النظام» الذي هُدِي إليه بفضل من الله وتوفيقه. ويمكن تلخيص كلامه في النقاط الآتية:

---

(١) انظر: عبدالحميد الفراهي- دلائل النظام: ٧٤-٧٥.

ملخّص الكلام:

❖ التناسب جزء صغير من النظام، وليس هو المقصود الأصل.

❖ التناسب تكون له جهات، وتكون له أحوال: فبعضها قريبة، وبعضها بعيدة، وبعضها غريبة، وبعضها موهومة، وليست كلها مقصودة.

❖ لا ينتظم الكلام بكل مناسبة، والمقصود المطلوب من المناسبات ما ينتظم به الكلام.

❖ لا يجري الكلام دائماً على خطّ واحد، ولا ترتبط الآيات كلها بما قبلها، وبما بعدها ارتباطاً مباشراً، بل تأتي أحياناً بعض الآيات، وأحياناً أخرى جملة، أو فقرة من الآيات كالجملة المعترضة في أثناء الكلام، وهذا الاعتراض لا يخلو من مناسبة، ولكن المناسبة القريبة الحميمة تكون مع ما ورد بعد الاعتراض.

❖ كما يكون الاعتراض في الآيات، كذلك يكون في السور، فقد تكون السورة في جنب السورة، وهي لا ترتبط بها ارتباطاً مباشراً، بل يكون ارتباطها بها مثل ارتباط الجملة المعترضة بما قبلها وبما بعدها، وارتباطها المباشر يكون بما بعد تلك المعترضة، وقد تكون السورة المعترضة واحدة، وقد تكون أكثر من واحدة.

❖ الأصل المطلوب هو نظام السورة، الذي يربط الآيات كلها، بعضها ببعض، حتى ينتظم به الكلام انتظاماً، وحتى تصبح السورة كلها، وكأنها كلمة واحدة.

تلك ست نقاط تتعلق بنظام الآيات والسور، وهي نقاط في غاية الأهمية، لا يستغني عنها من أحب أن يتقن فهم القرآن.

ونظراً إلى أهميتها البالغة نحب أن نتناول بعضها، إن لم نتناول كلها، بشيء من الشرح والإيضاح، وسنحاول أن نشيّد حديثنا بأمثلة تطبيقية من القرآن، حتى يبلغ الأمر غايته من الوضوح، ولا يبقى في الأمر أيّ غموض، فنقول والله ولي التوفيق:

مثال اعتراض الآيات:

أما ورود جملة من الآيات اعتراضاً في أثناء الكلام، فمثاله قوله تعالى في سورة

البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٣٠-٣٧].

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [٣٨-٣٩].

فتلك الآيات (٣٠-٣٩) جاءت اعتراضاً، وجاءت لبيان مسؤولية الإنسان نحو خالقه، ولبيان شرفه وسعادته في طاعة ربه، ولبيان ضرورة الرسل والأنبياء، حتى لا يقع الإنسان فريسة لعدوه المبين.

وتلك الأمور التي ينساها الإنسان، فينسى نفسه، وينسى ربه، ويخرب بيته بيديه، ويفسد دنياه وأخراه!

فجاءت تلك الآيات اعتراضاً، ومجيئها اعتراضاً ليس معناه أنها لم تصادف مكانها، بل هي جاءت في أوانها، وفي مكانها، فلا تسأل عن جمالها وبلاغتها في سياقها! وليس هذا موضع تفصيلها.

ثم جاء قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا

﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

فلو قرأنا هذه الآيات بعد قوله تعالى مباشرة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٩].

لو قرأنا هذه الآيات بدون تلك الآيات العشر (٣٠-٣٩) التي جاءت اعتراضاً، لم يكن هناك أي إشكال في ربط الآيات، فلا بد للباحث المتأمل أن تكون له وقفة متأنية عاقلة في مثل تلك المواطن، حتى يدرك بلاغة الكلام، ويدرك تلك المعاني التي تزخر بها الآيات بفضل ذلك الأسلوب البليغ الذي نزل به القرآن.

مثال آخر:

ذُكرت في سورة الحشر قصة بني النضير، وقصة ما لاقوه من خزي وهزيمة وجلاء من المدينة بسبب طغيانهم، وذُكر فيها ما أفاء الله على رسوله منهم.

ثم ذُكر بالمناسبة حكم تلك الأموال ومصارفها اعتراضاً، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٦-١٠].

ثم عاد الكلام إلى ذكر عملاء بني النضير وحلفائهم من المنافقين، وفضحهم فضحاً على موالاتهم لأعداء الله، وكيدهم ومؤامرتهم ضد رسول الله، حيث قال تعالى:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١١-١٦].

وهذا الاعتراض - وهو ذكر مصارف أموال الفيء في أثناء الحديث عن بني النضير وعملائهم - قد يوهم القارئ بالاقتضاب في تلك الآيات، ولكنه ليس اقتضاباً، فهذا الاعتراض لم يقتضب الكلام شيئاً، بل زاده قوة وارتباطاً، ولم يكن هناك مكان أحسن من هذا المكان لذكر أحكام أموال الفيء ومصارفها، فانتهز السياق هذه الفرصة، وذكر حكم تلك الأموال، وذكر علة ذلك الحكم ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ فالمال إذا كان دُولة بين الأغنياء أدّاهم إلى الطغيان، وكان ذريعة للشر والفساد، وكان مجلبة للشقاء والشحناء بين الفقراء والأغنياء، وكان آفة للمجتمع.

وبنو النضير ما أصابهم ما أصابهم إلا بسبب أن المال كان دُولة بين الأغنياء منهم، فأطغاهم وأشقاهم، وأخزاهم!

هذا ما قصد إليه الفراهي باعتراض الآيات، وهذا الاعتراض يُوهِمُ القارئ عادةً

بالاقتضاب في الآيات، والواقع أنه لا يقتضب الآيات، بل يزيد في وجوه الارتباط، ويجعلها متشابكة بعضها في بعض، ومثل هذه المواطن تقتضي طول التأمل، ودقة النظر ليس إلاّ.

اعتراض السور:

وأما اعتراض السور فهو أيضاً يحتاج إلى بيان وتفصيل، فنأخذ على سبيل المثال السور العشر التي تسمى: (المسبّحات)، و هي التي تبدأ من سورة الحديد، وتنتهي بسورة التحريم. وتُعتبر تلك العشر، وكأنها أسرة واحدة، فقد روى الإمام أحمد، قال:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثني بحير بن سعد، عن خالد بن مَعْدَان، عن ابن أبي بلال، عن عِرْبَاض بن سارية، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من طرق عن بقية، وقال الترمذي: حسن غريب.[1]

علاقة السور العشر فيما بينها

سورة الحديد وسورة المجادلة

فتلك السور العشر أسرة واحدة، ولكن ليست كلها على صفة واحدة، فسورة الحديد أعظمها وأجمعها، وتتلوها سورة المجادلة، وهي تابعة لها في مضامينها.

ومما يشير إلى هذه الظاهرة أنها تختلف من سورة الحديد في استهلالها، وتختلف في مضامينها، حيث ذكرت سورة الحديد حالة المنافقين والمنافقات في يوم القيامة، حيث يكونون في ظلام حالك مُدْلهمّ، ثم يُساقون إلى النار، بينما يكون المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ويكون مصيرهم إلى الجنة، فذلك قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) انظر: المسند، رقم الحديث: ١٧٢٩٢، وسنن أبي داود برقم: ٥٠٥٩، وسنن الترمذي: ٣/ ٣١٤/ ٣٤٠٦، وسنن النسائي الكبرى برقم: ٨٠٢٦.

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

تلك سورة الحديد، وأما سورة المجادلة فهي تفصل أحوال هؤلاء المنافقين مع رسول الله وأصحابه المؤمنين في هذه الدنيا، حيث كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وكانوا يسخرون من الرسول، وكانوا يحيّونه بما لم يُحيّه به الله، وكانوا يظهرون بمظهر يسوء المؤمنين ويُحزنهم، وكانوا يتولون أعداء الرسول وأعداء المؤمنين ممن غضب الله عليهم. وقد استحوذ عليهم الشيطان حتى أصبحوا من حزبه، هذه الأمور كلها تفصلها تلك السورة، وبذلك كانت تكملة لسورة الحديد، وتابعة لها.

علاقة سورة الحشر بما قبلها:

ثم تأتي سورة الحشر، وهي سورة مستقلة مثل سورة الحديد، واستهلالها يشبه استهلال سورة الحديد، وهي تختلف عن سورتي الحديد والمجادلة اختلافا ما، حيث تتجاوز المنافقين إلى ذكر شياطينهم من أهل الكتاب، وتذكر خزيهم وجلاءهم من ديارهم، وتذكر أنهم كانوا واثقين بقوتهم، وكانوا مطمئنين إلى مناعة حصونهم، ولكنهم ما لبثوا أن تحطموا وتكسروا أمام بطش الله، وكانوا عبرة لأولي الأبصار!

فهذه السورة جمعت شياطين اليهود مع المنافقين في الذكر، خلافاً للسورتين السابقتين، كما استقلت بذكر بطش الله بالمجرمين دون السورتين السابقتين.

ومما نلاحظه في سورة الحديد، أنها تهيب بالإيمان بالرسول بصفة خاصة، وتَعِدُ عليه خير الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأما سورة المجادلة، فهي تنذر من حادّ الرسول، ولم يؤمن به بسوء المصير في هذه الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٥-٦].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وهكذا أُتبعت سورةُ المجادلة سورةَ الحديد، حتى تكملها، وتفصّل بعض جوانبها.

وأما سورة الحشر، فهي تختلف عن هاتين السورتين حيث إنها تهيب بالإيمان بالقرآن بصورة تهزّ النفس هزاً، قال تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

وكانت بداية هذه السورة بظهور بطش الله، وقدرته القاهرة الجبارة، حيث قال تعالى:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ [الحشر: ١-٣].

بداية السورة وختامها:

وحيث كانت بدايتها تحمل معنى البطش والقهر، والملك العزيز، جاء ختامها يحمل نفس اللون، فالختام عبارة عن صفات تملأ القلب خشية ورهبة، وتجعل الإنسان يفرّ إلى ربه، إن كان في قلبه ذرة من حياء.

صفات توحي بجلال الله وعظمته، وعزّته وهيمنته، وكبريائه وجبروته بصورة قويّة مرجفة، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ولا يمنع ذلك إذا كانت تجاور تلك الصفات صفات توحي بمعاني الرحمة الغامرة، والسلام العميم؛ فالجوّ جوّ العظمة والهيبة والكبرياء والجبروت. والقرآن يخلط أحياناً صفات القهر والبطش، بصفات الرحمة دلالة على أن بطش الله بالمجرمين لا يكون قسوة وعقوبة خالصة، بل يكون نتيجة لرحمته التي وسعت هذا الكون.

علاقة سورة الممتحنة بما قبلها:

وتتلو سورة الحشر سورة الممتحنة، وهي ليست سورة مستقلة، بل هي تابعة لها، يشير إلى ذلك اختلافها عنها في استهلالها، حيث قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

فسورة الممتحنة من بدايتها إلى نهايتها نهي وتحذير من موالاة أعداء الله، ولعل الذي دعا إلى تخصيص سورة كاملة لهذا النهي والتحذير، هو ما ذُكر في السورة السابقة من موقف المنافقين في شأن بني النضير، حيث كانوا يُسرّون إليهم بالمودّة، وكانوا

يحملون لهم في قلوبهم الحب والولاء، وكانوا يحرضونهم من بعيد، على العتوّ أمام الله والرسول، وعدم الخضوع لما أمروا به!

وقد أمرهم رسول الله أن يرحلوا من المدينة، بعد ما تكرر منهم نقض العهد، وتكرر من رسول الله العفو والصفح! وكانوا مصرين على كيدهم ضد الإسلام والمسلمين مما أدى إلى إصدار قرار عاجل صارم من رسول الله بخروجهم من أرض المدينة، ولكنهم أبوا، وكان وراءهم رؤوس المنافقين، وذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

فجاءت سورة الممتحنة تحذر جماعة المؤمنين ألا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء المنافقون من موالاة أعداء الله، وتنصحهم أن يفعلوا بأعداء الله مثل ما فعل بهم أبوهم إبراهيم وأصحابه، صلوات الله عليهم جميعاً، حيث كان موقفهم منهم موقفا مُشرِقاً مجيداً، قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤-٦].

وجاء الكلام استطراداً حول حكم الكفار المسالمين، حيث يجوز للمؤمنين أن يبرّوهم، ويقسطوا إليهم، من غير حرج، ولكن لا يجوز لهم أن يوالوهم، فموالاة المؤمنين لا تكون إلا للمؤمنين.

وبهذه المناسبة جاء حكم المهاجرات، وهو أنهن لا يُرجَعن إلى الكفار، فهنّ لسن حِلاً لهم بعد الإيمان، لأن النكاح من حالات الولاء، ولا ولاء بين المؤمن والكافر، فلا

نكاح بين المؤمنة والكافر.

وهكذا نرى سورة الممتحنة جاءت تفصيلاً وتوضيحاً وتكميلاً لسورة الحشر، ومن هنا لا مانع من القول بأنها ليست سورة مستقلة، بل هي تابعة لسورة الحشر.

سورة الصفّ وسورة الجمعة:

وتتلو سورة الممتحنة سورة الصف، وتتلوها سورة الجمعة، وكلتا السورتين سورتان مستقلتان، فسورة الصف سورة الجهاد، وسورة الجمعة إعداد وترويض على الجهاد، فإن قوله تعالى في سورة الصف:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

لا يمكن تطبيقه إلا بإقامة الجمعة، فصفوف الصلاة هي التي ترصّ صفوف الجهاد، وإذا لم تكن صفوف الصلاة متراصة، فلن تكون صفوف الجهاد متراصة، و لن يتمّ ترصيص صفوف الصلاة وتقويمها، وتسويتها إلا بإقامة الجمعة، فإقامة الجمعة وتفعيلها من الإمام الراشد هي التي تنفخ الروح في الصلاة، وترصّص صفوفها، ثم تنفخ الروح في صفوف الجهاد، وترصّصها وكأنها بنيان مرصوص.

سورة المنافقون مع سورة الجمعة:

وتتلو سورةَ الجمعة سورةُ المنافقون، وهي سورة تابعة لها، والآية الأخيرة من سورة الجمعة هي التي اقتضت ذلك الكلام المفصل حول المنافقين، حيث قال تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

وذلك لأن المنافقين هم الذين كانوا ينفضّون إلى التجارة، وكانوا ينفضّون إلى اللهو، وكانوا يتركون رسول الله قائماً، ولم يحدث ذلك مرة واحدة، بل حدث مراراً وتكراراً، وكانت تلك عادتهم! وكانت شنشنة عُرفت من أخزم!

قال ابن كثير في تأويل الآية:

«يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ أي: على المنبر تخطب. هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم: أبو العالية، والحسن، وزيد بن أسلم، وقتادة.

وزعم مقاتل بن حيان: أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر إلا القليل منهم. وقد صَحّ بذلك الخبر، فقال الإمام أحمد:

حدثنا ابن إدريس، عن حُصَين، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: قَدِمَت عيرٌ المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا فنزلت: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾.

أخرجاه في الصحيحين، من حديث سالم، به.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هُشَيم، عن حُصَين، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي نارًا» ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾ وقال: كان في الاثني عشر الذين ثَبَتُوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما».[1]

هذا ما قاله الإمام ابن كثير، وقاله غيره من سادات المفسرين، ولكن سياق الآية يأبى هذا التأويل، فالكلام ناظر إلى المنافقين دون المؤمنين الصادقين، فلم يكن الانفضاض إلى اللهو أو الانفضاض إلى التجارة من شأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وحكاية ذهابهم إلى العير، وحكاية أنه ما بقي مع رسول الله منهم إلا اثنا عشر، حكاية فيها غرابة شديدة.

---

(١) تفسير ابن كثير- سورة الجمعة: ٨/ ١٢٣-١٢٤.

وحصين بن عبدالرحمن السلمي ، وهو من رواة القصة، قد اختلط وتغير، وساء حفظه فلاحجة فيما روى.

وعلى أية حال، فحينما تكررت من المنافقين تلك الفعلة الشنعاء، جاء تنبيه، وتقريع وإنذار لهم على ما كانوا يكنّون في صدورهم من الحقد على الإسلام ونبيّ الإسلام.

والمنافقون حينما كانوا ينفضّون إلى التجارة، أو إلى اللهو ما كانوا ينفضون عن جوع ومسغبة، بل كانوا ينفضّون إليها حقداً على الإسلام، واستهانة بالرسول، وكانت خطبة الجمعة، وصلاة الجمعة أثقل شيء على المنافقين، وذلك لما سبق أن قلنا: إن صلاة الجمعة، وخطبة الجمعة إعداد وترويض على الجهاد! وإذا جاء ذكر الجهاد، فلا تسأل عن حالة أهل النفاق!

فجاءت سورة المنافقون بعد سورة الجمعة مباشرة، لتفضحهم، وتكشف أمرهم.

سورة التغابن مع سورتي الطلاق والتحريم:

وتتلو سورةَ المنافقون سورةُ التغابن، وهي سورة مستقلة، وهي آخر سورة مستقلة في هذه المجموعة من السور، حيث تتلوها سورتان، هما: سورة الطلاق وسورة التحريم، وكلتاهما تابعتان لسورة التغابن، وكلتاهما بُنِيَتا على قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التغابن: ١٤-١٥].

وعداوة الأزواج تكون لها حالتان: حالة الحب والمودة، وحالة الشقاق والكراهية، فيؤتى المرء أحياناً من شدة كراهية المرأة، ويؤتى أخرى من شدة حبّها وفرط الإعجاب بها.

فأنزل الله للحالتين سورتين، سورة تعطي توجيهات وتعليمات لحالة الشقاق والكراهية، وهي سورة الطلاق. وسورة أخرى تعطي توجيهات وتعليمات لحالة الحب والمودة، وهي سورة التحريم. فحالة الكراهية لها في دين الله آداب، وحالة الحب والمودة

أيضاً لها حدود، والمقام لا يتسع لأن ندخل في التفاصيل.

وسورة التغابن تشبه سورة الحديد في لونها وأسلوبها وجامعيّتها إلى حدّ كبير، وذلك باعتبار كونها آخر سورة مستقلة في هذه المجموعة، في حين أن سورة الحديد أول سورة مستقلة فيها.

فتلك المجموعة عبارة عن عشر سور، خمس منها مستقلّات، وخمس منها توابع.

سورة الإخلاص مع المعوذتين:

وهكذا نرى المعوذتين مع سورة الإخلاص، فسورة الإخلاص سورة مستقلة، والمعوذتان تابعتان لها، حيث بُنِيَتا على لفظ منها، وهو لفظ «الصمد» فالله هو الصمد، أي: هو الملجأ والمعاذ، فكيف نلجأ إليه؟ وكيف نعوذ به؟

فجاءت السورتان تعلمنا كيف نعوذ به؟ وجاءت تنبّهنا إلى كبرى الشرور والآفات، التي ينبغي أن نحذرها، ونعوذ بربّنا منها؟ ومن هنا كانت السورتان تابعتين لسورة الإخلاص.

وكون السورة تابعة لسورة أخرى لا ينقص من شأنها، فشأن المعوذتين عظيم، والقرآن كله عظيم، وذلك أمر يتعلق بتصاريف البيان فقط، فقد يذكر شيء كالتبع، ويذكر نفس الشيء تارة أخرى كالأصل، وذلك حسب ما يقتضيه السياق، وحسب ما يتطلبه موقع الكلام.

سورة البقرة مع سورة آل عمران:

وربما تكون سورتان مستقلتان في الظاهر، ثم إذا رأينا هما من جهة أخرى، وجدنا إحداهما تابعة، والأخرى متبوعة، ويمكن أن تُضرب لذلك مثلا سورةُ البقرة، وسورةُ آل عمران، فكلتا السورتين مستقلتان عظيمتان، ولكن إذا رأينا هما من جهة أخرى، وجدنا سورة آل عمران تابعةً لسورة البقرة، حيث بُنيت السورة على جزء صغير من آية سورة البقرة، حيث قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الذي بُنيت عليه سورة آل عمران، إن

هو إلا جزء صغير من آية من سورة البقرة، وهي قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إذا رأينا من هذه الناحية، فلا مانع من القول بأن سورة آل عمران مبنية على سورة البقرة وتابعة لها. وهذا أمر يعزّزه ما يوجد بين السورتين من تشابه كبير والتحام عجيب، وسيأتي تفصيله في محله في الصفحات التالية بإذن الله.

نظام تنتظم به السورة كلها:

ومما لا يفوتنا التنبيه إليه، وقد نبّه إليه الفراهي من قبل، أن الأصل المطلوب هو نظام السورة، الذي يربط الآيات كلها، بعضها ببعض، حتى ينتظم به الكلام انتظاماً، وحتى تصبح السورة كلها، وكأنها كلمة واحدة.

وهذا النظام الذي اكتشفه الفراهي في سور القرآن، ويركّز عليه، وينوّه بشأنه لمن كان حريصاً على فهم القرآن، شيء عظيم جدّاً، ولعله مما اختصّه به ربه، وفتحه عليه، حيث لم نجد أحداً ممن دوّنوا التفسير قد سبقه إليه.

يقول الفراهي وهو يعرّف هذه الفكرة الرائعة البارعة:

«اعلم أن مرادنا بالنظام أن تكون لكل سورة صورة مشخّصة؛ فإن معاني الكلام، إذا ارتبط بعضها ببعض، وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت في الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح».(١)

وهذا النظام لا يظهر ولا يستبين إلا بعد ما يتجلى عمود السورة، وهو الموضوع الرئيس الذي تدور حوله مضامين السورة، ولكل سورة موضوع رئيس تدور حوله مضامين تلك السورة.

---

(١) دلائل النظام للفراهي: ١/ ٧٥.

قال الفراهي، وهو يسلّط أضواء على أهمية عمود السورة في فهم مضامينها ونظامها:

«اعلم أن تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السور المماثلة والمجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص بها، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها».[1]

ويزيد رحمه الله فيقول:

«ترى في السورة الواحدة مطالب شتى، ولا تعلم ما هو العمود، الذي سيقت إليه المعاني؟ ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضه ببعض حتى تعرف مساق الكلام، ووجهته التي تسلك إليها أجزاؤه، حتى تراها منظومة في سلك واحد.

وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها، التي بها صارت سورة مكتملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليه أجزاؤها».[2]

وهنا يفرض علينا الموقف أن نأتي بمثال يشخّص للقارئ ضرورة العلم بعمود السورة ونظام السورة، ويشخّص دورهما في فهم معاني السورة، ومقاصدها، وأبعادها.

نظام سورة النساء وعمودها

نظام السورة:

ولا بأس بأن نبدأ مسيرتنا هذه بسورة النساء، حيث ندرسها ونتجوّل في آفاقها، حتى ننظر في نظامها، ونبحث عن عمودها، ونستنبط شيئاً مما أودعها ربنا من كنوز العلم، وأطايب الحكم.

فحينما نتدبر هذه السورة العظيمة ونتجوّل في أرجائها، ونمعن النظر في نظامها، نجد ترتيب مضامينها كما يلي:

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٧٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٦.

نظم الآيات: (١-١٤):

تُستهلّ هذه السورة بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ١-٦].

تلك الآيات، وهي ما استُهِلّت به السورة، تركّز على أداء حقوق اليتامى، ولاسيما يتامى النساء، ويستمرّ ما يتعلق به من أمر ونهي وتحريض وتحذير إلى أن قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وتتلو هذا التحذير الرهيب آيات توزيع الميراث (١١-١٤)، مع الوعيد الشديد لمن عصى الله ورسوله، وخالف شرعه، وتعدى حدوده.

ويوحي الموقف أن آيات الميراث ما نزلت ابتداء إلا حفاظاً على حقوق اليتامى، فهي في أصلها من بركات اليتامى، ثم عمّت وصارت للجميع. وتلك نكتة نفيسة أشار إليها الفراهي في تعليقاته، حيث قال:

«مقام هذه الآية ينبئ أنها نزلت لحفظ حقوق اليتامى، وفاضت بركاتهم لسائر الوارثين».[1]

---

(١) تعليقات في تفسير القرآن الكريم: ١/ ١٢٤.

وهكذا شأن الوحي، حيث كان ينزل بمناسبات كانت تقتضي ذلك الوحي، ثم لا ينحصر ذلك الوحي في شأن نزل فيه، بل يعمّه ويعمّ أمثاله وأشكاله.

نظم الآيات: (١٥-٢٥):

وكانت بداية الكلام عن يتامى النساء بسبب ضعفهنّ وعجزهنّ عن نيل حقوقهن، ثم ارتقى الكلام إلى عموم صنف النساء، باعتبار أن النساء كلهن ضعاف، قال تعالى:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

فالمرأة كما تحتاج إلى من يحافظ على حقوقها، ويرعى لها أموالها، كذلك تحتاج إلى من يحرسها، ويحمي لها عِرضها، ويأخذ بيدها إذا وقعت في الفتنة، ويمسح عنها أسقامها.

والمرأة إذا أتت الفاحشة تُمسَك في بيتها، وهذا الإمساك ليس عقوبة لها، وليس من إقامة الحد عليها، بل هو علاج لما أصابها، وتقويم لعِوَجها، وتربية وتطهير لنفسها، حتى لا تعود لما وقعت فيه.

وأما الحدّ، أو العقوبة فهو من شأن القاضي أو الحاكم، وليس من شأن الزوج، فهذا حدّ وذاك علاج، وكلٌّ يفعل ما يلزمه، والآية محكمة، وليست منسوخة.

والمرأة تُمسَك في بيتها إلى أن تموت، أويجعل الله لها سبيلاً، حيث تتوب وتصلح نفسها، فإذا تابت وأصلحت رُفع عنها حظر الخروج، وعاشت كالعادة كمثل أخواتها، في جوّ من الحرية والكرامة، وبهذه المناسبة جاءت آيات تدعو إلى المسارعة إلى التوبة.

ثم تبعت تلك الآيات آيات توصي بالنساء خيراً، وتدعو إلى إكرامهنّ وحسن معاشرتهنّ، وإذا صعبت العِشرة وتعسّرت، وكان لا بد من فراق، فالمطلوب من المؤمن أن يفارق امرأته مفارقة الكرام، ولا يأخذ منها شيئاً مما آتاها من الصداق والهدايا، مهما كثر ولو كان قنطاراً. (١٩-٢١)

ومن إكرام النساء ألا يسوّي المرء بين المحارم وغير المحارم، فلا يقرب المحارم، ولا ينكح إلا غير المحارم، وبهذه المناسبة جمعت هنا محارم النساء.

ومن إكرامهن كذلك أن يؤتيهن أجورهن إذا استمتع بهنّ، ولا يتهاون بها فهي فريضة من الله.

وباعتبار أن المؤمن لا تحل له إلا المؤمنة، فهو لا ينكح إلا امرأة مؤمنة، وإذا لم يستطع أن ينكح حرة مؤمنة، فلا جناح عليه أن ينكح أمة مؤمنة، أو فتاة مؤمنة إذا رضي أهلها، وعليه أن يؤتيها أجرها بالمعروف. (٢٢-٢٥)

نظم الآيات: (٢٦ - ٢٨):

ثم تطالعنا هذه الآيات:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

تفيد تلك الآيات أن الحقوق والآداب التي ذكرت آنفاً في شأن اليتامى وفي شأن النساء، هي كلها من سنن الأنبياء السابقين، ولكن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، غيّروها حسب ما أملت عليهم أهواؤهم، وبدّلوها من كرامة وسماحة إلى ظلم وقسوة!

وحينما أرادت رأفة الله بعباده أن تعيد الأمر إلى نصابه، وتنسخ ما أدخلوا في الحياة من ظلم وقسوة، صاحوا وضجّوا، وقالوا:- وكانوا كاذبين فيما قالوا!- هذا افتراء على الله، كيف يكون هذا وحياً من الله، وهو خلاف ما أنزل الله على رسله موسى وعيسى؟ وأرادوا بذلك أن يفتنوا الناس عن دين الله، حيث قال تعالى:

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

وما جاءت تلك الآيات الثلاث إلا عرضاً، وما جاءت إلا لتحذير المؤمنين من كيد أهل الكتاب ضدّ آيات الله، وإشعارهم بعظم النعمة التي أنعم الله بها عليهم، حيث

خفّف عنهم، وهداهم سنن الصالحين والمرسلين من قبلهم.

نظم الآيات: (٢٩-٤٢):

ثم عاد الكلام إلى مساره، وجاء النهي عن أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس بغير حق، كما جاء النهي عن أن يتمنى الإنسان ما ليس له.

وجاء التحريض على توفية الحقوق لمن كان له نصيب في الميراث، وجاء التوجيه أن تعرف النساء واجباتهنّ نحو أزواجهنّ، وأن يتعامل معهن أزواجُهن بحلم ورفق، ولا يبغوا عليهن سبيلاً. وإن حصل بينهما خلاف وشقاق فليحتكما إلى الحكمين من الطرفين، فذلك أدعى إلى التوفيق بينهما. (٢٩-٣٥)

ومما لا يخفى على المتأمل أن تلك التعليمات والتوجيهات كلها ترمي إلى الحفاظ على حقوق الضعفاء، وترمي إلى الحفاظ على حقوق النساء.

ثم جاءت آية جامعة في المواساة والمرحمة وأداءالحقوق إلى أهلها، سواء كانت حقوق العباد، أو حقوق رب العباد:

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ثم تلتها آيات تندّد بموقف أهل الكتاب من هذه النبوة المباركة، حيث يكتمون ما عندهم من العلم، مما يعزز أمر هذه النبوة، وإن أراد أحد منهم أن يبوح بما يخفونه، ويبخلون به، منعوه وألزموه أن يبخل بما يبخلون به.

وتلك الآيات ليس فيها تنديد خالص، بل يصحبه نصح وإرشاد، وتذكير بيوم الحساب، حتى يخرجوا من الهزل إلى الجدّ، ويعلموا أنهم إن لم يؤدّوا اليوم أمانتهم، ولم يشهدوا أمام الناس بما عندهم من العلم، فسيكون الرسول شهيداً عليهم يوم القيامة بكتمان شهادتهم، وذلك يوم عسير، على الخائنين غير يسير، حيث يندمون ولات ساعة مندم، ويتمنون لو تسوّى بهم الأرض! (٣٧-٤٢)

نظم الآيات: (٤٣-٥٠):

ويتلو تلك الآيات قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

وما أجمل تلك الآية في مكانها! حيث لا يوجد لها مكان أحسن منه.

فالداء الدويّ الذي أصيب به أهل الكتاب، وكان فيه هلاكهم وبعدهم عن رحمة الله، هو أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، حيث قال تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

وكان من إضاعة الصلاة أنهم كانوا يعاقرون الخمور، وكانوا يصلون وهم سكارى! وما زالوا على ما كانوا عليه إلى يومنا هذا.

فجاء التحذير للمؤمنين ألاّ يحذوا حذوهم، ولا يقربوا الصلاة وهم سكارى، كما يفعله أهل الكتاب، فالصلاة ليست طقوساً جوفاء، ولا حركات عابثة، حتى يؤديها الإنسان كما شاء، ويؤديها على مزاجه وطبيعته، وإنما هي لقاء مع الله، وحديث مع الله، ولا بد أن يكون هذا اللقاء، وهذا الحديث مع حسن الأدب، وعن وعي وفهم وحضور قلب.

والسكر نجاسة العقل، كما أن الجنابة نجاسة الجسم، والذي لا يجتنب نجاسة العقل، أولى ألا يجتنب نجاسة الجسم، وأهل الكتاب حينما أضاعوا الصلاة، أغفلوا الطهارة وأسبابها، فجاء النهي عن الصلاة في حالة السكر، كما جاء النهي عن الصلاة في حالة الجنابة، فالمقيم الذي يكون على الماء لا بد أن يغتسل، وإذا كان عابر سبيل، وهو الذي يكون على سفر، فله أن يتيمم.

والحديث عن الصلاة في هذه الآية، أو الأمر بعبادة الله الخالصة عن الشرك في

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أو الأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.

هذا كله جاء ليخدم ويدعم ما تدور حوله السورة من الحديث عن صلة الأرحام، والإحسان إلى الوالدين، والحفاظ على حقوق اليتامى، وحقوق النساء، وحقوق سائر الضعفاء؛ فإن هذه الحقوق لا يؤديها إلا من كان عنده رصيد من التقوى وعبادة الله، وأقام الصلاة ولم يخش إلا الله.

ثم جاء التحذير من أهل الكتاب، الذين كانوا يكرهون هذه الشريعة السمحة التي نزل بها القرآن، وكانوا يطعنون فيها، ويستهزئون بها، وكانوا يريدون أن يفتنوا المؤمنين عنها. (٤٤-٤٦)

ثم أُرسِل الإنذار والوعيد إلى أهل الكتاب، حتى يراجعوا أنفسهم، ويفيئوا إلى صوابهم بالإيمان بما أُنزل إليهم، وإلا فلينتظروا غضب الله عليهم، ولينتظروا أن يُلعنوا كما لُعن أصحاب السبت! (٤٧)

ومما يستوقف الناظر المتأمل قوله تعالى في هذا السياق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٨-٥٠].

فالعدول عن شرع الله وأحكامه إلى غيره، إذا كان من حملة الرسالة، فهوشرك لا يُغفر، فشرك أهل الكتاب أشد وأفظع من شرك أهل الأوثان، وكم وُجِّه الخطاب إلى أهل الأوثان، وكم نزلت السور فيهم، ولكن لم يُنذروا بمثل ما أُنذر به أهل الكتاب، وما نزل لهم هذا التيئيس من مغفرة الله كما نزل لأهل الكتاب!

والجدير بالانتباه أن ربنا سبحانه وتعالى لم يكتف بهذا التيئيس الواحد لطغاة أهل الكتاب، بل جاء به تارة أخرى، في نفس السورة، وفي نفس السياق، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن شرك أهل الكتاب كان أغلظ وأفظع من شرك غيرهم، فإنهم كفروا بآيات الله، وكانوا عليها شهداء، وأنكروها بعد ما عرفوها كما يعرفون أبناءهم!

نظم الآيات: (٥١-٥٩):

ثم تكرر الإنذار لأهل الكتاب على سوء صنيعهم، وسوء موقفهم من شرع الله، حيث عدلوا عن الله وعن شرع الله، إلى الجبت والطاغوت، وقالوا للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا!

والطاغوت كل من أجبر الناس على عبادته، أو طاعته من دون الله، والجبت هي شريعة الطاغوت، التي يفرضها الطاغوت على الناس دون شريعة الله.

فأهل الكتاب قد أنعم عليهم ربهم بكتابه، وكانوا على هدى من ربهم، ولكنهم عدلوا عن ربهم إلى الطاغوت، وعدلوا عن شريعة الله إلى شريعة الطاغوت، ولم يكن وراء ذلك إلا نار الحسد التي كانت تتأجج في صدورهم ضد رسول الله وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله. (٥١-٥٧)

وبالمناسبة جاء أمر عام بأداء الأمانات إلى أهلها، وفيه تعريض بأهل الكتاب، حيث كان موقفهم موقف الخائنين في أماناتهم، حينما قالوا للكفار: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا! (٥٨)

ثم وُجه الأمر إلى المؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فليكن من شعار المؤمنين المسارعة إلى طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة أولي العلم والرأي منهم، والحذر كل الحذر من أعداء الله، فإنهم إن فتحوا آذانهم لكل ناعق،لم يأمنوا على دينهم. وأعداؤهم لا يهمّهم إلا أن يضلوهم.

نظم الآيات: (٦٠- ٨٣):

ثم توجّه الكلام إلى المنافقين، وهم الذين يتحاكمون إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، وإذا دُعوا إلى رسول الله وإلى كتاب الله أعرضوا عنه كأنهم لا يسمعون، توجه الكلام إليهم ليبين لهم أنه ليس لمؤمن إلا أن يطيع الرسول، ويتحاكم إلى الرسول، ثم لا يجد في صدره حرجا مما قضى الرسول، ومن لم يفعل ذلك فليس من الإيمان في شيء، فلا إيمان بدون الطاعة الكاملة للرسول، ولا إيمان بدون الثقة المطلقة بالرسول! (٦٠-٧٠)

ثم عاد الكلام إلى التحريض على أداء حقوق المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فمن حقهم أن يُنصروا كلما غُلبوا وقُهروا، ومن حقهم أن يُستنقذوا من أيدي الطغاة الظالمين الغاشمين، إذا وقعوا في أيديهم، وكانوا يعانون من ظلمهم واعتدائهم. (انظر الآيات: ٧١-٧٦)

ومما يجدر له الانتباه أن القرآن يعدّ القتال لتحرير المستضعفين المضطهدين، واستنقاذهم من الظلم والاضطهاد، يعدّ مثل هذا القتال، قتالاً في سبيل الله، ويعاتب من يتوانى فيه، حيث قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥-٧٦].

ثم جاء العتاب على من كادوا يتميّزون من الحميّة الثائرة والحماس المتأجج ضد الطغاة الظالمين، وذلك قبل أن يكتب عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال إذا بهم قد ذهب عنهم الحماس، وخمدت منهم الحمية، وظهر منهم أسوأ أنواع الجبن والخور، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

ومما سجّل عليهم القرآن، وأنكر عليهم أنهم كانوا يخادعون الرسول إذا كانوا معه، وكانوا يواعدونه مواعيد عرقوب! وكانوا يقولون بكل تأكيد وبكل إصرار: نحن

من جنودك يارسول الله، فَمُرنا بما شئت! ولن نتأخر عنك إذا دعوتنا، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم نسوا كل ما قالوا، وبيّتوا غير ما وعدوا! (انظر الآيات: ٧٧-٨٣)

نظم الآيات: (٨٤-٩٣):

ثم وُجّه الأمر إلى رسول الله أن يقاتل في سبيل الله، ويحرّض المؤمنين على القتال. والقتال في سبيل الله هو القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، كما تقدم، وذلك لكي يتمّ استنقاذهم من أيدي الظالمين.

وإذا كان الحديث عن القتال والجهاد، فلا بدّ أن يجرّ ذلك إلى الحديث عن المنافقين، فإن المنافقين لا يتميزون، ولا ينكشفون إلا إذا جاء وقت القتال، ولا ينكشفون إلا بنكوصهم عن القتال، وهذا النكوص كان يلتبس على كثير من المؤمنين؛ فإن المنافقين ما كانوا ينكصون نكوصاً، وإنما كانوا يتسترون بأعذار يتمحّلونها بكل لباقة، ومن هنا كان يقع خلاف بين الجماعة، فبعضهم يصدّقون تلك الأعذار، وبعضهم يشكّون فيها. فذلك قوله تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

والحديث عن المنافقين جرّ إلى تفصيل أحوالهم، وتفصيل أحكامهم، وجرّ إلى تصنيفهم حسب أحوالهم وذات صدورهم. (انظر الآيات: ٨٤-٩١)

وحينما جاء الأمر بقتل صنف من المنافقين، بادر السياق إلى التحذير من قتل المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢].

ثم ذُكرت الكفارة والدية إن حصل قتل مؤمن خطأ، وفُصّلت حالات الكفارة والدّية حسب حالات المقتولين، وحسب حالات من حصل منهم القتل خطأ.

ثم تبعه التحذير الشديد من تعمّد قتل المؤمن، فقتل المؤمن كبير، وذكرت له عقوبة لم تذكر إلا لطغاة الكافرين والمشركين، حيث قال تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ

﴿عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣].

كأن الذي قتل مؤمناً متعمداً خرج من زمرة المؤمنين، ولحق بالكفار والمشركين! (انظر الآيات: ٩٢- ٩٣)

نظم الآيات: (٩٤-١٠٤):

ثم وُجّه الخطاب إلى المؤمنين أن يكونوا عند مسؤوليتهم، إذا ضربوا في الأرض، ولا يكونوا متسرعين في الحكم على مشاعر الناس وعقائد الناس، فلا بدّ من تبيّن الموقف، ولا بد من التريث في الأمر، فكل من ألقى إليهم السلام لا يكون منافقاً مستوجب القتل، بل قد يكون منهم من يكون مؤمناً صادقاً لم تساعفه الظروف حتى يهاجر في سبيل الله، وليكونوا دائماً على حذر من الطمع في المغانم، فلا يكوننّ حكمهم على مواقف الناس بدافع الهوى وابتغاء عرض الدنيا.

ثم جاء التحريض على الهجرة والجهاد، وذُكر ما لهما من الفضل والأجر عند الله، فشتّان بين القاعد المثّاقل إلى الأرض، وبين الطَموح المجاهد في سبيل الله!

وشتان بين الذليل اللاصق بدار الذل والكفر، وبين الحرّ الأبيّ المهاجر إلى رسول الله! (انظر الآيات: ٩٤-١٠٠)

والمهاجرون المجاهدون يواجهون عادة حالات الخوف، والعدو يكون لهم بالمرصاد، فعلّمهم ربهم كيف يصلون إذا كانوا أمام العدو، أو في خطر من العدوّ.

وأذن لهم أن يقصروا من الصلاة بقدر ما تقتضي الظروف، فيجوز لهم أن يقصروا من ركعات الصلاة، ويجوز لهم أن يصلوا قياماً، ويجوز لهم أن يصلوا قعوداً، ويجوز لهم أن يصلوا على جنوبهم، ويجوز لهم أن يقدّموا الصلاة عن وقتها، أو يؤخروها عنه، فيصلوا العصر والظهر في وقت الظهر جمعاً، أو يصلوا الظهر والعصر في وقت العصر جمعا، وهكذا الأمر في صلاة المغرب والعشاء، كل ذلك يجوز حسب ما يملي عليهم الواقع، قال تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

فالمؤمنون يتصرفون ويرتّبون أمورهم حسب واقعهم من العدوّ، ويحذرون كيدهم، ويتجنبون شرهم، ولكن ليس لهم أن يهنوا في ابتغائهم وملاحقتهم، فالجهاد لا بد أن يستمرّ، والباطل لا بد أن يندحر:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

نظم الآيات: (١٠٥- ١١٥):

وهنا ينتهي موضوع الهجرة والجهاد، ويعود الكلام إلى ما أنزل الله في مفتتح السورة من تشريع حكيم محكم للعباد، فلا بد له من تطبيق، ولا بد له من تنفيذ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

ويعود الكلام كذلك إلى ذكر موقف الخائنين من أهل الكتاب من ذلك التشريع الحكيم، حيث كانوا يبيّتون ضده ما لا يرضاه الله من القول، ولو أصاخوا إلى نداء الواجب، فالواجب كان يناديهم أن يكونوا عوناً وعضداً لرسول الله في تطبيق ذلك التشريع.

ويعود الكلام إلى عتاب المؤمنين كذلك، حيث كانت فئة من المؤمنين تجادل عنهم:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [١٠٩].

فإن كانت تلك الفئة تريد النصح لهؤلاء الخائنين، فالنصح ليس في الجدال عنهم، وإنما نصحهم أن يرشدوهم إلى الطريق، وينبّهوهم إلى التوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنب.

ومما يجدر له الانتباه أن رسول الله لم يجادل عن هؤلاء الخائنين أبداً، وما كان لرسول الله أن يجادل عن أعداء الله، وإنما كان الجدال من طائفة من المؤمنين دون

رسول الله.

أسلوب من أساليب القرآن:

ولقد وَهِمَ الجدالَ من رسول الله مَنْ وَهِمَ، وذلك بسبب الذهول عن أسلوب من أساليب القرآن، فقد يجمع القرآن خطابين مختلفين في آية واحدة، مثل قوله تعالى:

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩].

فالشطر الأول من الآية خطاب إلى سيدنا يوسف عليه السلام، والشطر الثاني منها خطاب إلى امرأة العزيز.

وعلى نفس الأسلوب جاء ت هذه الآية:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

فالشطر الأول من تلك الآية خطاب إلى رسول الله، وهو قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ ﴾

والشطر الثاني منها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ موجّه إلى من كان يخاصم رسول الله للخائنين.

وهكذا الآيتان اللتان بعدها من قوله تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٦-١٠٧].

فليست هاتان الآيتان موجّهتين إلى رسول الله، وإنما هما موجّهتان إلى من كانوا يخاصمون رسول الله في أمر هؤلاء الخائنين.

والفعل قد يأتي بصيغة المفرد، وهو يخاطب الجماعة، والدليل عليه ما بعده من قوله تعالى:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٩].

فهذه الآية واضحة في أن الجدال عن هؤلاء الخائنين لم يكن من شخص واحد، وإنما كان من جماعة من الناس.

وهذا أسلوب مطّرد في القرآن، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى في فاتحة سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١-٣].

فوُجّه النداء في الآية الأولى إلى النبي عليه السلام، وجاء ت الأفعال أيضاً على صيغة المفرد، ومع ذلك فالخطاب كله موجّه إلى جميع المؤمنين، ودليله قوله تعالى بصيغة الجمع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

فما وجّه النداء إلى النبي عليه السلام في أول الخطاب إلا باعتباره رئيس القوم، وإذا جاء الخطاب إلى القوم عن طريق رئيس القوم، فهذا يزيد في جدّيّة الخطاب.

وعلى أية حال، فوجّه العتاب إلى من كانوا يجادلون عن الخائنين، فمن شأن هؤلاء الخائنين أنهم همّوا بأن يُضلوا رسول الله، بله جماعة المؤمنين!

هم همّوا أن يضلوا رسول الله عما أنزله الله من تشريع حكيم، وهم شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، فسيجنون ما غرسوا، وما غرسوا إلا ما يؤديهم إلى جهنم، وساءت مصيرا. (انظر الآيات: ١٠٥-١١٥)

نظم الآيات: (١١٦-١٢٦):

ثم جاءت آيات تفيد أن الداء الدويّ الذي أصيب به أهل الكتاب، فحاربوا كتاب الله، وشاقوا رسول الله، هو الشرك بالله، فقد استحوذ عليهم الشيطان استحواذا، وصدّق فيهم ظنّه تصديقاً، إذ قال لربه، وقد ملأه الحسد والغيظ على ما أكرم الله به

بني آدم:

﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

فمن جعل الشيطان ولياً من دون الله، وغرّته الأماني، فالأماني لن تغني عنه شيئاً عند الله:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

فمن كان يحب أن ينال المكانة والكرامة عند الله، فليس له سبيل إلا أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً، ويسلم وجهه لله، وذلك باتباع هذه الشريعة السمحة التي جاء بها رسول الله، فتلك هي ملة إبراهيم، وهذا الرسول هو أولى الناس بإبراهيم! (انظر الآيات: ١١٦-١٢٦)

نظم الآيات: (١٢٧-١٣٥):

وبعد هذه التوجيهات المتنوعة، والتنبيهات المتكررة، والتقريعات المزلزلة المرجفة، التي شغلت مساحة كبيرة من السورة، فقد جرّ الحديث بعضه بعضا، وكانت الآيات آخذاً بعضها بأعناق بعض، بعد هذه وتلك عاد الكلام إلى الوصية في شأن النساء، وعاد إلى تذكير بعض القضايا التي فصّلت في أوائل السورة، وعاد إلى بيان قوله تعالى في مطلع السورة:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾

فذلك قول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ

خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٢٧-١٣٠].

من المعلوم أن ربنا سبحانه وتعالى أباح للمؤمنين في مطلع هذه السورة أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء، بشرط ألا يزيدوا على أربع، وبشرط أن يعدلوا فيما بينهنّ، وقال:

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾

فالذين قد نكحوا أكثر من واحدة قبل نزول هذه الآية، خافوا وفزعوا أنهم ربما يعجزون عن تحقيق العدل الكامل بين النساء، فيكونون عرضة لسخط الله!

والذين كانوا يملكون واحدة، تحرجوا أن يأتوا عليها بأخرى، فإن العدل الكامل بين النساء يعتمد على سموّ روحي، وعزيمة قوية، وليس بأمر سهل.

ثم التعدد في الزواج يسبب أحياناً أزمات، وتوتّر العلاقات بين الزوج والزوجة، ويفسد الجوّ في البيت، ويعكّر على أهله الحياة، حتى ولو كان الرجل يعدل عدلاً كاملاً بين أزواجه.

وأحياناً أخرى يكون الأمر على العكس، حيث يميل الرجل إلى بعضهنّ، ويزهد في بعضهنّ، ويعرض عن بعضهن، ويكون منه تقصير في أداء حقوقهنّ.

فما الحلّ إذاً؟ وما السبيل للخروج من تلك المشاكل؟

وثارت أسئلة، وجاء الاستفتاء: ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا؟ وهل من الأفضل لهم أن يكتفوا بواحدة؟

فقبل الردّ على هذا الاستفتاء جاء التذكير بحقوق يتامى النساء، التي أمروا بأدائها في كتاب الله، وأمروا أن يقوموا لليتامى بالقسط، وأمروا أن يقوموا برعاية

المستضعفين من الولدان.

وأيضاً وُعظت المرأة أن تكون دائماً حريصة على إصلاح ذات البين، وإذا خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلتبادر إلى علاجه بأحسن طريق. وليحذر كل من الزوجين غوائل الشحّ، فإن الشح هو الذي يخرب البيوت، وينفّر القلوب، ويفتح أبواب الأزمات، وليس لهذا الشحّ علاج إلا التقوى والإحسان.

وبعد هذه التقدمة المهمة جاء الردّ على الاستفتاء:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

فالعدل بين النساء مطلوب، ولكنه ليس سهلاً، فإذا لم يتيسر تحقيقه بمعناه الكامل، فلا أقلّ من أن يحقق بمعناه القاصر، فإن لم ترض المرأة بهذا العدل المتاح، وأصرّت على الفراق، فليترك لها الحبل على الغارب، ويغني الله كلاً من سعته، وكان الله واسعاً حكيماً.

ولعل ذلك التخفيف في شريطة العدل، ليس إلا للتشجيع على التعدد في الزواج، فإن التعدد في الزواج مطلوب ومستحب في الإسلام؛ وهو الحل الوحيد لكثير من المشاكل العائليّة، والاجتماعية.

والمجتمع النظيف العفيف الفاضل، الذي يريده الإسلام لا يمكن تأسيسه إلا على هذا المبدأ الحكيم؛ فإن عدد النساء يفوق عادةً عدد الرجال، بل يقفز أحياناً إلى ضعفين وأضعاف، فلو اكتفى كل مسلم بواحدة، ولم يأت على الأولى بالأخرى من يستطيعها منهم، وبقيت هناك نساء في المجتمع بدون بعل، فلن تبقى لذلك المجتمع طهارته ونزاهته، ويكون دائماً عرضة للفساد، ويكون مرتعاً خصباً للمفسدين في الأرض.

فلابد لطهارة المجتمع من التشجيع على التعدد في الزواج، وذلك لمن استطاع الباءة، حتى تُسدّ منافذ الفساد كلها.

فطهارة المجتمع ونزاهته أهمّ وأقدم من تحقيق العدل الكامل بين النساء. وذلك

من ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، أو من تغليب المصلحة الدينية على المصلحة الفردية، أو من تغليب العدل الاجتماعي على العدل المنزلي؛ فإنه ليس من العدل أن تكون هناك في المجتمع نساء مباعلات ينعمن ببعولتهن، وتكون هناك أيّم ما لها قيّم!

فإذا لم يستطع المرء العدل الكامل بين نسائه، فليلتزم على الأقل ألا يميل كل الميل إلى بعضهن، حتى لا يذر الأخريات كالمعلقة.

ثم جاءت الوصية بالتقوى، فإن التقوى هي زينة الحياة، وزينة الأسرة، وزينة المجتمع، والمشاكل العائلية، أو المشاكل الاجتماعية لا تنجم قرونها إلا في غياب التقوى، فالله يوصي المؤمنين بالتقوى، كما وصّى الذين أوتوا الكتاب قبلهم بالتقوى، فالتقوى هي التي تحل مشاكل الأسرة، وتجلب الرحمة، وتحل مشاكل الأمة، وتحل مشاكل البشرية كلها:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣١-١٣٤].

ثم جاءت الوصية للمؤمنين أن يكونوا دائماً قوّامين بالقسط، فليقوموا بالقسط، وليشهدوا بالقسط، فهذا من مظاهر التقوى، بل هو المقياس الحقيقي للتقوى، فالذي تعمر قلبه التقوى، هو الذي يقدر على أن يكون قواماً بالقسط، ولو كان ذلك يهدم مصالحه، أو يهدم مصالح الوالدين، أو يهدم مصالح الأقربين، فالعدل والقسط يكون فوق كل مصلحة، وفوق كل مكسب، فذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

ومما يجدر بالانتباه أن هذه الوصية جاءت في عقب التخفيف في أمر العدل بين النساء، حتى لا يَهِمَ واهمٌ أن العدل أمره هين، فالقيام بالعدل، والقيام بالقسط واجب حَتْم، وهذا الكون كله قائم على العدل والقسط، ودين الله يُعنى بإقامة العدل وإقامة القسط، كما لا يُعنى بغيره.

نظم الآيات: (١٣٦-١٦٢):

وبعد ذلك يعود الكلام إلى المنافقين، الذين كانوا يوالون أعداء الله من أهل الكتاب، وكانوا يقعدون معهم في مجالسهم، ويسمعونهم يكفرون بشرع الله وأحكامه التي تخالف ما عندهم، والتي ذُكرت في هذه السورة وغيرها، وكانوا يسمعونهم يستهزؤون بها، ثم يسكتون ولا يُنكرون عليهم، بل يضحكون لسُخريتهم من شرع الله ويمرحون!

فجاءت الآيات تنصحهم أن يراجعوا أنفسهم، ويعودوا إلى صوابهم، فإن كانوا يوالون الكفار، ويبتغون عندهم العزة، فالعاقل لا يبتغي العزة إلا في مظانّها، ففاقد الشيء لا يعطيه، والعزة كلها لله، وليس لأعداء الله منها شيء، ولا يلقّاها إلا من آمن برسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله.

وإن كانوا يخادعون الله، فهذا الخداع لا يكون إلا غُلّاً في أعناقهم، ولا يخرب إلا ديارهم، فليتوبوا إلى ربهم.

وإن أصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، تقبل الله منهم إيمانهم وصالح أعمالهم، وكان لهم من المثوبة والكرامة ما يرضيهم ويسعدهم. (انظر الآيات: ١٣٦-١٤٧)

وبعد هذا التنبيه والتذكير والتقريع للمنافقين الموالين لأهل الكتاب جاء التوجيه للمؤمنين:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨-١٤٩].

أي: ليس من شأن المؤمنين أن يلوّثوا ألسنتهم بالسوء من القول، إذا عاتبوا

المنافقين المسيئين على سوء صنيعهم، وفساد سلوكهم؛ فالله لا يحب الجهر بالسوء من القول، إلا إذا كان الرجل لا يملك من أمره شيئاً، وكان مظلوماً مُكرَهاً على ما لا يريد، فحينئذ يكون في حِلٍّ من أمره، ولا يؤاخذ بما قال.

والله يحب لعباده أن يكونوا دائماً على متون الخير، فلا يبدوا ولا يخفوا إلا الخير، وإذا ملكوا فليعفوا عن سوء، فالله عفوّ يعفو عن المسيئين، مع قدرته الكاملة على عقوبتهم.

ثم توجه الكلام إلى رؤوس المجرمين من أهل الكتاب، توجه إليهم أولاً تلميحاً، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

ثم كُشِف عنهم القناع كشفاً، وفُضحوا فضحاً:

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٣].

فهم أبوا أن يؤمنوا بهذا القرآن، القرآن الذي أنزل على رسول الله محمد، والذي أنزل عليه وحياً من الله، وسألوا رسول الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يرونه بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم!

فقيل: إن كان هؤلاء القوم يتمردون عليك اليوم! فكم تمرّدوا قبل ذلك على موسى! وكم أحرجوه بأسئلة لاغية ساخرة! وكم قتلوا من الأنبياء بغير حق! وكم وقحوا وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً! وكم فجروا، وقالوا نحن قتلنا عيسى بن مريم رسول الله!

ثم كم ضُربوا وكم عوقبوا من جراء طغيانهم، حيث حرّمت عليهم الطيبات،

وكانت حلالاً لهم قبل طغيانهم!

ثم قيل لهم: إن كانوا يحبون أن ينجوا من عذاب الله، وكانوا يودّون أن لا يلاقوا خزي الدنيا والآخرة، فليس له طريق إلا أن يؤمنوا بهذا القرآن:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

فلا نجاة لأيّ شخص من أهل الكتاب - كائناً من كان - حتى يؤمن بهذا القرآن قبل أن يموت، والقرآن شهيد عليهم يوم القيامة، فمن شهد له بالإيمان، فهو الناجي، ومن شهد عليه بالكفر، فهو الهالك، وهو الخاسر.

وبعد ذكر الكافرين الفاجرين من أهل الكتاب، جاء ذكر الصالحين منهم، المؤمنين بهذا القرآن، وبما أنزل قبل القرآن، حتى تكتمل الصورة، وحتى يكون فيه تكريمٌ للصالحين، وتحريض لغيرهم أن يلحقوا بهم، ويتبعوا آثارهم، فينالوا ما نالوه من أجر عظيم:

ولقد فصلنا القول حول هذه الآية في كتابنا (عِقْدُ الجُمان في تقويم تدبر القرآن)[1] فمن أراد زيادة البيان فليرجع إليه.

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٢].

نظم الآيات: (١٦٣-١٧٥):

ثم جاءت آيات تؤكّد أمر هذه النبوة أبلغ تأكيد، فالرسول ليس بدعاً من الرسل، والوحي من الله ليس أمراً محدثاً، وحدثاً خاصاً بهذا الرسول، وإنما هي سنة الله الجارية في الرسل عبر التاريخ، والله يشهد أن القرآن الذي تتلوه على الناس، هو مما أنزله إليك، وأنزله بعلمه، والملائكة أيضاً يشهدون بما شهد الله، وإذا كان فريق من الناس لا

---

(١) طبع في دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٦م.

يؤمنون، فلست مسؤولا عنهم. قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٦].

ثم جاء التيئيس من إيمان المستكبرين المتمردين من أهل الكتاب، فهم ناس طُبعوا على الجحود والإنكار، وليس لهم علاج إلا الكيّ بالنار!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٧-١٦٩].

ثم أُرسل نداء عام إلى الناس جميعاً أن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة المباركة، ولا يستكبروا عنها كدأب إخوانهم اليهود، فيظلوا منغمسين مثلهم في الشقاء الذي يتقلبون فيه، فالرسول ما جاء إلا ليسعدهم ويؤويهم إلى ربوة العز والكرامة، وما جاء إلا ليخرجهم مما هم فيه من بؤس وذل وهوان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [١٧٠].

ثم تبع هذا النداء العامّ نداء خاصّ إلى فريق آخر من أهل الكتاب، وهم النصارى، وجه إليهم النداء حتى ينتبهوا من غفلتهم، ويخرجوا مما هم فيه من شرك غليظ، فهو أمّ كل داء، وأصل كل ظلم، ومصدر كل غيّ:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

ثم أرسل النداء الأخير إلى الناس قبل أن تُختمَ هذه السورة، والنداء فيه حب وحنان، وفيه تنوير وتبصير، وفيه حلاوة لا تقاس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

فالقرآن برهان يقنع العقل، ويثلج الصدر، ونور مبين يضيء القلب، وينوّر أرجاء الحياة، وماذا يبغي الإنسان بعد هذا النور وهذا البرهان؟ وهل هناك شيء أغلى منه، حتى يميل إليه الإنسان، ويرغب لأجله عن هذا القرآن؟!

وتعتبر هاتان الآيتان ختام السورة، وهنا تنتهي السورة، وتضرب بجرانها.

نظم الآية: (١٧٦):

وكان المفروض أن تقفل السورة على هاتين الآيتين: (١٧٤-١٧٥)، كما هو المعهود في القرآن، حيث تقفل السور على خواتيمها، ولكن الوضع هنا يختلف، حيث ضمّت إلى تلك الخواتيم آية ليست من الخواتيم، وإنما هي آية مبيّنة جاءت تبيّن أمراً أشكل على الناس في موضوع الميراث. قال تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

فالآية تتعلق بتوزيع الميراث، وكان المفروض أن توضع مع آيات الميراث، حسبما

هو معهود في القرآن، حيث يوضع البيان عادة في جنب ما يقتضي البيان، أو يوضع قريباً منه، ولكن حكمة الوحي وضعتها هنا في آخر السورة بعد خواتيمها، مع أن المسافة بين البيان وما يقتضي البيان مسافة شاسعة، فما الحكمة في ذلك؟

سنحاول أن نميط عنها اللثام في الفقرة التالية بإذن الله.

عمود السورة

والآن بعد ما ظهر وتبلور نظام سورة النساء، لم يعد عسيراً علينا أن نتوصل إلى عمودها، أو الموضوع الرئيس فيها، فالذي نلاحظه في هذه السورة هو أنها استُهلّت بإثبات الأرحام بين كل إنسان وإنسان، واستهلت بتوكيد صلة الأرحام.

ثم ارتقى الحديث إلى الأمر بحسن رعاية اليتامى والإقساط فيهم، وأداء حقوق النساء، وأداء حقوق الضعفاء والمستضعفين، واستمرّ هذا الموضوع بشعبه وفروعه وأطرافه إلى الآية (٣٦).

ثم ارتقى الحديث إلى التحريض على القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥-٧٦].

ثم جاء التذكير بحقوق يتامى النساء، التي أمروا بها في القرآن، وجاء التحريض على أن يقوموا لليتامى بالقسط، وجاء التوكيد لحسن رعاية المستضعفين من الولدان، وجاء الأمر بالتزام التقوى والإحسان في شأن النساء:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ

وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧-١٣٠].

ثم جاءت آية تبين ما أشكل عليهم في أمر الكلالة، وفيها إثبات حقوق الأخت والإخوة والأخوات في الميراث:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

تلك جولة سريعة في آفاق السورة، وهي تكشف لنا أن ربع هذه السورة يدور بصورة مباشرة حول الحديث عن رعاية اليتامى، وأداء حقوق النساء، والاهتمام بحقوق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وحماية ظهورهم، والذبّ عن بيضتهم، ولو أدى ذلك إلى القتال وحمل السلاح.

والجدير بالانتباه أن الآيات تسمّي القتال في سبيل المستضعفين قتالاً في سبيل الله!

وتقدم في بيان نظام السورة أنه كثر فيها الحديث عن أهل الكتاب، وعن طعنهم في الدين، واستهزائهم بشرع الله، وكفرهم بآيات الله، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وتحاكمهم إلى الطاغوت.

وهذا كله جاء بمناسبة تلك الشرائع والأحكام، التي وردت بخصوص اليتامى، وبخصوص النساء، وبخصوص المستضعفين، فإنها كانت تشقّ على أهل الكتاب، وتُقضّ عليهم مضاجعهم، لأنها دعوة إلى العدل والقسط، ودعوة إلى المواساة والمرحمة، ودعوة إلى البرّ والإحسان والتقوى.

وأما شريعة أهل الكتاب، التي نشؤوا عليها، وتربّوا في أحضانها، وكانت عبارة عن أهوائهم الهابطة، فهي كانت كمثل شريعة الغابات، كانت تبيح لهم الظلم والفجور

والبِزّيزى، وكانت تبيح لهم أكل الأموال بالباطل، وهضم حقوق الأيتام وهضم حقوق النساء، وكانت تبيح لهم امتصاص دماء الضعفاء، وهتك أعراض النساء، وما إلى ذلك من الفضائح.

فافتُضِحَ أهلُ الكتاب بنزول تلك الآيات، وتكشفوا أمام الناس، فلم يكن أمامهم طريق إلا أن يخلعوا ما تَلَبَّسُوا به من منكرات، ويؤمنوا بما جاءهم من عند ربهم من آيات بينات، أو يثيروا حولها الغبار، وينثروا الشبهات، ويستهزؤوا بها، فمال بهم شقاؤهم إلى الخطة الثانية دون الأولى، فكفروا بتلك الآيات، واستهزؤوا بها!

والمنافقون أيضاً انضموا إليهم، ووصلوا ليلهم بنهارهم حتى يزرعوا الشبهات في قلوب المسلمين، ويزعزعوا ثقتهم بكتابهم وبنبيّهم، ولكن خابوا، وفشلوا، وكانوا كسفيه يرقم في الماء، فالسياق تناولهم أيضاً باللوم والتأنيب، والتنبيه والتقريع.

وبالجملة، فالسورة تدور بمحتوياتها المتنوعة حول لزوم المرحمة والمواساة، ولزوم الحفاظ على حقوق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ولزوم الذبّ عن بيضتهم، ويمكن أن نوجز تلك المعاني كلها في لفظ واحد هو القيام بالقسط، فهو عمود هذه السورة، أو الموضوع الرئيس فيها.

ومما يعزّز هذا القول وضع آية تتصل بموضوع الميراث في ختام السورة، بعيداً عن أخواتها، فهذا الوضع لوّن السورة كلها بلون المرحمة والمواساة، والاهتمام بتأدية الحقوق إلى أهلها، أو بلفظ آخر، لوّنها بلون التحريض على القيام بالقسط، حيث خُتمت السورة بما استُهلّت به.

وأيضاً يعزز هذا القول أن السورة السابقة، وهي سورة آل عمران، ذكرت في شأن الله تعالى أنه قائم بالقسط:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم جاءت سورة النساء، وهي تنبّه المؤمنين أن يكونوا دائماً قوّامين بالقسط، حيث قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى قبلها بقليل:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧].

وقبل ذلك ورد في أول السورة:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء: ٣].

ونظراً إلى هذا الوضع يمكن أن يقال:

إن سورة آل عمران تذكر في شأن ربنا سبحانه وتعالى أنه قائم بالقسط، ثم تتبعها سورة النساء لتدعو الناس إلى التخلق بخلق الله في القيام بالقسط.

هذا ما تيسّر لنا في بيان عمود سورة النساء، بفضل الله ومنته، فله الحمد، وله الشكر على ما يسّر.

التماس النظام مفتاح لكنوز القرآن:

هناك نكتة أخرى، لا بد من التنبيه إليها، وهي أن التماس نظام السور، والتماس المناسبات بين الآيات لا يساعد فقط في فهم مرامي الآيات، ولا يساعد فقط في التوصل إلى عمود السورة، بل يفتح الطريق أمام الباحث حتى يتوصل إلى الكنوز التي أودعت تلك الآيات في طيّ نظامها، والتي لا يمكن أن نشمّ رائحتها، إذا لم نمعن النظر في نظامها، ولم نمعن النظر في مناسباتها.

ولا بأس بأن نضرب له مثالاً من نفس السورة التي كنا نحلّق في أجوائها،

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [٢٢-٢٣].

فإذا تملينا الآيتين، وأنعمنا النظر في نظمهما تبدّت لنا معان ومعارف لم نكن نراها في ظاهر لفظهما، وهي كما يلي:

معان ومعارف في نظم الآيتين:

❖ نكاح منكوحة الأب أشدّ من الزنا بامرأة أجنبية، وأفظع وأغلظ وأجلب لغضب الله، حيث قيل في أمره:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ بينما قيل في شأن الزنا:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

فزيادة (مقتاً) في الآية الأولى لها دلالة لا تخفى، وهي تفيد أن شناعة نكاح منكوحة الأب تفوق شناعة الزنا مرات.

❖ إذا نكح الوالد امرأة ثبتت لها حرمة الأم في حق من لم تلدهم من أولاده، كما ثبتت في حق من ولدتهم، على السواء.

❖ حرمة الأمهات كلهن تكون في درجة واحدة في حق الأولاد، فليس هناك فرق بين حرمة أمّ والدة وأمّ غير والدة.

❖ إذا نكح الرجل امرأة وبنى بها، حرّمت عليه أمّها، وحرمت عليه بنتها، إن كانت لها بنت من زوج سابق، وهي التي تسمى ربيبة الرجل، وأما أختها، أو عمتها، أو

خالتها، أو بنت أخيها، أو بنت أختها، فهنّ لسن حراماً عليه، وإنما الحرام أن يجمع بين زوجته وأختها، أو بين زوجته وعمّتها، أو بين زوجته وخالتها، أو بين زوجته وبنت أخيها، أو بين زوجته وبنت أختها، ومن هنا قال النبيّ عليه الصلاة والسلام، كما رواه الإمام البخاري:

(لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها.)(١)

❖ المحارم نوعان، وحرمة أحدهما أشد وأغلظ من حرمة الآخر، فحرمة الأم، وحرمة البنت تكون من نوع واحد، وحرمتهما أشد وأغلظ من حرمة غيرهما من الأخوات، أو العمات، أو الخالات، أو بنات الأخ، أو بنات الأخت. وهذا هو السر في أن أم الزوجة، أو بنت الزوجة من زوج سابق تكون حراماً على الرجل حرمة مؤبدة، وأما أخت الزوجة، وعمتها، وخالتها، وبنت أخيها، وبنت أختها، فهن لسن حراماً عليه إلا في حالة وجود المرأة مع زوجها، فإن فارقت زوجها، حيث ماتت أو طُلقت، ما بقيت الحرمة لأية واحدة منهن، وللرجل أن يتزوج من شاء منهن.

❖ الآية لم تذكر في المحارم من الرضاعة إلا الأم من الرضاعة، والأخت من الرضاعة، فذكرت واحدة واحدة من كلا النوعين، فالبنت من الرضاعة تكون في حكم الأم من الرضاعة، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت من الرضاعة تكون في حكم الأخت من الرضاعة. وهذا يعني أن المحارم من الرضاعة مثل المحارم من النسب، ومن هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام، كما رواه الإمام مسلم: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)(٢)

❖ من المحارم على الرجل حليلة ابنه من صلبه، حيث قال تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] وهذا يعني أن حليلة الابن الذي ليس من صلب الرجل ليست من المحارم في حقه، فللرجل أن ينكح حليلة من تبنّاه من غير حرج.

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٤٥١/ ٥١٠٩.

(٢) صحيح مسلم، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل: ٤/ ١٦٤/ ٣٦٥٢.

تلك أنهار من المعاني والحكم تجري في مطاوي الآيتين، وذلك من إعجاز القرآن، وهذا الإعجاز لا يمكن إدراكه إلا عن طريق التأمل في نظم الآيات.

رؤيتان مختلفتان في بلاغة الآية!

فنرى الباقلاني رحمه الله – مع طول باعه وعلوّ كعبه في علمي البلاغة والأدب – لم يجد في تلك الآيات من البراعة والبلاغة ما ينال إعجابه، حيث قال:

«فإن قال قائل فقد نجد في آيات من القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة وحد يتجاوز حد الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به.

نحن نعلم أن قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآية – ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه وإبانة الفصاحة عليه، وذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية – إن تأملت.

ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وإدلائها بنفسها ومكان بعضيتها؟ فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن ولأنه ليس في ذوات الأنساب أقرب منها.

ولما جاء إلى ذوات الأسباب ألحق بها حكم الأم من الرضاع لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه، فيتحصل بذلك أيضاً لها حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى، وألحقها بالوالدة.

وذكر الأخوات من الرضاعة، فنبه بها على كل من يدلي بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاع.

والكلام في إظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول ولم نضع كتابنا لهذا وسبيل هذا أن نذكره في كتاب معاني القرآن إن سَهَّلَ الله لنا إملاءه وجمعه.

فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف.

فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته[1].

هذا ما نجده عند الباقلاني عن تلك الآية، ويقول عنها الفراهي:

«ظن الباقلاني رحمه الله، وجزاه خيراً لما اجتهد في الذبّ عن القرآن، ألاّ بلاغة في مثل آيات: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ ﴾ ولعمرك هذه آية عظيمة، لو تأملت نظمها، ودلالة نسقها، ومنزلة هداها»[2]

فالواقع أن الآية التي لم يتذوّقها الباقلاني رحمه الله، ولم يجد فيها من البلاغة والبراعة شيئاً، تلك الآية من السهل الممتنع، الذي يحسر أبلغ البلغاء دون الوصول إليه. ولا يتذوق مثل تلك الآيات، إلا من عايشها، وأنعم النظر في نظمها وسياقها، وترتيب كلماتها.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى طول التنفس في إبراز بلاغتها وفصاحتها، بعد ما رأينا كيف اشتملت الآية على ما اشتملت عليه من المعاني والحكم، ورأينا كيف جمعت الآية أبواباً واسعة من شرع الله، جمعتها في كلمات وجيزة، كلمات سلسة عذبة، كلمات سهلة ليّنة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها! وتكاد تدخل في الآذان بدون إذنٍ لعذوبتها!

ولقد طال بنا المقام في رحاب علم المناسبات، وعلم النظام، (وقضيتُ لباناتٍ وسلّيت حاجةً)، والمقام لا يتسع لأن نسترسل في الموضوع أكثر مما فعلنا، فنلخّص الكلام فيما يلي، ونقول:

جماع القول في علم النظام:

ليس الأصل في علم النظام أن نربط الآية بالآية، أو الفقرة بالفقرة، أو السورة

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني، ص: ١٣٦.

(٢) الفراهي، جمهرة البلاغة: ١/ ٦١.

بالسورة، بأيّ رابط كان، حتى ولو كان رابطاً غثّاً بعيداً، رابطاً فيه وهن وتكلف!

إنما الأصل في علم النظام أن نتملى الآيات، ونتدبرها حتى تتكشف لنا تلك الروابط اللطيفة، والوشائج الحكيمة: - التي تملؤ الآيات، وتتشابك فيها كتشابك الأفنان في أشجار البستان، أو كتشابك العروق في جسم الإنسان.

- والتي تُظهر وتُبلور ما في آي القرآن من روعة وطلالة تبهج الوجدان.

- والتي تساعد في تذوّق ما فيها من جلال الأسلوب وبديع الخطاب وعذوبة البيان.

- والتي تقرّب الذهن إلى إدراك ما فيها من قوة ورصانة وإتقان.

- والتي تمدّ العقل بما تزخر به الآيات من علوم جمّة وحكم حسان.

- والتي تشفي الروح بما وُضع فيها من علاج لأدوائها العضال، وأسقامها الجسام.

إذن، فعلم النظام يفقد اعتباره، ويفقد قيمته وأهميته:

❖ إذا لم يكن سبباً إلى حبّ القرآن وتذوّقه، والاستمتاع بجمال أسلوبه.

❖ وإذا لم يكن داعياً إلى معايشة الآيات، والتشبّع بروحها.

❖ وإذا لم يكن سبيلاً إلى علاج النفس من أدوائها وأسقامها.

❖ وإذا لم يكن سلّماً إلى صقل المواهب، وتوجيهها وترشيدها.

❖ وإذا لم يكن حافزاً على تطهير العلوم في ضوء نصوص القرآن، وتطويرها.

❖ وإذا لم يكن باعثاً على العمل الجادّ لإظهار نور القرآن على المبادئ كلها.

ولا يعزبنّ عن بالنا أن النظام هو سرّ إعجاز الآيات، وملاك معارف القرآن.

❖ فهو الذي أعجز فرسان الكلام، وأفحم فحول البيان، وأخرس حكماء اليونان!

❖ وهو الذي جعل القرآن بحراً لا يسبر غوره، ولا ينفد كنزه، ولا تنتهي درره!

❖ وهو الذي جعل القرآن بحيث لا تبلى جدّته، ولا تنتهي روعته، فهو جديد ما اختلف الجديدان! ورائع أخّاذ ما خفق الفؤاد، وما خطّ البنان!

زد إلى ذلك أن الإمعان في نظم الآيات، ونظام السور هو المفتاح لفهم القرآن.

❖ فهو الطريق إلى ما فيه من رموز وكنوز.

❖ وهو المنظار لما فيه من علوم وحكم ليست لها حدود.

نسأل الله ربنا الرحمان، الذي أنعم علينا بالقرآن، أن يوفقنا للغوص في أعماقه، والتحليق في أجوائه، والإمعان في نظامه، ونسأله أن يفتح علينا من كنوزه ورموزه، ويجعل لنا نصيبا من علومه، إنه سميع قريب مجيب.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل الخامس
تفسير القرآن بالقرآن

الأصل الخامس من أصول التفسير هو تأويل الآيات بالآيات، أو تفسير القرآن بالقرآن، ولا خلاف بين جهابذة التفسير في أن أحسن طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن، أو تأويل الآيات بالآيات.

قال الإمام السيوطي:

«قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه. وقد ألف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع، وفسر في موضع آخر منه».[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان، فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان، فقد بسط في موضع آخر».[٢]

وقال الفراهي:

«أول شيء يُفسر به القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك ما صحّ عن النبي ﷺ، والذين معه».[٣]

ولقد نوّه الناس بشأن تفسير القرآن بالقرآن، وأشادوا بذكره قديماً وحديثاً، ولكن العجيب في الأمر أنهم لم يتبنّوه في دراساتهم وكتاباتهم ، ولم يولوه عناية كان يستحقها،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، النوع الثامن والسبعون في معرفة شروط المفسر وآدابه: ١/ ٤٣٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمة، مقدمة التفسير، فصل في بيان أحسن طرق التفسير، المجلد١٣ ص: ٣٦٣.

(٣) تفسير نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي: ص ٢٣.

ولم يجعلوه أصلاً يرجعون إليه كلما أرادوا تأويل آية من الآيات، بل تناولوه عرضا، وتداولوه بصورة خاطفة، فقال الزرقاني – مثلا–:

تفسير القرآن بالقرآن عند الزرقاني:

«جاء في القرآن قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فإن كلمة «من الفجر» بيان وشرح للمراد من كلمة «الخيط الأبيض» التي قبلها.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنها بيان للفظ «كلمات «من قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] الآية فإنها بيان للفظ «ما يتلى عليكم «من قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية فإنها بيان للعهدين في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الأول للأول والثاني للثاني.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ فإن كلمة ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ بيان لكلمة «الطارق» التي قبلها، وغير ذلك كثير يُعلَمُ بالتدبر لكتاب الله تعالى».[1]

تلك نماذج لتفسير القرآن بالقرآن، ذكرها الزرقاني في كتابه.

عند العلامة القرضاوي:

والدكتور يوسف القرضاوي أيضاً طرق هذا الموضوع، وقدم نماذج لتفسير القرآن بالقرآن، فقال:

«انظر إلى فاتحة الكتاب، واقرأ فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يبين المراد

---

(١) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ١٢.

بالربوبية هنا، ولكن بينها في قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [١-٣].

فتجلت ربوبيته في الخلق، فالتسوية، والتقدير فالهداية.

وكذلك لم تبين الفاتحة المراد بالعالمين، وقد أشارت إلى ذلك سورة الشعراء في الحوار بين موسى وفرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [٢٣-٢٤] فدل على أن العالمين تشمل السماوات والأرض وما بينهما.

واقرأ فيها أيضاً: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، ثم اقرأ تفسيرها في سورة الانفطار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [١٧-١٩].

وكذلك قراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، نجد تفسيرها في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [١٦].

وفي فاتحة الكتاب أيضاً: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ولم يبين من هم المنعم عليهم، وبين ذلك في سورة النساء، حيث قال تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [٦٩]»[١].

عند الشيخ ابن الوزير:

ومن هذا القبيل ما ذكره الشيخ محمدبن إبراهيم اليمني، الشهير بابن الوزير، في كتابه: (إيثار الحق على الخلق). قال رحمه الله:

«تفسيرالقرآن بالقرآن، وذلك حيث يتكرر ذلك الشيء، ويكون بعض الآيات أكثر بيانا وتفصيلاً...

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، للدكتور يوسف القرضاوي، ص:٢٢١.

فمنه قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فإنه العذاب المعجل في الدنيا لقوله سبحانه في آخر هذه السورة:

﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [٧٧].

وقد تكرر هذا في كتاب الله تعالى.

ومنه تفسير: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] بأهل الكتاب-كقول مجاهد-لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

ويقويه أن عصاة المسلمين لا يريدون فجور صالحيهم، والآية وردت بضمير الغائب في المريدين، وضمير الخطاب في المائلين، فقوّى ذلك.

ومنه تفسير: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بقوله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] فقوله فيها: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ مخصصٌ لعموم: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ومقيد لإطلاقها كأنه قال: إلا أن يعفو، بدليل هذه الآية، مثل ما أنها مخصصةٌ بآياتِ التوبة، فإنه مقدر فيها: إلا أن يتوبوا، بالإجماع، وبالنصوص في التائبين.

هذه الآية دالة على اشتراط عدم العفو، وعلى اعتبار مصائب الدنيا من عذاب المسلمين ووعيدهم، كما دل على ذلك حديث علي رضي الله عنه في تفسيرها، وحديث أبي بكر رضي الله عنه في تفسير: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ولذلك طرق شتى، وفيه أحاديث كثيرة مجمع على معناها، وحديث: «الحسنة بعشر أمثالها، أو أزيد، والسيئة بمثلها أو أعفو» وطرقه صحيحة كثيرة.

ومنه حملُ المطلق على المقيد، والعام على الخاص كنفي الخلة والشفاعة في آية مطلقاً. وقد استثنى الله المتقين من نفي الخلة في قوله تعالى:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله في آية:

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

ومنه الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف،كخلق بني آدم من تراب، كما في الكهف، ومن طينٍ في غير آية، وهو تراب مختلط بالماء، ففيه زيادة على التراب المطلق، وكذلك خلقه من صلصال، فإنه أَخصُّ من الجميع، لأنه طين مخصوص».(١)

تقويم تلك النماذج:

تلك نماذج لتفسير القرآن بالقرآن، يطّرد ذكرها في كتب تتصل بعلوم القرآن، وقد نجد له نماذج أخرى في بعض كتب التفسير، وليست كثيرة.

والسمة الغالبة في تلك النماذج عموماً، أنها محاولات سريعة عاجلة، وليست دراسات عميقة جادة، فكثيراً ما نرى فيها من ضعف ونقص يشي بقلة التروّي، وقلة التحري في الأمر.

مفهوم العالمين:

فالذي قاله العلامة القرضاوي من: (أن سورة الفاتحة لم تبين المراد برب العالمين، وجاء بيانه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [٢٣-٢٤] فدل على أن العالمين تشمل السماوات والأرض ومابينهما).

فهو قول فيه نظر، فقول موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ ﴾ بيان لرب العالمين، وليس بياناً للعالمين.

والقرآن يطلق لفظ (العالمين) دائماً على أفراد الإنس فقط، ولا يطلقه أبداً على السماوات والأرض وما بينهما، قال تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

---

(١) إيثار الحق على الخلق: ص: ١٥٠-١٥٢.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن نذيراً للسماوات والأرض وما بينهما، وإنما كان نذيراً للناس كما قال في موضع آخر:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج:٤٩].

وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٤٧].

فبنو إسرائيل ما فُضّلوا على السماوات والأرض وما بينهما، وإنما فضلوا على أقوام آخرين في زمانهم.

والعرب أيضاً يطلقون لفظ العالمين دائماً على بني آدم، ومنه قول الشاعر:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعـ ـتُ بمثلِهمْ في العالَمِينا[1]

ومنه قول جرير:

أَلَسْتُمْ خيرَ مَن رَكِبَ المَطَايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ[2]

وقال بشار بن برد:

يُضيعُ نساءَهُ ويَظَلُّ يحْمي نساءَ الْعَالَمِين من اللِّعاب[3]

لا تقييد ولا تخصيص!

وهكذا كلام الشيخ ابن الوزير لا يخلو من ضعف، فنفي الخلة والشفاعة في مثل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

لا يحتمل تقييداً أو تخصيصاً، فالخلة أو الشفاعة التي كان يزعمها اليهود

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: علم.

(٢) ديوان جرير: ١/ ٩٣.

(٣) ديوان بشار بن برد: ١/ ٩٣.

والنصارى والوثنيّون منفيّة تماماً، وهم كانوا يعتقدون أنهم سينجون من وبال كفرهم وشركهم، أو من وبال معاصيهم بخلة الأخلاء، أو شفاعة الشافعين، فالقرآن يهدم هذه العقيدة هدماً، ويربط الفوز في الآخرة بالإيمان والعمل الصالح لا غير.

وهذا المبدأ لا يخص قوماً دون قوم، بل هو مبدأ عام ينطلق على الجميع، فأيّ شخص لا ينجيه من عذاب الله، وخزي الآخرة إلا رصيده من الإيمان والعمل الصالح، سواء كان من المؤمنين، أم كان من اليهود والنصارى والوثنيين، فالله لا ينظر إلى الأنساب والأحساب، ولا إلى الأقوام والأرحام، وإنما ينظر إلى القلوب والسلوك، فلا يحصد الإنسان إلا ما زرع، ولا يجني إلا ما غرس.

حديث يردّ الشفاعة أصلاً:

ونجد تأييداً لهذا القول في حديث صحيح مرفوع رواه الإمام مسلم، قال:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شيئاً غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا».[1]

الاستثناء لتأكيد النفي:

والاستثناء الذي أشار إليه الشيخ ابن الوزير ليس لإثبات الخلة والشفاعة، وإنما هو تأكيد لنفيها، فإن عداوة الأخلاء يوم القيامة ليس معناها إلا أنه ينسى بعضهم بعضاً، ويفرّ بعضهم من بعض لشدة الموقف وهول المنظر، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

---

(١) صحيح مسلم، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك: ١/ ١٣٣/ ٥٢٢.

يُغۡنِيهِ﴾ [٣٤-٣٧].

وأما المتقون فهم يكونون آمنين، لا يخافون ولا يحزنون، قال تعالى:

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٠].

فالمقصود هنا ليس إثبات الخلة للمتقين، وإنما المقصود إبراز أهمية الإيمان والتقوى، وأن الإيمان والتقوى هو الذي يجعل الإنسان في أمن من الفزع الأكبر، وأنه هو الطريق إلى الجنة، وأما خلة خليل، فهي لن تنفع شيئاً، ولن تنجي أحداً.

وهكذا الوضع في الشفاعة، فالمشركون كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكانت تلك تماثيل الملائكة، وكانوا يزعمون، ويعتقدون أنهم سيشفعون لهم عند الله، فقال تعالى رداً لزعمهم، وإبطالاً لعقيدتهم:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

فالاستثناء في الآية ليس إلا تأكيداً لنفي الشفاعة، حيث إن الملائكة لا يستطيعون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا يقدرون على أن يشفعوا لهم عندالله إلا من بعد إذنه ورضاه، وهل يأذن الله لملائكته أن يشفعوا لأعدائه، الذين لم يؤمنوا بكتابه، ولم يستجيبوا لرسوله، وأصروا على عصيانه والإشراك به؟

وإن قلنا إن ذلك استثناء للشفاعة المأذونة، فذلك ينقص من قوة النفي، ويترك باب الأمل مفتوحاً على مصراعيه أمام من يحلم بالشفاعة، ويخلد إليها، ويؤسس بنيانه عليها، وذلك خلاف المقصود.

ولا نريد أن نطيل، فذانك مثالان، يكفيان لتقدير الوضع في تفسير القرآن بالقرآن، فليس الوضع بحيث يستريح إليه الإنسان، ويطمئن أنه وضع يُرضي القرآن ومُنزل القرآن.

أحسن الله إلى العلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، وجزاه عن القرآن وعن أمة القرآن كل خير، حيث أدرك هذا الفراغ الموجود في مجال التفسير، ونهض ليسدّه، وعُني بهذا المنهج، وتبنّاه حينما أغفله الناس، وأعاره اهتماماً بالغاً مشكوراً، وأنشأ على أساسه تفسيراً قيّماً أسماه «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن».

منهج ينقصه الشمول والدقة:

ولكن الذي نلاحظه في «أضواء البيان»، أنه لا يتناول الآيات كلها، بل يقفز قفزات، فيأخذ آيات، ويترك آيات، ويأخذ في الغالب جزءاً صغيراً من الآية، ويفسره بنظيره في نفس السورة، أو في غيرها، ولا بأس بأن نذكر له المثال؛ فإن المثال يشخص الحال. قال رحمه الله في أول سورة البقرة:

«قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يذكر هنا بياناً عن هؤلاء المنافقين، وصرح بذكر بعضهم بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ لم يبين هنا شيئاً من استهزائه بهم. وذكر بعضه في سورة الحديد في قوله: ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ الآية، ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم، والبكم، والعمى. ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن معنى صممهم وبكمهم، وعماهم، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم، وقلوبهم، وأبصارهم وذلك في قوله جل وعلا: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦](١).

ونرى في سورة المائدة أنه رحمه الله فسر الآية السادسة، وهي آية الوضوء، وأسهب فيها الكلام، ثم قفز إلى الآية الخامسة عشرة، فقال:

---

(١) أضواء البيان لإيضاح القرآن بالقرآن: ١/ ١٣.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥] الآية، لم يبين هنا شيئاً من ذلك الكثير الذي يبينه لهم الرسول الله ﷺ مما كانوا يخفون من الكتاب، يعني التوراة والإنجيل، وبين كثيراً منه في مواضع أخر.

فمما كانوا يخفون من أحكام التوراة رجمُ الزاني المحصن، وبينه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

أقول: ما ذكره العلامة الشنقيطي هنا ليس من تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن لم يبين هنا أن مما كانوا يخفونه من أحكام التوراة رجم الزاني المحصن. وهو أقرب إلى تفسير القرآن بالآثار منه إلى تفسير القرآن بالقرآن.

ثم قفز رحمه الله إلى الآية السابعة والعشرين، وأدلى دلوه في تفسيرها، فقال:

«قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧] الآية.

قال جمهور العلماء: إنهما ابنا آدم لصلبه، وهما هابيل، وقابيل.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هما رجلان من بني إسرائيل، ولكن القرآن يشهد لقول الجماعة، ويدل على عدم صحة قول الحسن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾، ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن حتى يدله عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفته منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح، ونبه عليه غير واحد من العلماء، والله تعالى أعلم».(١)

أقول: هذا الكلام أيضاً أقرب إلى تفسير القرآن بالأقوال والآثار منه إلى تفسير القرآن بالقرآن.

وعلى أية حال، فتلك بعض النماذج من «أضواء البيان» وفيها كفاية لتقدير

---

(١) نفس المصدر، ١/ ٣٧١-٣٧٢.

الموقف، فالشنقيطي رحمه الله أراد أن يتبنى تفسير القرآن بالقرآن، ولكنه لم يتقنه، ولم يستطعه إلا في جزء صغير منه، والجزء الأكبر من القرآن ينتظر من ينهض له، وينجز ما تبقّى منه بكل حرص وإتقان.

مدار تفسير القرآن بالقرآن:

فمبدأ تفسير القرآن بالقرآن كمبدأ عام ومنهج مستقل شامل، يعمّ ويشمل جميع آيات القرآن، ولا نقدر عليه إلا إذا وسّعنا رؤيتنا للموضوع، وأدركنا أن نظم الكلام، وسياق الكلام ليس خارجاً من الكلام، بل هو جزء من الكلام، والكلام لا يفهم إلا في ضوء نظمه وسياقه، ولا يمكن تفسير القرآن بالقرآن تفسيراً محكماً مستوعباً لآياته كلها، إلا إذا بُني تأويله على نظم آياته، وسياق كلماته.

وأما إذا قصرنا النظر على لفظ القرآن، وعبارة القرآن، وأغفلنا العناية بنظم القرآن، وسياق القرآن، وذهلنا عن رباط الآيات ومناسباتها،لم يتيسر لنا أن نفسر القرآن بالقرآن إلا في نطاق ضيق محدود، وفي جزء صغير منه، كما رأينا في «أضواء البيان»، وكما رأينا قبل ذلك في «مناهل العرفان».

وإن أشكل علينا شيء من نظم القرآن، ورباط آياته فلا يحملنّ ذلك على أن نقطع منه الأمل، ونلجأ إلى اليأس، بل يفرض علينا الموقف أن نستفرغ فيه الجهد، ونُدمنَ قرع أبواب التأويل عن طريق التأمل والتدبر والتفكر في سياقه وسباقه، وجوّه وأسلوبه.

ومن أدمن القرع للأبواب، ولم يلجأ إلى اليأس، كان حقيقاً بأن يلج الباب، ولو بعد حين، حتى ولو بعد سنين.

أضرار ضيق المفهوم:

لا بد أن نوسع مفهوم تأويل القرآن بالقرآن؛ فإن هذه القاعدة، مع عظم شأنها وجلالة قدرها، واتفاق الناس على أهميتها، لم تطبّق بعد. ولم يؤلف إلى الآن تفسير كامل يمثل هذا المنهج، ولعل الذي حال دون تطبيق تلك القاعدة، ونجاحها هو ضيق مفهومها.

فالمفهوم القاصر الضيّق لتأويل القرآن بالقرآن هو الذي ألجأ الناس إلى التفسير

بالمأثور، فإن تفسير القرآن بالقرآن بمفهومه الواسع الشامل يجعل الباحث في غنى عمّا سواه، والرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ ما كانوا يفسرون القرآن إلا بالقرآن، وحينما كانوا يفسرون القرآن بالقرآن، ما كانوا يحتاجون في تفسيره إلى شيء آخر، حتى لم تمسّهم حاجة إلى أن يأتوا رسول الله، ويسألوه معنى آية من القرآن، فليست هناك رواية صحيحة تفيد أن سيدنا أبابكر، أو سيدنا عمر، أو أحداً من جلّة الصحابة رضي الله عنهم جاء إلى رسول الله ﷺ، وسأله معنى آية أشكلت عليه.

احتجاج بما ليس فيه حجة!

قد يُحتجُّ علينا بحديث رواه البخاري في صحيحه، حيث قال:

حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا وكيع (ح) حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال:

لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٢٨]. شَقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][(١)].

قد يُحتج علينا بهذا الحديث، ولكن ليست فيه حجة، فإن كلامنا يدور حول فقهاء الصحابة، وعلمائهم، الذين كانوا يعيشون القرآن، ويتدبرونه في ليلهم ونهارهم، والقرآن كان يُفيض عليهم من علومه وحِكَمه، ومن كنوزه وأسراره ما يملأ صدورهم، وتفيض به ألسنتهم، حتى قال قائلهم، وهو يشير إلى صدره:

(ها، إن ههنا لعلماً جمّاً، لو أصبت له حملة!)[(٢)]

وأما عامة الصحابة، فحالهم ليست كحالهم، وهم ما كانوا في غنى عن السؤال عما أشكل عليهم من كتاب الله، فكانوا يرجعون أحياناً إلى رسول الله عليه الصلاة

---

(١) صحيح البخاري، باب ماجاء في المتأولين: ٤/ ٣٧٦/ ٦٩٣٧.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، ص: ٤٣٢.

والسلام، فيبين لهم ما أشكل عليهم، ويشفي نفوسهم، وأخرى يرجعون إلى من يفوقهم في العلم والفهم من كبار الصحابة رضي الله عنهم، ويتعلمون منهم.

والحديث الذي رواه البخاري لا يذكر قصة الجميع، وإنما يذكر حال بعض الصحابة، وهم كانوا من عامتهم، ولم يكونوا من أوعية الكتاب، ولم يكونوا من الراسخين في العلم.

والذي يدفعنا إلى هذا القول هو القرآن نفسه؛ فإن القرآن أكثر من استعمال لفظ: (الظلم) في سياق المشركين، سواء كان المشركون من أهل الأوثان، أو المشركون من أهل الكتاب، حتى يبدو لفظ الظلم، وكأنه مرادف للفظ الشرك، وهذا الأمر من الوضوح بحيث لا يخفى على أي دارس للقرآن، بله جلّة أصحاب رسول الله، الذين نهلوا من القرآن، وعلّوا، حتى ابتلت عروقهم، واستنارت نفوسهم، وكان يجري القرآن منهم مجرى الدم.

أمثلة لإطلاق الظلم على الشرك:

ولا بأس بأن نمرّ على بعض الآيات التي ورد فيها لفظ الظلم بمختلف مشتقاته، حتى ندرك أن الظلم مصطلح قرآني معروف، وهو يطلق في أغلب استعمالاته على الشرك و المشركين، وما كان هذا الأمر ليخفى على أصحاب رسول الله، اللهم إلا أن تكون هناك طائفة حديثةُ عهد بالإيمان، ورصيدهم من القرآن قليل، فلا غرابة إن شقّت عليهم تلك الآية التي تذكرها الرواية. قال تعالى:

❖ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

❖ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

❖ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

❖ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

❖ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

❖ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

❖ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

تلك بضعة أمثلة تكفي لاستيعاب الموقف، وإلا فالقرآن حافلٌ طافح بأمثالها، والذي نستوحي من القرآن هو أن الظلم نسيب الشرك، ومن خصال الشرك، ولا علاقة له بالإيمان، وكلما جاء لفظ الظلم في القرآن، فهو يرمي إلى الشرك والمشركين، إلا أن تكون هناك قرينة واضحة تصرفه إلى أهل الإيمان، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وما كان هذا الأمر ليخفى على تلك الثلة المباركة من أصحاب رسول الله، الذين كانوا يبيتون مع القرآن، ويستيقظون مع القرآن، وكان القرآن ربيع قلوبهم، وكان حديثَ ليلهم ونهارهم.

رواية أقرب إلى الوهم:

وأما ما رواه الحاكم عن أمير المؤمنين سيدنا عمر، قال: حدثني علي بن حمشاد العدل قال: أخبرني الحارث بن أبي أسامة أنا روح بن عبادة ثنا حماد بن زيد عن علي ابن زيد عن سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب أتى على هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فأتى أبيّ بن كعب فسأله: أينا لم يظلم؟ فقال له: يا أمير المؤمنين إنما ذاك الشرك، أما سمعتَ قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ

﴿ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][١].

فتلك رواية لا تخلو من وهم، ومن رواة تلك الرواية روح بن عبادة، وقد تُكُلِّمَ فيه، وكان صاحب أوهام.[٢]

منهج الصحابة في التفسير:

والآن نعود إلى حديثنا، فنقول: كان الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ يفسرون القرآن بالقرآن، وكانوا يتوصلون بفضل هذا المنهج إلى ما يقرّ أعينهم، ويثلج صدورهم من حِكَمِ القرآن ومعارفه، وأسراره وغوامضه، ولم تمسهم حاجة إلى أن يسألوا رسول الله معاني الآيات، أو يسأل بعضهم بعضاً، وهكذا كان دأبهم في حياة رسول الله، واستمرّ ذلك إلى عهد الخلفاء الراشدين.

ثم حدثت أحداث، وظهرت الفتن، وفترت الهمم، وضعفت صلة الناس بكتاب الله، وشغلتهم الشواغل عن تدبره، ومعايشته، والبحث عن كنوزه ومعارفه، فلجؤوا إلى التفسير بالمأثور، وفتح الباب على مصراعيه لكل مأثور، حتى توجه تيّار جارف، أو سيل دافق من الإسرائيليات والروايات الضعاف إلى مدارس التفسير، وغَشِيَها من يَمِّ الإسرائيليات، والروايات الموضوعات المكذوبات ما غشيها!

ومن هنا دالت دولة القرآن، وأهمل منهج تفسير القرآن بالقرآن، وأصبح زمام الموقف بيد الإسرائيليات، والروايات المكذوبات، ووضعت الروايات بكل لباقة ومهارة باسم عبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وأبيّ بن

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، ذكر مناقب أبي بن كعب: ٣/ ٣٧٥/ ٥٣٩٧.

(٢) روى الكديمى، عن ابن المدينى، قال: نظرت لروح في أكثر من مائة ألف حديث، كتبت منها عشرة آلاف.

وقال ابن المديني: ذكر عبدالرحمن روح بن عبادة فقلت: لا تفعل، فإن هنا قوما يحملون كلامك. فقال: أستغفر الله.

وروى الكتاني، عن أبى حاتم، قال: لا يحتجّ به.

وقال النسائي في العتق وفي الكنى: روح ليس بالقوىّ. (الذهبي، ميزان الاعتدال:٢/ ٥٩).

كعب، وغيرهم من أفاضل الصحابة، ونفقت تلك الروايات، وراجت عند الناس، لأنها وضعت باسم أعلام التفسير، وكانت لتلك الأسماء هيبتها في قلوب الناس.

وهكذا أصبح التفسير بالمأثور هو التفسير المفضل عند الناس، حتى لو أراد شخص أن يرجع إلى تفسير القرآن بالقرآن، لم يجد من يصغي إليه، أو يعبأ بكلامه، ولم يلق من الناس إلا الإعراض والاستنكار، وذلك لشيوع الإسرائيليات، وسيطرة الروايات المكذوبة على الأذهان. حتى قال الأوزاعي:

(الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب.)

وقال يحيى بن أبي كثير:

(السنّة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاضياً على السنة!)(١)

ولا يغرّنك لفظ السنّة، فهم تعوّدوا إطلاق لفظ السنة على كل رواية، حتى ولو كانت تخالف القرآن، وهيهات أن يكون كلام رسول الله، أو فعله مخالفاً للقرآن! وهيهات أن يكون كلامه، أو فعله قاضياً على القرآن!

قال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل وقد سئل عن الحديث الذي روي، أن السنة قاضية على الكتاب فقال: ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن أقول: إن السنة تُفَسِّرُ الكتابَ وتُبينه.(٢)

القرآن كله قطعيّ الدلالة:

ثم الغفلة عن تفسير القرآن بالقرآن بمفهومه الواسع الشامل، هي التي كانت حجاباً دون فهم كثير من الآيات على وجهها، وهي التي حملتهم على القول عنها، بأنها غير قطعية الدلالة، فحينما اشتغل الناس بالتفسير بالمأثور، ورأوا أهل التأويل قد

---

(١) بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: مسألة: حاجة الكتاب إلى السنة: ٤/ ١٦٧ - وصالح بن محمد الشهير بالفلاني في كتابه: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، واللفظ له: ص: ٤٨.

(٢) الموافقات للشاطبي- ٤/ ٣٤٥ - وطبقات الحنابلة: ١/ ٢٥١، تأليف: أبو الحسين بن أبي يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي.

اختلفوا في تأويل الآيات على أقاويل وآراء، قالوا: إن تلك الآيات ظنية الدلالة، وليس ذلك إلا لاختلاف المفسرين، وتحيّرهم في تأويلها، ولو فسروا القرآن بالقرآن، وتأملوا في نظم تلك الآيات وسياقها، لوجدوا الأمر مختلفا جداً، وما بقيت هناك آية غير قطعية الدلالة.

تنبيه على وهم:

قال صاحب «شرح المعتمد»:

«القرآن الكريم كله قطعيُّ الثبوت أي لا شَكَّ في نِسبته إلى الله عز وجل ولكنه ليس قطعي الدلالة على سائر الأحكام فمنه قطعي الدلالة ومنه ظني الدلالة مثال ذلك قوله عز و جل ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء: ٤٣] - فالآية تدل على أن ملامسة المرأة تنقض الوضوء ولكن ما هي الملامسة المقصودة؟ هل هي محض اللمس؟ أم هي الجماع؟ أم هي الملامسة بشهوة؟ ثلاثة أقوال لكل منها قرائن يستدل بها القائلون بذلك. والآية ظنية الدلالة على كل قول.[1]

نقول: جاءت آية الملامسة مرتين في القرآن، مرة في سورة النساء، حيث قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [٤٣].

ثم جات الآية مرة أخرى في سورة المائدة، حيث قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ

---

(١) شرح المعتمد، المبحث الأول: الكتاب الكريم: ١/ ٣٦.

وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٦].

وفي كلتا الآيتين لم يرد ذكر الملامسة إلا في سياق الجنابة، وأما ذكر المجيء من الغائط، فلم يأت إلا عرضاً، وذلك للدلالة على أن التيمم ينوب مناب الوضوء والغسل كليهما.

وذلك يعني أن ملامسة المرأة لا تنقض الوضوء فقط، بل تدخل الإنسان في حالة الجنابة، وتوجب عليه الغسل، فهل تكون تلك الملامسة مجرد اللمس؟ أو الملامسة بشهوة؟ أم الجماع؟ وهل مجرد اللمس يوجب على الإنسان الغسل؟

فنص القرآن واضح في عبارته، قطعي في دلالته، وليس هناك أيّ احتمال، أو أيّ قرينة للمعاني الأخر، والقول بظنّيّة هذا النصّ قولٌ ليس له وجه.

تنبيه على وهم آخر:

وقال صاحب موسوعة «هل يستوي»:

«معنى أن يكون (القرآن) ظني الدلالة: هو أن يحتمل هذا الحكم ويحتمل غيره (أي إن اللفظ يحتمل عدة معانٍ).

ومن أمثلة ذلك: قول الله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ [النساء: ٢٣]، فإن الإرضاع يحتمل أن يكون المرة الواحدة، ويحتمل المرات المتعددة، ولذلك اختلف الفقهاء في القدر المحرم من الرضاعة فدلالة الآية على أن الرضاعة مرة واحدة محرم دلالة ظنية».

نقول: إن القرآن ذكر في الآية محارم النساء، ومن تلك المحارم الأم من الرضاعة، والأم من الرضاعة هي التي ترضع الصبيّ في سن الرضاعة. ولحمه وعظمه ودمه، كله ينبت من لبنها. فالأم التي أرضعت الصبي في سن الرضاعة تكون حراماً عليه، وبناتها أيضاً يكنّ حراماً عليه، لأنهن في حكم الأخوات الشقيقات.

هذا هو الإرضاع، وتلك هي الرضاعة في اللغة وفي العرف، قال عمروبن كلثوم

في معلقته:

إذا بَلَغَ الفِطَامَ لَنا رَضيعٌ   تَخِرُّ لَهُ الجَبابرُ ساجِدينَا

وقال الأعشى:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما   بأسحم داجٍ عوض لا نتفرق

ومن المجاز: فلان يرضع الدنيا ويذمّها. قال عبد الله بن همام:

وذمّوا لنا الدنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتـــى ما يدرّ لها ثعل

ولئيم راضع ورضاع: مبالغ في اللؤم. وأصله أن رجلاً كان يرضع إبله وغنمه، ولا يحلبها لئلا يسمع صوت الشخب، فيطلب منه. ويقال: امرأةٌ مُرضِع، إذا كان لها ولدٌ ترضِعُه. فإنْ وصفْتَها بإرضاعها الولدَ قلت مُرْضعةٌ.(١)

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

ذهب الذيـــن أحبهم   فعليـــك يا دنيا السلام

لا تذكرنّ العيـــش لي   فالعيـــش بعدهم حرام

إني رضيع وصـــالهـم   والطفل يؤلمه الفطام(٢)

فالأصل في معنى الرضاعة والإرضاع هو الشِّبَعُ والرِّيّ، أو الإشباع والإرواء بصورة دائمة متواصلة، وأما المصّة أو المصّتان، أو المصات، فهي لا يطلق عليها لفظ الإرضاع، أو الرضاعة، فلا يقال: الرضاعة مرة واحدة، والرضاعة مرتين، و الرضاعة ثلاث مرات، وما إلى ذلك.

والقرآن قطعيّ الدلالة فيما أراد من بيان حكم الأم من الرضاعة، أو الأخت من الرضاعة.

---

(١) الزمخشري - أساس البلاغة: ر ض ع، والجوهري - الصحاح في اللغة: ر ض ع.

(٢) الأبشيهي - المستطرف من كل فن مستظرف، نبذ من ملحه القصار من أخباره: ٢/ ٢٨٨.

ولم يكن يرمي إلى بيان حكم المصّات، فلم يتناولها بنص، فالحكم على آية الإرضاع، بأنها ظنيّة الدلالة في أمر المصة، أو المصّات حكم غير سليم.

وإذا جاءنا مثل هذه الحالات، فلننظر فيها بتمعّن ودقّة، ولنقس الأمور على أشباهها، ولنجتهد رأينا في ضوء الكتاب والسنة، ولا نحكم على القرآن بأنه ظني الدلالة في هذا الأمر، فإنه خلاف الأصل وخلاف الواقع.

فالقرآن كله قطعي الدلالة، والظن لا يكون في الآيات، وإنما يكون في نفس المجتهد.

تنبيه على وهم آخر ثالث:

ويزيد صاحب الموسوعة، فيقول:

«هذا وقد يكون النص الواحد من القرآن قطعي الدلالة باعتبار وظنيّها باعتبار آخر.

ومثال ذلك: قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

فإن دلالة هذه الآية على أصل المسح قطعية، ودلالتها على القدر المطلوب مسحه من الرأس ظنية، ولذلك اتفق الفقهاء على أن مسح الرأس في الوضوء مطلوب، واختلفوا في القدر المطلوب مسحه.[1]

نقول: هذا الكلام أيضاً خلاف الأصل وخلاف الواقع، وهو مبنيّ على الذهول عن أسلوب الآية، فالأعضاء المغسولة مطلوب استيعابها بالغسل، فذكرت حدودها، فالوجه مطلوب استيعابه بالغسل، ولم يكن بحاجة إلى تحديد، فهو معروف الحدود، والأيدي والأرجل جاء تحديدها بالمرافق والكعبين، فإن المطلوب في الأيدي غسلها إلى المرافق، والمطلوب في الأرجل غسلها إلى الكعبين.

وأما المسح فليس الواجب فيه الاستيعاب، سواء كان مسح الرأس في الوضوء،

---

(١) موسوعة هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون الأصول: ١/ ٢٥.

أو مسح الوجوه والأيدي في التيمم، ولهذا ما جاء تحديد مسح الرأس في الوضوء، ولا تحديد مسح الأيدي والأرجل في التيمم، حيث قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وتكررت نفس الآية في سورة المائدة، ولم يأت هناك أيضاً تحديد القدر الممسوح من الوجوه والأيدي، فالمسلم بالخيار في شأن المسح، إن شاء استوعب، وإن شاء لم يستوعب، ولا حرج.

ومن هنا نرى نبينا عليه الصلاة والسلام مسح أحياناً بناصيته، أو مقدّم رأسه، ثم أمرّ يده على العمامة، ولو كان استيعاب الرأس في المسح واجباً لخلع عمامته، واستوعب رأسه بالمسح.

وهكذا اختلفت الروايات في التيمم، فجاء مثلاً:

«التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة للكفين إلى المرفقين».

وجاء: «ضربة للوجه، وضربة للكفين».

وجاء: «ضربتان: ضربة للوجه، وضربة للذراعين».

وهذا كله صحيح، والأمر فيه سعة، ومن أراد أن يتحجّر واسعاً فقد أخطأ. والقرآن حدّد ما كان بحاجة إلى تحديد، وما لم يكن كذلك، تركه على السعة، وهو قطعي الدلالة في كلتا الحالتين. والحكم على النص الواحد بأنه قطعي الدلالة باعتبار، وظنيّها باعتبار آخر، حكم غير سليم، وجدير بأن يعاد فيه النظر.

ومن تمام القول أن القرآن حينما لم يحدد القدر الواجب إلا في الأعضاء المغسولة، وترك الأعضاء الممسوحة بدون تحديد قَدْرِ المسح، فروايةُ الكسرة في (أرجلكم) عطفاً على (برؤوسكم) في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ ليس لها وجه. وتحديد الأرجل بالكعبين قرينة قوية لرجاحة رواية الفتحة، على رواية الكسرة، وحجة ساطعة على وجوب غسل الرجلين، دون المسح بهما.

تنبيه على وهم آخر رابع:

وقال الدكتور محمد الحبش:

«النصوص الشرعية لها دلالات قطعية، ودلالات ظنية، وهم لا يختلفون في قطعي الدلالة، ولكنهم يختلفون في ظني الدلالة.

مثال ذلك: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فدلالة الآية قطعية لا شك فيها، ولكن دلالتها على النباش، والمختلس، والطَّرار، والمغلّ، دلالة ظنية محتملة».[١]

نقول: إن الآية قطعية الدلالة فيمن يسمونه: «السارق»، وفي كل ما عدّه الدكتور الحبش: من النباش، والمختلس، والطرار، والمغلّ.

والذين تحيروا في هذا الأمر، لم يتحيروا إلا لأنهم أخطؤوا معنى السارق، ولعل هذا الخطأ جاء أول ما جاء، من ابن عرفة حيث قال في قوله تعالى: والسارِقُ والسارِقةُ... الآية:

«السارق عند العرب من جاء مُسْتَتِراً إلى حِرْزٍ فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مُخْتَلِس ومُسْتَلِب ومُنْتَهِب ومُحْتَرِس فإن مَنَعَ مما في يديه فهو غاصب».[٢]

والصحيح أن لفظ السارق يطلق على ما ذكره ابن عرفة، ويطلق على ما أخرجه من عمومه، من الغاصب، والمختلس، والمنتهب، والمستلب، والمحترس، وقاطع الطريق، وما إليه. وإليك بعض الأمثلة من استعمالات العرب:

مشتقّات السرقة في الروايات:

روى الإمام مسلم، قال: حدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي - ﷺ - أن تقطع يدها، فأتى أهلها أسامة بن زيد، فكلموه فكلم رسول الله -

---

(١) الدكتور محمدالحبش، شرح المعتمد، أسباب اختلاف الفقهاء: ١/ ٣٠.

(٢) لسان العرب: سرق.

ﷺ- فيها[1].

وروى النسائي، قال: أخبرنا عمران بن بكار قال حدثنا بشر بن شعيب قال أخبرني أبي عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: استعارت امرأة على ألسنة أناس يُعرفون وهي لا تُعرف، حلياً فباعته وأخذت ثمنه فأتي بها النبي ﷺ فسعى أهلها إلى أسامة بن زيد فكلم رسول الله ﷺ فيه فتلون وجه رسول الله ﷺ وهو يكلمه ثم قال له رسول الله ﷺ أتشفع إليّ في حد من حدود الله، فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله! ثم قام رسول الله ﷺ عشيتئذٍ فأثنى على الله عز و جل بما هو أهله، ثم قال: أما بعد: فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم قطع تلك المرأة، تابعه الليث على قوله سرقت.[2]

وروى النسائي، قال: أخبرني محمد بن الخليل عن شعيب بن إسحاق عن عبيد الله عن نافع: أن امرأة كانت تستعير الحلي في زمان رسول الله ﷺ فاستعارت من ذلك حلياً فجمعته ثم أمسكته فقال رسول الله ﷺ: لِتَتُبْ هذه المرأة وتؤدي ما عندها، مرارا، فلم تفعل، فأمر بها فقطعت.

قال الشيخ الألباني: صحيح.[3]

فالمرأة المخزومية كانت مأخوذة بجريمة السرقة، وأقيم عليها حدّ السرقة، وهي ما كانت تسرق الحليّ بالمعنى المعروف، وإنما كانت تستعيرها، ثم تجحدها، وكانت تلجأ لذلك إلى أنواع من الحيل والكيد، والخداع.

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: «فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد». فلعله لم يقصد بالسارق، مجرد شخص يأتي مستتراً إلى حرز، ويأخذ منه ما ليس له.

---

(١) صحيح مسلم، باب قطع السارق الشريف: ٥/ ١١٥/ ٤٥٠٧.

(٢) سنن النسائي الكبرى، ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر، رقم الحديث: ٧٣٨٥.

(٣) سنن النسائي- بأحكام الألباني، باب ما يكون حرزا، وما لا يكون، رقم الحديث: ٤٨٩٠.

بل قصد بذلك كل من يبسط يده إلى أموال الآخرين، سواء كان منتهباً، أو مستلباً، أو محترساً، أو مختلساً، أو طراراً، أو غاصباً، أو قاطع الطريق؛ فإن الضعيف هو الذي يؤخذ في تلك الجرائم كلها، ويواجه أشد العقوبات، وأما الشريف فهو يمارس هذه الأمور كلها، بدون أي نكير.

مثال آخر:

وروى أبوداود، قال: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس بن مالك أن قوماً من عكل - أو قال من عرينة - قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة فأمر لهم رسول الله ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا النعم فبلغ النبي ﷺ خبرهم من أول النهار فأرسل النبي ﷺ في آثارهم فما ارتفع النهار حتى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وأُلقوا في الحرَّة يستسقون فلا يسقون.

قال أبو قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله.[1]

فتلك القصة لم تكن قصة رجل جاء مستتراً إلى حرز، وأخذ منه ما ليس له، وإنما هو سلب ونهب، وقتل ومحاربة من عصبة ضد عصبة، وأبو قلابة يصف هذا الوضع بلفظ السرقة.

مثال آخر ثالث:

وروى الطبراني، قال: حدثنا عبدان بن أحمد ثنا محمد بن عمرو بن العباس الباهلي ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عوسجة عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله ما يمنع حبش بني المغيرة أن يأتوك إلا أنهم يخشون أن تردهم قال: لا خير في الحبش إذا جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخلتين حسنتين: إطعام الطعام وبأس عند البأس.[2]

---

(١) سنن أبي داود، باب ما جاء في المحاربة: ٤/ ٢٢٧/ ٤٣٦٦.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، باب أحاديث عبدالله بن العباس: ١١/ ٤٢٨/ ١٢٢١٣.

فقول النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الرواية: (إذا جاءوا سرقوا) لا يعني السرقة بالمعنى المعروف، وهو أخذ مال الغير خفية، بل يعني كل ما يفعله الإنسان، إذاكان في شدة الجوع، من سلب، ونهب، وغصب، واختطاف، واحتراس، وما إلى ذلك.

الأصل في معنى السرقة:

فالأصل في معنى السرقة، ليس أخذ المال خفية، وإنما هو إلحاق الضعف والنقص بإنسان في ماله، بأيّ طريق كان، فمعنى الضعف والنقص موجود في هذه المادة.

يقال: سُرق صوته، وهو مسروق الصوت إذا بحّ صوته، وغزال مسروق البغام. ورجل مسترق العنق: قصيرها مقبضها. وأنشد أبو عبيدة:

عكوك إذا مشى درحايه   مسترق العنق قصير الدايه

رددته بالصغر والقمايه.

وهو مسترق القوى: ضعيف. وسرقت مفاصله بوزن عرقت: إذا ضعفت. واسترق الكاتب بعض المحاسبات إذا لم يبرزه.

قال الزمخشري:

وسمعت منهم من يقول: سرقت يا قوم، سرقت غرفتي. قال:

وتبيت منتبذ القذو   ر كأنما سرقت بيوتك

أي حيث تعتزل القذور من النوق فتبرك ناحية من الإبل.

وسمعتهم يقولون: سرقتني عيني، في معنى: غلبتني عيني.(١)

ويمكن أن نستأنس هنا بالرواية التالية:

حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا محمد بن النوشجان وهو أبو جعفر السويدي ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه

---

(١) الزمخشري، أساس البلاغة: س ر ق.

قال قال رسول الله ﷺ:

أسوأُ الناس سرقةً الذي يسرق من صلاته!

قالوا يا رسول الله: وكيف يسرق من صلاته؟

قال لا يُتِمُّ ركوعها ولا سجودها، أو قال: لا يقيم صلبه في الركوع والسجود.

تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.(١)

فسرقة الصلاة لا يوجد فيها إلا معنى النقص والتقصير والتفريط، وهو غير ما ذهب إليه ابن عرفة. وهو الأصل في معنى السرقة، فالسرقة هي إلحاق الضعف والضرر والنقص بإنسان في ماله بغير حق، وما من شك في أنه من الإفساد في الأرض، واستعمل هذا اللفظ للصلاة تجوّزاً.

دلالة سياق الآيات:

ولنستمع إلى إخوة يوسف ماذا يقولون، ردّا على من اتهمهم بالسرقة. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٣].

فالحق أن السرقة من الإفساد في الأرض، ولا ينهض للسرقة إلا من تفرّغ لنشر السوء والفساد.

وبما أن السرقة من الإفساد في الأرض، قرن الله بين حدّهما، فذكر حد السرقة بعد ذكر حد المحاربين المفسدين في الأرض مباشرة. وجعله أشبه ما يكون بحد المحاربين المفسدين.

قال تعالى في شأن المحاربين المفسدين:

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، رقم الحديث: ٢٣٠١٩.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٣٣].

وقال تعالى، وهو يذكر عقوبة السارقين:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [٣٨].

وهذا الشبه بين عقوبة السرقة، وعقوبة الإفساد في الأرض إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الأصل في السرقة هو الإفساد في الأرض، دون الاستتار والتخفي.

والخطوة الأولى في الإفساد في الأرض، هي نقض الأمن، وبثّ الخوف، وإلحاق الضعف، والنقص، والضرر بالناس في أموالهم.

وكل من فعل ذلك، وبسط يده إلى أموال الآخرين بدون حق، فهو من المفسدين، ويكون حكمه حكم السارقين، ويعامل بما يعامل به السارقون، سواء كان طرّاراً، أم نبّاشاً، أم مختلساً، أم مختطفاً، أم منتهباً، أم محترساً، أم مسلاً، أم قاطع الطريق، وهلم جرا.

زبدة القول أن القرآن قطعي الدلالة في جميع ما تناوله من القضايا والأحكام.

وآية السرقة، مثل أخواتها، قطعية الدلالة في عقوبة الطرارين، والنباشين، والمختطفين، والمختلسين وغيرهم، كما أنها قطعية الدلالة في عقوبة السارقين بالمعنى المعروف.

وأما الظنيّة، فهي لا توجد في كلام الله، وإنما توجد في أفهام الناس.

ولا يسعنا هنا أن نسترسل في الأمثلة، فالمقام لا يتسع لأكثر مما فعلنا، ولعل الأمثلة التي ضربناها تكفي لإدراك هذه الظاهرة، والقناعة بها.

وإذا كان القرآن دستور حياة المسلم، وكان قانون دولة الإسلام، فالقانون والدستور لا بد أن يكون في جميع بنوده قطعياً في دلالته، وواضحاً في عبارته.

ولا شك أن القرآن يحمل هذين الوصفين على أتم وجه، فهو قطعي في دلالته، واضح في عبارته، من أوله إلى آخره.

وإن كان هناك من يقول: إنه قطعي الدلالة في بعضه، وظني الدلالة في بعضه، فليس ذلك إلا لركونه المفرط إلى التفسير بالمأثور، وزهده في تفسير القرآن بالقرآن، وقلة اهتمامه بنظم الآيات وسياقها، وروحها وأهدافها.

ومن نافلة القول أن السرّ في كون الآيات قطعية الدلالة أن لكل آية جوّها وسياقها، وهذا الجو وهذا السياق يحدد مراميها وأهدافها، ويبين مناسبتها ودلالتها.

وأما الأحاديث، فأمرها يختلف، حيث رويت وفيها فرق واختلاف في الألفاظ، وفيها نقص وزيادة في المحتويات، ولم تُرْوَ لنا مواقعُها ومناسباتُها إلا نادرا.

وباعتبار هذا الفرق والاختلاف في الألفاظ، وبسبب النقص والزيادة في المحتويات تختلف المفاهيم، وتختلف الدلالات، فكثيراً ما يعجز الباحث عن التوفيق بينها، ويعجز عن ترجيح ما يترجح منها، ويتردد في تحديد دلالاتها، وبالتالي يتحير في استنباط الأحكام منها.

فرواية واحدة يتمسك بها فريق، وينصرف عنها فريق، ويستنبط منها فريق حكماً، ويستنبط منها الآخرون حكماً يختلف عنه تماماً، وإذاً فلا بأس إذا قيل:

من الأحاديث ما هو ظنيّ الدلالة، ومنها ما هو قطعيّ الدلالة، بخلاف القرآن، فإنه كله قطعي الدلالة بسبب نظم آياته، وسياق مضامينه ومحتوياته؛ فإن نظم الكلام وسياق الكلام هو الذي يبيّن معنى الكلام، ويجعله واضحاً شاخصاً مثل فلق الصبح.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن قطعية الدلالة في الآيات لا تمنع المرونة، فالقطعية شيء، والمرونة شيء آخر، ومجالهما يختلف، فالقطعية تكون في بيان الحكم وأداء المعنى، والمرونة تكون في طبيعة القانون والشرع.



الأصل السادس

المعايشة الذاتيّة لكتاب الله

الأصل السادس من أصول التفسير هو التأمل الطويل، والمعايشة الذاتية لكتاب الله، مع إجادة استعمال أدوات الفهم والتدبر، وذلك قبل مراجعة كتب التفسير.

فليأخذ الباحث أُهبته، وليعدّ لمعايشة القرآن عُدّته، ثم ليتوكل على ربه، وليبدأ تجواله في آفاق القرآن مباشرة، وليغُصْ في أعماقه، وليبحث عن درره وفرائده، وليتضرع إلى الله دائماً من غير فتور، أو نسيان أن يصحبه في رحلاته، ويفتح عليه من كنوز كتابه، ويذلّل له ما قد يعترضه من صعوبات وعقبات في طريقه.

وليحذر كل الحذر أن يبدأ رحلته بكتب التفسير، فإنه إن فعل ذلك، و تَشَّبعَ بالآراء والأقاويل المأثورة أو غير المأثورة، قبل المكث على آيات الله، والمعايشة الذاتية لكتاب الله، أصبح بعيداً عن فهم مقاصد الآيات، على الرغم من اطلاعه الواسع على ما قيل ويقال في تأويل تلك الآيات، ووقع بعيداً من نور الحكمة، الذي يكون ثمرة طبيعية للتدبر والتأمل في كتاب الله.

قال الإمام الفراهي: إنك، قبل أن تفهم القرآن، تتهافت على الروايات، وفيها صحيح وسقيم، فيعلق بقلبك ما ليس له أصل في القرآن، وربما يخالف هدي القرآن، فتأخذ في تأويل القرآن إلى الروايات، ويلبس عليك الحق بالباطل.

فالسبيل السويّ أن تعلم الهدى من القرآن، وتبني عليه دينك، وبعد ذلك تنظر في الروايات، فإن وجدت ما كان شارداً عن القرآن في بادئ النظر، أولته إلى كلام الله، فإن توافقا قرّت عيناك، وإن أعياك الأمر، فتوقف في أمر الروايات، واعمل بالقرآن.[1]

والتأمل في الآيات، قبل مراجعة كتب التفسير، له عدة فوائد، منها ما ذُكر، ومنها ما يلي:

---

(١) الفراهي - التكميل في أصول التأويل، ص:٦٥ - ٦٦.

إذا مكث الباحث على الآيات مكوثاً، وتذوّقها تذوقاً مباشراً، قبل أن يحشو ذهنه بما قيل فيها، فربما تفتح له آفاق جديدة لمعاني الآيات، وهي قد تكون أصح مما سبق أن قيل في تأويلها.

وقد تكون إضافة مفيدة إلى ما قيل، مع صحة ما قيل.

وأما إذا احتشى الذهن بما قيل، فهو يتجمد عليه، ولا يتيسّر له أن يأتي بجديد، ولا يتيسّر له أن ينتبه للخطأ الذي ورثه ممن قبله.

وأما إذا كان الرجل لا يملك أدوات الفهم، وليست له باع طويل في اللغة وأساليبها، وليس عنده فقه لدقائقها، فلا أقل من أن يقيم على الآيات، ويعايشها بعد الاطلاع على آراء فحول المفسرين، حتى ترسخ المعاني في ذهنه، وحتى تنشأ عنده ملكة الفهم، وملكة التذوق لكتاب الله.

وهناك فريق من العلماء يسمون هذا المنهج «تفسيراً بالرأي» ويقولون: لا يجوز تفسير القرآن بالرأي، ويذكرون في التحذير عنه روايات وروايات، نذكر بعضها فيما يلي:

روايات التحذير عن التفسير بالرأي:

قال أبوعيسى: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ عَمْرٍو الْكَلْبِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ عَبْدِ الأَعْلَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ «اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

قَالَ أَبُو عِيسَى :هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.(١)

نقد الرواية:

هذه الرواية، التي رواها أبوعيسى، وقال عنها: «هذا حديث حسن» جاءت عن طريق سفيان بن وكيع بن الجراح الرواسي الكوفي، فمن هو؟ وما شأنه؟

---

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في الذي يفسر: ٤/ ٤٥/ ٢٩٥١.

قال ابن أبي حاتم: سألت أبا زرعة عنه فقال: لا يُشتغل به. قيل له: كان يكذب؟ قال كان أبوه رجلاً صالحاً. قيل له: كان سفيان يُتهم بالكذب؟ قال نعم.

وقال النسائي: ليس بثقة. وقال في موضع آخر: ليس بشيء.

وقال الآجري: امتنع أبو داود من التحديث عنه.

وقال ابن عدي: وانما بلاؤه أنه كان يتلقن ما لُقّن. ويقال: كان له ورّاق يلقّنه من حديث موقوف، فيرفعه. وحديث مرسل، فيوصله، أو يبدّل قوماً بقوم في الإسناد.[1]

وقال البخاري: يتكلمون فيه لأشياء لقّنوه إياها.

وقال أبو زرعة: يتهم بالكذب.[2]

وأما سويد بن عمرو الكلبي، الذي روى عنه سفيان بن وكيع، فهو سويد بن عمرو الكلبي أبو الوليد الكوفي العابد، قال عنه ابن حبان: كان يقلب الأسانيد، ويضع على الأسانيد الصحاح المتون الواهية.[3]

رواية أخرى:

وهناك رواية أخرى أوردها الطبراني في معجمه، قال:حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن الْعَبَّاسِ الْمُؤَدِّبُ، وَالْحَسَنُ بن الْمُتَوَكِّلِ الْبَغْدَادِيُّ، قَالا: حَدَّثَنَا سُرَيْجُ بن النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بن أَبِي حَزْمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ.[4]

ونفس الرواية رواها أبوداود في سننه، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمُقْرِئُ الْحَضْرَمِيُّ حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بْنُ مِهْرَانَ - أَخُو حَزْمٍ الْقُطَعِيِّ - حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ عَنْ جُنْدُبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- «مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ

---

(١) تهذيب التهذيب: ٤/ ١٠٩-١١٠.

(٢) ميزان الاعتدال:٢/ ١٧٣.

(٣) تهذيب التهذيب: ٤/ ٢٤٤.

(٤) المعجم الكبير للطبراني: ٢/ ٢٢٣/ ١٦٥٠- والترمذي: ٤/ ٤٦/ ٢٩٥٢.

اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ».[1]

نقد الرواية:

ومما لا يخفى أن الروايتين جاءتا عن طريق سهيل، فمن هو؟

هو سهيل بن أبي حزم، واسمه مهران، ويقال عبد الله القطعي، أبو بكر البصري. قال عنه حرب عن أحمد: روى أحاديث منكرة.

وقال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلمون فيه. وقال مرة: ليس بالقوي عندهم.

وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديثه، ولا يحتجّ به. وأخوه حزم أتقن منه.

وقال النسائي: ليس بالقوي.

قال ابن حجر: وقال ابن حبان: يتفرد سهيل عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات. سمعت الختلي يقول: سمعت أحمد بن زهير يقول: سئل ابن معين عن سهيل أخي حزم فقال: ضعيف.[2]

ثم الراوي عن سهيل بن أبي حزم في رواية الطبراني، سريج بن النعمان، قال عنه أبو داود: ثقة غلط في أحاديث.[3]

وقال أبو عبيد الآجري عن أبي داود: ثقة، حدثنا عنه أحمد بن حنبل، غلط في أحاديث.[4]

والراوي عن سهيل عند أبي داود، يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمُقْرِئُ الْحَضْرَمِيُّ، وهو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي مولاهم أبو محمد المقري النحوي البصري. قال عنه ابن سعد: ليس هو عندهم بذاك الثبت، يذكرون انه

---

(١) سنن أبي داود، باب الكلام في كتاب الله: ٣/ ٣٥٨/ ٣٦٥٤.

(٢) تهذيب التهذيب:٤/ ٢٢٩/ ٤٦٠.

(٣) ميزان الاعتدال: ٢/ ١١٦/ ٣٠٨٤.

(٤) تهذيب الكمال للمزي: ٣/ ٣٣٠/ ٢٦١١.

حدّث عن الرجال، لقيهم وهو صغير.[1]

ولقد روى النسائي أيضاً تلك الرواية بنفس السند، وقد رأينا ما فيه من ضعف ووهن، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي قال: حدثني سهيل بن مهران القطعي، قال: ثنا أبوعمران الجوني عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ.[2]

فالذي نلاحظه في تلك الرواية، في جميع مصادرها، أنها ما جاءت إلا عن طريق ناس لا يُوثَقُ بهم، فهل نتصامم من أجلها عن تلك الآيات التي تدعونا بكل إصرار وتأكيد إلى الاشتغال بالقرآن، وتدبر آياته؟ مثل قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

تدبر القرآن واجب شرعي:

فالاشتغال بالقرآن، وتدبر آياته واجب شرعيّ، ومطلوب من الجميع، وليس لنا أن نحصره في ناس دون ناس، من غير دليل.

وتدبر القرآن ليس معناه الذهول عن أصل القرآن، والاشتغال بما قيل ويقال في تأويل الآيات، أو في تفسير الكلمات، أو في شرح المفردات، أو في سبب نزول الآيات، وكفى.

وإنما هي الإقامة الواعية الخاشعة على نفس الآيات بدون حجاب أيّ حجاب، والمكث الطويل المباشر في رحاب القرآن، كما كان يفعله أصحاب رسول الله، صلوات الله عليهم جميعا.

الممنوع هو التفسير بغير علم:

ورسول الله، عليه السلام، لم يمنع من التفسير بالرأي أبداً، وإنما نهى عن التفسير

---

(١) تهذيب التهذيب: ١١/ ٣٣٥/ ٦٤٤.

(٢) سنن النسائي الكبرى، رقم الحديث: ٨٠٨٦.

بغير علم كما ورد في كثير من الروايات، فقد روى الترمذي، قال:

حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلَانَ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الأَعْلَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ قَالَ رَسُولُ الله- ﷺ - «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.[١]

والتفسير بالرأي شيء، والتفسير بغير علم شيء آخر.

التفسير بغير علم، هو القول على الله بغير علم، أو القول في القرآن بدافع الهوى.

وأما التفسير بالرأي، فهو التدبّر الذي يحبه الله من عباده، والذي أُنزِل القرآن لأجله. والذي يفتح على الباحث آفاقاً جديدة من المعاني والحكم، والذي يملأ يديه بكنوز وفرائد لا تخطر على قلب من لا يعايشه، ولا يتدبره.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا كثيرة.[٢]

الأصل في «الرأي» هو العلم دون الهوى:

والعرب لم يطلقوا كلمة «الرأي» بمعنى الهوى، أو القول بغير علم، وإنما أطلقوها على ما ينتجه التأمل البصير والتفكير المنير، وقالوا: آفة الرأي الهوى.[٣]

= وقالوا: بنت الفكر الرأي.[٤]

= ومن أشعارهم في شأن الرأي:

---

(١) سنن الترمذي:٤/ ٤٥/ ٢٩٥٠.

(٢) مصنف عبدالرزاق :١١/ ٢٥٥/ ٢٠٤٧٣- وتفسيرالبغوي:١/ ٤٦، دارطيبة للنشر والتوزيع، طبعة رابعة ١٤١٧هـ.

(٣) جمهرة خطب العرب، خطبة أكثم بن صيفي: ١/ ٣٠٥.

(٤) جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري: ١/ ٣٨.

إذا كنت ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تترددا[1]

= ومن أمثالهم: الرأي نائم، والهوى يقظان.[2]

= رأي كالسهم أصاب غرة الهدف.

= لا يضع رأيه إلا مواضع الإصابة.

= له رأي لا يخطىء شاكلة الصواب.

= آراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب.

= له رأي لا تغيب كواكبه.

= فلان يرى بأول رأيه آخر الأمر.[3]

= وقالوا: نفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب.[4]

هذا هو الرأي عند العرب، فالرأي عندهم عبارة عن غزارة العلم وكمال الفهم، ونضوج الفكر، وشدة المراس، وكثرة التجارب، ومن هنا إذا قيل: «أهل الرأي»، أو «ذووالرأي» فالمراد به: الخيار، دون الأشرار، وأولو الأحلام والنهى، دون أهل الخرافات والأهواء.

قال أكثم بن صيفي، وهو يدعو قومه إلى الإسلام:

«وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه».[5]

وكتب سيدنا عمر الفاروق إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص، وهو في موقع من

---

(١) جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري: ٢/ ٤٥.

(٢) جمهرة خطب العرب، أمثال أكثم بن صيفي: ١/ ٤٩.

(٣) أبومنصور الثعالبي، سحرالبلاغة وسرالبراعة، تحقيق: عبدالسلام الحوفي، باب التقى والزهد: ١/ ٦٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، نصيحة أكثم بن صيفي لقومه: ١/ ٤٧.

(٥) جمهرة خطب العرب، خطبة أكثم بن صيفي يدعو قومه: ١/ ٢٦١.

مواقع الحرب مع الفرس:

«وتَنَقَّ للطلائع أهلَ الرأي والبأس من أصحابك»[1]

وإذا كان الرأي ابن الفكر الناضج والفهم السليم، فكيف يمنع رسول الله من التفسير بالرأي؟ وكيف يفهم القرآن من ليس له نصيب من الرأي؟

قول في غاية النكارة!

وإن تعجب، فعجب قولهم: إن الذي أنزل عليه القرآن، أيضاً ما كان يفسر القرآن برأيه، واستندوا في ذلك إلى ما رووا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. قال أبو يعلى:

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا مَعْنُ الْقَزَّازُ، عَنْ فُلانِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ هِشَامِ ابْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يُفَسِّرُ شيئاً مِنَ الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، إِلا آيَا بِعَدَدٍ، عَلَّمَهُنَّ إِيَّاهُ جِبْرِيلُ.[2]

قال الهيثمي، صاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بعد ما روى هذه الرواية:

«رواه أبو يعلى والبزار بنحوه، وفيه راوٍ لم يتحرر اسمه عند واحد منهما، وبقية رجاله رجال الصحيح».[3]

وإذاً، فالرواية فيها تدليس واضح، وهذا التدليس ينمّ عما وراءه، فما كان معن ليخفي اسم شيخه بدون سبب. وهذا التدليس وحده، يكفي للانصراف عن هذه الرواية.

زد إلى ذلك أن هشام بن عروة، الذي تفرد بهذه الرواية قد اختلط وتغير، وحينما صار إلى العراق، انبسط في الرواية، وأرسل عن أبيه أشياء، مما كان قد سمعه من غير أبيه عن أبيه.[4]

---

(١) نفس المصدر: ١/ ٩٤.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، رقم الحديث: ٤٥٢٨ .

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، محقق: ٦/ ٣٣١.

(٤) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١١/ ٣٧/ ١٢.

فهل نقبل تلك الرواية، على علّاتها، ونقول بناء عليها: إن رسول الله ما كان يفسر القرآن برأيه؟

وإذا لم يفسر القرآن برأيه، فكيف يقوم بمهمة التبيين، التي كان مأموراً بها من عند الله؟

وإذا لم يفسر القرآن برأيه، فكيف كان يقضي بين الناس؟ وكيف كان يجتهد إذا حدث حادث، أو جَدَّ جديد، أو ثارت مشكلة بين الناس؟ وكيف كان يتغلب على تلك المشاكل التي يواجهها في بناء الأمة، وتأسيس الدولة؟

خُطّة مدبّرة!

وإذاً، فما هذه الغارة الشعواء على التفسير بالرأي؟!

أليست هذه الجهود المكثّفة لصرف الناس عن تدبر القرآن؟

وإذا كان الأمر كذلك، فهل يشك عاقل في كونها خطة مدبرة من الأعداء؟

ومن كان يشك في ذلك، فلينظر إلى ما رووه من هذا النوع.

قال ابن كثير: روى ابن أبي حاتم، قال: حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي - سنة خمس وخمسين ومائتين - حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزي، حدثنا مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢] قال رسول الله: «يا جبريل، ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟» فقال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تَحَرَّمتَ للصلاة، ارفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة،

وقال الآجري عن أبي داود: لما حدث هشام بن عروة بحديث ام زرع، هجره أبو الأسود، يتيم عروة. وقال العقيلي: قال ابن لهيعة: كان أبو الأسود يعجب من حديث هشام عن أبيه، وربما مكث سنة لا يكلمه! قال أبو الاسود: لم يكن أحد يرفع حديث أم زرع غيره. وقال أبو الحسن بن القطان: تغير قبل موته. (تهذيب التهذيب :١١/ ٤٦).

وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة».

وهكذا رواه الحاكم في المستدرك، من حديث إسرائيل بن حاتم، به.[1]

فهل يشك عاقل بعد هذه الرواية وأمثالها، في صحة ما قلنا، من أن الأعداء هم الذين وضعوا مثل تلك الروايات؟ وكان اهتمامهم كله منصبّاً على منع الناس من تدبر القرآن، وفهم رسالته.

وأيّ شيء أجدى لتحقيق هذا الغرض من أن يوهموا الناس أن الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً ما كان يحسن فهمه، وكان يخطئ أحياناً في فهم الآيات، فكان يعلمه جبريل، و يرشده إلى المعنى الصحيح؟!

وإذا كان رسول الله لا يحسن فهم القرآن، فمن أين لغيره أن يحسن فهمه!

ثم المعنى الذي ذكروه للآية على لسان جبريل، هو معنى غير سليم، وهو أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب ؛ فإن نَحْرَ الصدر: أعلاه، ونَحَرَه يَنْحَره كَمَنَعه نَحْراً بالفتح وتِنْحاراً بالكسر: أصابَ نَحْرَه. ونَحَرَ البَعيرَ يَنْحَرُه نَحْراً: طَعَنَه في مَنْحَره حَيْثُ يَبْدُو الحُلْقوم من أعلى الصدر.

هذا هو معنى النحر عند العرب، وأما المعنى الذي ورد في الرواية، فهو معنى غريب لا يوجد له شاهد في كلام العرب.

معان لا أصل لها في لسان العرب:

والذي ذكره أصحاب المعاجم في تفسير لفظ النحر من معان أخرى مثل ما قال الزبيدي: نَحَرَ الرجلُ في الصلاة: انْتَصَبَ ونَهَدَ صَدْرُه، وبه فَسَّر بعضُ قَولَهُ تَعالى: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ» أو نَحَرَ الرجلُ في الصَّلاةِ إذا وضعَ يَمينَه على شِمالِه. وبه فُسِّرت الآيَة. قال ابنُ سِيدَه: وأُراها لغةً شَرْعِيَّة.....

وقيل: أُمِر بوضعِ اليدِ على النَّحْرِ. قلتُ: وقال ابنُ القَطَّاع: نَحَرَ الرجلُ: قامَ في

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الكوثر، ٨/ ٥٠٣.

الصلاة فرفعَ يَدَيْه عند ذلك. أو نَحَرَ: انْتَصَبَ بنَحرِه إزاءَ القِبْلَة ولم يَلْتَفِت يَميناً ولا شِمالاً. وقال الفَرَّاءُ في معنى الآية: أي استَقْبِلْ القِبْلَةَ بنَحْرِك. وقال ابْن الأَعْرابيّ: النَّحْر: انتِصابُ الرجلِ في الصلاة بإزاء المِحْراب. وقال في البَصائر: وقيل: فيه حَثٌّ على قَتْلِ النَّفْس بقَمعِ الشَّهوة وكفِّ النَّفسِ عن هواها. فحاصِلُ ما ذُكِر من الأقوال سَبْعَةٌ، وزاد الصَّاغانِيّ فقال عن قوم: وانْحَر أي استقبِلْ نَحْرَ النهار أي أوّله. فصارتْ الأقوالُ ثمانيةً.(١)

فتلك معان لم يَسْتقُوها من معين اللغة، ولم يرجعوا فيها إلى ديوان العرب، وإنما استقوها من كتب التفسير، كما هو واضح من كلام الزبيدي.

وعفا الله عن المفسرين رحمهم الله حيث لم يظهروا الجدّ في تحقيق معنى الكلمة، وركنوا إلى معان لا أصل لها، زاعمين، أو واهمين أنها من تعليم جبريل، وأيّ معنى يكون أصح مما علّمه جبريل؟ فلنغضّ الطرف عن غيره، ولنعضّ عليه بالنواجذ!

وبذلك رمى الأعداء عصفورين بحجر واحد! حيث أساؤوا إلى شخصية رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، وفي نفس الوقت ضلّلوا الناس عن فهم معنى الآية!

ظلمات بعضها فوق بعض!

ثم الرواية التي رواها البيهقي والحاكم، ليس سقمها من ناحية المتن فقط، بل هي سقيمة من ناحية السند كذلك، ويكفيك لاستيعاب الموقف تعليق ابن حبان على الرواية، حيث قال:

إسرائيل بن حاتم المروزي، أبو عبد الله.... روى عن مقاتل الموضوعات والأوابد والطامات، من ذلك خبر يرويه عمر بن صبح، عن مقاتل، وظفر به إسرائيل فرواه عن مقاتل عن الاصبغ بن نباتة، عن علي: لما نزلت ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: يا جبريل، ما هذه النحيرة؟ قال: يأمرك ربك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا

---

(١) تاج العروس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري: نحر.

كبرت، وإذا ركعت وإذا رفعت من الركوع..الحديث.[1]

وقال في موضع آخر: «هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه، وهذا خبر رواه عمر بن صبح، عن مقاتل بن حيان، وعمر بن صبح يضع الحديث فطفر عليه إسرائيل بن حاتم فحدث به عن مقاتل».[2]

فتلك الرواية إذاً من الطامّات، حيث رواها وضّاع عن وضّاع! فهي ظلمات بعضها فوق بعض!

وما من شك في أن تلك الجهود المشئومة كانت لها آثارها السيئة، حيث صرفت أجيالاً من المسلمين عن تدبر القرآن، والتأمل في آياته، والتشبع بروحه، وإشراقه! فأصبح القرآن في واد، ونحن في واد! والعياذ بالله.

فالحق أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يمنعنا من التفسير بالرأي، ولا السلف الصالحون، وإنما منعوا من التفسير بالهوى، فالتبس الأمر على فريق من الناس، وظنوا التفسير بالرأي هو التفسير بالهوى.

وآخرون تعمدوا أن يُلبِّسوا على الناس أمرهم، ويصرفوهم عن كتاب ربهم، والله حسيبهم.

حكايات ليس لها أصل!

وأما ما ذكروا عن بعض السلف أنهم تحرجوا عن التفسير بالرأي، مثل ما رووا عن سيدنا أبي بكر أنه قال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله برأيي!

ورووا عن سعيد بن المسيب، أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام، تكلم. وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع شيئاً!

---

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال: ١/ ٢٠٨.

(٢) كتاب المجروحين، ابن حبان، تحقيق: محمود إبراهيم زايد: ١/ ١٧٨.

ورووا عن الشعبي، أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي»

ورووا عن ابن مجاهد، قال: قال رجل لأبي: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبي، ثم قال: إني إذاً لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، ورضي عنهم.

ورووا عن الأصمعي أنه إذا سئل عن معنى شيء من القرآن أو السنة، يقول: «العرب تقول: معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة، أي شيء هو؟

ورووا عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبدالله، فسأله عن آية من القرآن، فقال: أُحرِّجُ عليك إن كنت مسلماً لما قمتَ عني، أوقال: أن تجالسني.

ورووا عن محمد بن سيرين، أنه قال: سألت عبيدة السماني عن آية من القرآن، فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد.

ورووا عن مسروق أنه قال: اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية عن الله.[1]

فتلك الروايات وأمثالها لا تزيد على أن تكون حلقات من تلك السلسلة الكاذبة، التي أعدّت بكل لباقة ومهارة لصرف المسلمين عن كتاب ربهم، بإدخال هيبته في قلوبهم، وتيئيسهم من فهمه.

ولسنا نرى تلك الأقوال لمن نسبت إليهم، وإنما أُلصقت بهم إلصاقاً، بعد ما سكتوا للأبد، وصاروا غير قادرين على ردّها وتكذيبها، ولو استطاعوا اليوم أن يرجعوا إلى الدنيا، ويتبرّؤوا مما أُلصق بهم، لرأيت من أمرهم عجباً!

ولقد سبق أن ضربنا أمثلة لكذب الرواة على رسول الله وأصحابه، ولا نحب أن تطول صحبتنا مع قوم لم ينصحوا لديننا، ولم يخدموا كتاب ربنا، وما زادونا غير تخسير.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مقدمة التفسير، تفسير القرآن بمجرد الرأى حرام: ١٣/ ٣٧٣-٣٧٤، و(في علوم القرآن)، للأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، ص: ٢٥٩-٢٦٠.

والذي قدمناه فيه كفاية للذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه.

تعليم القرآن مسؤولية في أعناق العلماء:

وإلاّ، فهل خفي على هؤلاء العلماء الأفذاذ، قول نبيهم عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1]

وهل خفي عليهم أن تعليم القرآن كان من واجبات رسول الله وأصحابه، حيث قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وبعد ما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى، وبعد ما ذهب أصحابه البررة إلى الفردوس الأعلى، وقعت المسؤولية في أعناق من تبعهم من علماء الأمة، فلا مناص لهم من أدائها. والتقوى والتورع كله في إبلاغ هذه الرسالة، وأداء تلك المسؤولية، ومن تخلى عن أدائها، وقعد عن إبلاغها، فلا ورع عنده، ولا تقوى، حتى ولو كان ليله قائماً، ونهاره صائماً!

ونحن نحسن الظن بسلفنا الصالحين، ونجلّهم ونكرمهم، ونحسبهم برآء من كل ما أُلصق بهم، فإنهم كانوا عند المسؤولية، وكانوا خير خلف لخير سلف، ولا نزكّي على الله أحداً.

رواية لا تخلو من خلط وإلحاق!

ونرى بعض الروايات جمعت «القول بالرأي» مع «القول بغير علم»، وجعلتهما شيئاً واحداً، مثل ما روى النسائي، قال:

---

(١) صحيح البخاري، باب: خيركم من تعلم القرآن، ٣/ ٤٢٧/ ٥٠٢٧.

أخبرنا محمد بن بشار قال ثنا يحيى قال ثنا سفيان قال ثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار»[1].

ولا يبعد أن يكون لفظ: (برأيه) في الرواية من إلحاقات بعض الرواة، وإلاّ فأصل الرواية:

«من قال في القرآن بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار».

ومحمد بن بشار المعروف بـ «بندار» روى هذه الرواية عن يحيى. وقال عبدالله بن محمد بن سيار: سمعت عمرو بن علي يحلف: أن بنداراً يكذب فيما يروي عن يحيى.[2]

وقد روى البغوي نفس الرواية بغير تلك الزيادة، فقال: أنا أبومنصور محمد ابن عبد الملك المظفري أنا أبوسعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه أنا أبوعبد الله الحسين بن الحسن البصري ثنا أبوالفضل العباس بن محمد الدوري أخبرنا يحيى بن حماد ثنا أبوعوانه عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال:

«من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[3]

---

(١) السنن الكبرى للنسائي: ٨٠٨٥.

(٢) وقال عبدالله بن علي بن المديني: سمعت أبي وسألته عن حديث رواه بندار عن ابن مهدي عن أبي بكر ابن عياش عن عاصم عن زر عن عبدالله عن النبي ﷺ، قال: تسحروا؛ فإن في السحور بركة. فقال: هذا كذب. وأنكره أشد الانكار، وقال: حدثني أبو داود موقوفا. وقال عبدالله بن الدورقي: كنا عند ابن معين، وجرى ذكر بندار، فرأيت يحيى لا يعبأ به، ويستضعفه، قال: ورأيت القواريري لا يرضاه، وكان صاحب حمام (تهذيب التهذيب: ٩/ ٦٢). وقال ابن حبان: معدي بن سليمان: شيخ من أهل البصرة، يروى عن ابن عجلان، روى عنه بندار وأهل البصرة، كان ممن يروى المقلوبات عن الثقات، والملزقات عن الاثبات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. (كتاب المجروحين لابن حبان: ٣/ ٤٠). وإذا كان بندار يروي عن معدي بن سليمان، مع أنه يروي المقلوبات عن الثقات، والملزقات عن الأثبات، فماذا بقي فيه حتى يقال؟

(٣) أخرجه أحمد، رقم الحديث: ٢٠٦٩. والترمذي في التفسير - باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه:

سدّ منيع دون التفسير بالهوى:

وعلى أية حال، فالروايات التي جاءت تحذّرنا التفسير بالرأي، وتسوّي بينه، وبين التفسير بغير علم، فيها ضعف شديد، وهي أقرب إلى الكذب، منها إلى الصدق، ولعلها من المحاولات المشؤومة، المكثّفة التي بُذلت من قِبل الأعداء لإبعاد الناس من كتاب الله.

وكثير من العلماء لم ينتبهوا لكيد الأعداء، وتلقفوا تلك الروايات، وكأنها كنز ثمين!

فلنعلم أن المحظور في التفسير، هو التفسير بالهوى، الذى هوى فيه أهل الأهواء.

وأما التفسير بالرأي فهو شيء مطلوب، و مندوب، بل هو من أوجب الواجبات؛ فإنه هو الطريق الوحيد لربط الأمة بالقرآن، وهو العلاج الناجع لغائلة التفسير بالهوى، فحينما منع التفسير بالرأي، خلا الجوّ للتفسير بالهوى، فباض وصفر! وفشا وانتشر!

وليس للتفسير بالمأثور أن يسدّ الطريق على التفسير بالهوى، فإن المأثور قد اختلط بغير مأثور، دخلت فيه الإسرائيليات، ودخلت فيه الموضوعات، ودخلت فيه الغرائب، ودخلت فيه المناكير، والتبست به، و التحمت، حتى تمكّنت، واستقلّت، حتى أعيت صيارفة الجرح والتعديل، أن يشخّصوها، وينقشوها، ويعيدوا إلى المأثور صفاءه ونقاءه.

كلمة موزونة لأحمد فرحات:

قال أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات، وهو يميط اللثام عن حقيقة التفسير بالمأثور:

«يرى كثير من الباحثين أن التفسير بالمأثور قد تعرض إلى الضعف نظراً لكثرة الوضع على الثقات من المفسرين كابن عباس، وعلي، وابن مسعود، وأن الدوافع السياسية، والعصبيات، والأهواء كانت وراء ذلك، كما أن ذيوع الإسرائيليات،

٤/ ٤٥/ ٢٩٥٠، وقال: هذا حد يث حسن صحيح. وتفسير الطبري: ١/ ٧٨، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١/ ٢٥٧، وقال: هذا حديث حسن.

وتساهل بعض العلماء، في روايتها ضمن تفاسيرهم قد ساهم أيضاً في عدم الثقة بالتفسير بالمأثور، فإذا وصل الأمر إلى حذف الأسانيد، أصبح الأمر في غاية الظلمة.

ومن هنا روي عن الإمام أحمد قوله: «ثلاثة لا أصل لها: التفسير، والمغازي، والملاحم». وذلك إشارة إلى كثرة الموضوع فيها، حتى إن الصحيح لا يكاد يتبين نظراً لكثرة الموضوع، وغلبته».[1]

وليس هناك من شطط، حين نقول: إن هذا المأثور المشوب بغير المأثور أصبح مورداً عذباً لأهل الأهواء، وهو الذي غذّى التفسير بالهوى، حتى عظم خطبه، وتفاقم أمره.

وأما التفسير بالرأي، فهو لا يقبل المأثور على علاّته وفظائعه، بل يميز الخبيث من الطيب، ويميز السقيم من السليم، ويحكّم في هذا المَيز القرآنَ نفسه. وإذا كان القرآن هو الحَكَم، فهو يميز ويفصل بكل دقّة، ويضع كل شيء في مكانه، ويعيد الأمر إلى نصابه.

لا بد من تصحيح المفهوم الخاطئ:

وإذاً، فلا بد من تصحيح المفهوم الخاطئ للتفسير بالرأي، الذي وقر في الأذهان، وسارت به الركبان؛ فإنه صار حجاباً دون فهم القرآن وتذوقه.

فالناس أمسكوا عن إعمال الرأي في الآيات، حذراً من أن يقعوا في المحذور، وقنعوا بأقاويل الناس في تأويلها، سواء اقتنعوا بها، أم لم يقتنعوا، والذين لم يقتنعوا بها، وجدوا الطريق أمامهم مسدوداً، فيئسوا من فهمها؛ فإن الصحيح المأثور في التفسير نزر يسير، وغير الصحيح ليس من شأنه أن يسمن، أو يغني من جوع.

والصحيح المأثور قد غشيه من الموضوعات، والإسرائيليات ما غشيه! فليس من السهل العثور عليه.

فكم يقع الناس في الإسرائيليات، وهم ينكرونها !

وكم يُخدعون بالموضوعات، وهم يتبرؤون منها !

---

(١) أحمد حسن فرحات، «في علوم القرآن» : ٢٥٣-٢٥٤.

وتلك الأسفار الضخام في التفسير، التي وضعها عمالقة المحدثين وفحول المفسرين، خير شاهد على ما نقول، فـ «اللتيّا» و«التي» كلها دخلت فيها، وتمكنت منها!

فالموجود من التفسير المأثور، الذي التبس فيه الحابل بالنابل، لا يعطي الدارس فهماً لكتاب الله.

والتأمل المباشر في كتاب الله هو الذي يفتح على الإنسان من علومه، ويملأ كفيه بكنوزه، ويمنحه نوراً يمشي به في الناس.

والمعايشة الذاتية لكتاب الله هي التي تجعل من الإنسان رجلاً قرآنياً، وتجعل من الناس جيلاً قرآنياً.

وأما العكوف على كتب التفسير دون الإقامة الطويلة الواعية على آي القرآن نفسها، فإنه يكون حجاباً دون كتاب الله. ويكون منه الباحث بمنزلة الأروى من النعام!

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل السابع
تصحيح مفهوم المحكم والمتشابه في القرآن

لا بد من تصحيح مفهوم المحكم والمتشابه في القرآن، فإن المفهوم الخاطئ للمحكم والمتشابه صار حجاباً دون فهم كثير من الآيات.

والأصل في هذا الموضوع هو قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

المحكم في رأي العلماء:

وفي المراد بالمحكم هنا ثمانية أقوال:

أحدها: أنه الناسخ. قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي في آخرين.

والثاني: أنه الحلال والحرام. روي عن ابن عباس ومجاهد.

والثالث: أنه ما علم العلماء تأويله. روي عن جابر بن عبد الله.

والرابع: أنه الذي لم ينسخ. قاله الضحاك.

والخامس: أنه ما لم تتكرر ألفاظه. قاله ابن زيد.

والسادس: أنه ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. ذكره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد، وقال الشافعي وابن الأنباري: هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً.

والسابع: أنه جميع القرآن غير الحروف المقطعة.

والثامن: أنه الأمر والنهي والوعد والوعيد والحلال والحرام. ذكر هذا، والذي

قبله القاضي أبو يعلى[1].

المتشابه في رأي العلماء:

وفي المتشابه سبعة أقوال:

أحدها: أنه المنسوخ. قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي في آخرين.

والثاني: أنه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة. روي عن جابر ابن عبد الله.

والثالث: أنه الحروف المقطعة كقوله ألم ونحو ذلك. قاله ابن عباس.

والرابع: أنه ما اشتبهت معانيه. قاله مجاهد.

والخامس: أنه ما تكررت ألفاظه. قاله ابن زيد.

والسادس: أنه ما احتمل من التأويل وجوهاً. وقال ابن الأنباري: المحكم ما لا يحتمل التأويلات ولا يخفى على مميز، والمتشابه الذي تعتوره تأويلات.

والسابع: أنه القصص والأمثال. ذكره القاضي أبو يعلى[2].

تلك الأقوال التي تُذكر عادة في تعريف المحكم والمتشابه. وحسبها أن أهل الزيغ لا تعلق لهم بنوع مما ذكر دون سواه.

آراء تشبه الخواطر:

ومما يلاحظ فيها أنها لا تعدو أن تكون خواطر خطرت ببال أصحابها، وليست لها أدلة ينظر فيها الرجل، ويطمئن إليها، أو يجري حولها النقاش والترجيح، ثم يقتنع بها.

ثم الباحث حينما ينظر في تلك الوجوه، لا يدري ما هو الشيء الذي كان يتبعه أهل الزيغ ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله؟ كما لا يدري ما هو الشيء الذي لا يعلم تأويله إلا الله؟

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تفسير سورة آل عمران، رقم الآية: ٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تفسير سورة آل عمران، رقم الآية: ٧.

والإمام ولي الله الدهلوي أيضاً أدلى بدلوه في الموضوع، فقال:

«ليعلم أن المحكم هو ما لا يدرك منه أهل اللغة إلا معنى واحداً.

والمعتبر هو إدراك العرب الأولين، لا إدراك المتفلسفين في عصرنا، الذين يشقون الشعرة، فإن شق الشعرة في غير محلها داء عضال، يجعل المحكم متشابهاً، والمعلوم مجهولاً.

والمتشابه هو ما احتمل معنيين، إما لسبب:

- احتمال رجوع الضمير إلى مرجعين، مثل أن يقول شخص: «أما إن الأمير أمرني أن ألعن فلاناً، لعنه الله»، فيحتمل أن يرجع الضمير إلى الأمير، أو إلى فلان.

- أو لاشتراك الكلمة في معنيين، مثل كلمة «لامستم» تأتي بمعنى الجماع، واللمس باليد أيضاً.

- أو لاحتمال العطف على القريب والبعيد، مثل قوله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) في قراءة الكسر.

- أو لاحتمال العطف والاستيناف، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ٧][(١)].

هذا ما قاله الدهلوي، وهو أيضاً لم يبنِ كلامه على دليل معلوم، ولم يبين أن الشيء الذي يحتمل معنيين كيف يوقع أهل الزيغ في الفتنة؟

وهل على المسلم حرج إن تأمل فيما احتمل معنيين، وحاول أن يتوصل عن طريق البحث والدراسة إلى الصحيح الراجح من الاحتمالين؟

فالذي قاله الدهلوي أيضاً لا يعدو أن يكون خاطرة خطرت بباله، مثل خواطر أسلافه، وظهرت مثلها على صفحات كتابه.

إذاً فلنرجع إلى القرآن، بدلاً من أن نهيم في واد، ثم في واد، ثم لا نعود في الأخير

---

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير، الفصل الخامس: ٨٢.

إلا بخفي حنين!

نعم، فلنرجع إلى آيات القرآن مباشرة، ولنتحسس فيها من بارقة تنوّر لنا الطريق إلى المعنى المراد بالمحكمات والمتشابهات، فكلما أحسنّا الظن بكتاب الله، ورجعنا إليه لحل معضلة، أو جلاء غمة، وجدناه عند حسن الظنّ. ووجدنا فيه ما قرّت به العينان، وأكثر، ولله الحمد.

لمحات من سياق الآيات:

فإذا أنعمنا النظر في سياق الآيات، وجدنا في نفس السورة قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١].

ثم إذا وقفنا عند هذه الآيات وقفة متأنية، وتدبرناها، وجدنا أنفسنا أمام عدة أسئلة:

- من الذين كانوا يحاجّون رسول الله من بعد ما جاءه من العلم؟

- ما الشيء الذي كانوا يحاجّون فيه؟ وماذا كان وراء تلك المحاجة؟

- لماذا قيل عن عيسى بالذات، إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ، ولماذا شُبّه خلقه بخلق آدم؟

- كيف اشتد هذا النقاش، واحتدّ حتى تحوّل إلى حِجاج ساخن، فشلت فيه محاولات الإقناع بالدليل، ووصل الأمر إلى الابتهال، ثم إرسال اللعنة على الكاذبين؟

فإذا تأملنا في تلك الأسئلة، وتأملنا في سياق تلك الآيات، وفي سياق الآية التي ورد فيها ذكر الآيات المحكمات والمتشابهات في مستهل السورة، وجدنا أنفسنا مدفوعين إلى القول بأن وجه الخطاب فيها إلى اليهود، ولا محالة، فاليهود هم الذين يخصّهم القرآن، ويَصِمُهم بزيغٍ في قلوبهم، دون سائر الناس، كما أن هناك قرائن أخرى

في السياق، تلحّ على صحة هذا الاتجاه.

فالفقرة الأولى من السورة، وهي الآيات الستّ الأولى، تركّز على تقرير ظاهرة التوحيد، وبالتالي على تقرير ملة الإسلام، فإن الإسلام هو دين التوحيد، والتوحيد هو جوهر الإسلام.

والآيات المقبلة تصوّر لنا كأن أعداء الإسلام في المدينة وما حولها - وعلى رأسهم اليهود - يستقبلون تلك الدعوة شر استقبال، وينثرون حولها الشبهات، وكأنّنا بهم يقولون:

أنموذج لاتِّباع المتشابه:

إذا كان هذا الدين دين التوحيد الخالص، فما بال قرآنه يزعم عن عيسى أنه خلق من غير أب؟ وهل يخلق بشر من غير أب؟ وكيف يمكن أن يخلق بشر من غير أب؟! هيهات هيهات أن يخلق بشر هذا الخلق!

وإن صح أن عيسى خلق من غير أب، فلا جرم أنه ليس بشراً، وإنما هو إله مع الله!

إذاً، فأين ميزة التوحيد، التي يزعمها القرآن لدين الإسلام؟

وما معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وما إلى ذلك؟ إن دعوى القرآن تنتقض على لسانه نفسه!

هذا أنموذج لاتباع اليهود ما تشابه من الكتاب، وعدولهم عن آياته المحكمات، فإن كون عيسى عبداً، وبشراً رسولاً، كان واضحاً وضوح الشمس في ريعة النهار، وكم من آية محكمة في القرآن تناولت تلك القضية، تناولاً جاداً، وبينته بياناً شافياً، إلا أن اليهود ما كانت تعنيهم تلك الآيات.

وإنما الذي كان يهمّهم ويشغل بالهم، هو أن عيسى كيف خلق من غير أب؟ وهل خلق أحد من غير أب؟ وما هي حقيقة هذا الخلق، إن صحّ أنه خلق من غير أب؟

فجاء الوحي يردّ على هذا السؤال:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

الردّكان واضحاً، شافياً، مقنعاً، فالذي قدر على أن يخلق آدم من غير أب وأم، هل يعجز عن خلق عيسى من غير أب؟ وإذا لم يكن آدم إلهاً حينما خلق من غير أب وأم، فكيف يكون عيسى إلهاً، إن خلق من غير أب؟

هم أرادوا أن يدركوا كُنْه هذا الحادث، ويعلموا تأويله، مع أن العقل البشري بجميع وسائله وإمكانياته، يعجز عن إدراكه، وعلم تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله.

وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة عند قوله تعالى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

تأويل الآية في ضوء سياقها:

لا بد من وقفة قصيرة هنا حتى نطمئن إلى صحيح مفهوم الآية، فإن فريقاً من العلماء تحيروا في أمرها.

قال صاحب «أضواء البيان» في تأويلها:

«قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ الآية. لا يخفى أن هذه الواو محتملة للاستئناف، فيكون قوله:

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾، مبتدأ، وخبره ﴿ يَقُولُونَ ﴾، وعليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده، والوقف على هذا تام على لفظة الجلالة.

ومحتملة لأن تكون عاطفة، فيكون قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾، معطوفاً على لفظ الجلالة، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله: (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) أيضاً.

وفي الآية إشارات تدل على أن الواو استئنافية لا عاطفة.

قال ابن قدامة في «روضة الناظر» ما نصه: ولأن في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه، متفرد بعلم المتشابه، وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، لفظاً ومعنى.

أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو، أما المعنى فلأنه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً.

ولأن قولهم: (آمَنَّا بِهِ) يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه سيما إذا تبعوه بقولهم: (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) فذِكْرهم ربهم ها هنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنه صدر من عنده، كما جاء من عنده المحكم.

ولأن لفظة أما لتفصيل المجمل فذكره لها في: (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) مع وصفه إياهم باتباع المتشابه (وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة، وهم الراسخون. ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل لأحد، فلا يجوز حمله على غير ما ذكرنا. اه من «الروضة» بلفظه.

ويزيد صاحب أضواء البيان، فيقول:

ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة، دلالة الاستقراء في القرآن أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبته لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ)، وقوله: (لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ)، وقوله: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، فالمطابق لذلك أن يكون قوله: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ)، معناه: أنه لا يعلمه إلا هو وحده كما قاله الخطابي وقال: لو كانت الواو في قوله: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) للنسق، لم يكن لقوله: (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)، فائدة، والقول بأن الوقف تام على قوله: (إِلَّا اللهُ)، وأن قوله: (وَالرَّاسِخُونَ)، ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا.

وممن قال بذلك: عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وابن مسعود، وأبي بن كعب، نقله عنهم القرطبي وغيره، ونقله ابن جرير، عن يونس، عن أشهب، عن مالك بن أنس، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء

وأبي عبيد.[1]

اتباع المتشابه ليس من دأب الراسخين:

فاختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم تأويل المتشابهات، دون أحد من خلقه، هو القول الصحيح الراجح، وأما الذين ذهبوا إلى الوجه الآخر، وقالوا إن الراسخين في العلم أيضاً يعلمون تأويل المتشابهات، فليس ذلك إلا لأنهم لا يحملون فكرة واضحة عن المتشابهات، وعن تأويل المتشابهات.

واتباع المتشابهات ليس من دأب الراسخين في العلم. وحسبنا لاستيعاب الموقف ما قاله الإمام النووي، حيث قال في شرح مسلم، تأييداً لهذا الرأي الثاني:

«واختلف العلماء في الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه وتكون الواو في (والراسخون) عاطفة أم لا، ويكون الوقف على (وما يعلم تأويله إلا الله) ثم يبتدئ قوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) وكل واحد من القولين محتمل، واختاره طوائف، والأصح الأول، وأن الراسخين يعلمونه؛ لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته، وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد والله أعلم».[2]

فلا بد إذاً من بيان مفهوم تأويل المتشابهات، وهذا يقتضي أن نعرف أوّلاً معنى التأويل.

معنى التأويل:

قال ابن فارس في بيان معنى التأويل:

«ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]. يقول: ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.

وقال الأعشى:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ١/ ١٩٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم،باب النهي عن اتباع متشابه: ٨/ ٢٢٥.

على أنّها كانَتْ تأوّلُ حُبّهـــا   تأوُّلَ رِبعِيِّ السِّقابِ فأصحبا

يريد مرجعَه وعاقبتَه. وذلك مِنْ آل يَؤُولُ».[1]

وقال محمد الأمين الشنقيطي:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾، يحتمل أن المراد بالتأويل في هذه الآية الكريمة: التفسير وإدراك المعنى، ويحتمل أن المراد به: حقيقة أمره التي يؤول إليها، وقد قدمنا في مقدمة هذا الكتاب أن من أنواع البيان التي ذكرنا أن كون أحد الاحتمالين هو الغالب في القرآن، يبين أن ذلك الاحتمال الغالب هو المراد؛ لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر التي يؤول إليها كقوله: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] الآية، وقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾، إلى غير ذلك من الآيات[2].

وكان الشنقيطي موفقاً ودقيقاً في كلامه، إذ قال: الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر، التي يؤول إليها.

مفهوم المتشابه:

وأما المتشابه، فالناس تحيروا في معناه، وفيما أريد به في الآية، وكان الأزهري موفقاً في اختياره، إذ قال:

رُوي عن ابن عبّاس أنه قال: المتشابهات (الم) و(الر) وما اشتبه على اليَهود من هذه ونحوِها. قلت: وهذا لو كان صحيحاً عن ابن عباس كان التفسير مسلّماً له، ولكنّ أهلَ المعرفة بالأخبار وَهَّنوا إسناده.

وقال غيره: المتشابِهات هي الآيات التي نَزلتْ في ذِكر القيامة والبَعْث، ضَربَ

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: أوه.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ١/ ١٨٩.

قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ [سبأ: ٧-٨]. وضَرْبَ قوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات: ١٥-١٧] فهذا الذي تَشابَه عليهم، فأَعلمهم الله جلّ وعزّ الوجهَ الذي ينبغي أن يستدلّوا به على أنّ هذا المتشابه عليهم كالظاهر لو تدبَّروه، فقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩] إلى قوله: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس: ٨١]، أي: إذا كنتم قد أَقررتم بالإنشاء والابتداء فما تُنكرون من البَعْث والنَّشور؟

وهذا قولُ كثيرٍ من أهل العلم، وهو بيِّن واضح، وممّا يدلّ على هذا القول قولُه جلّ وعزّ: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ ﴾ [آل عمران: ٧] ، أي إنهم طلبوا تَأويل بَعْثِهم وإحيائهم، فأَعلم الله أنَّ تأْويلَ ذلك ووقتَه لا يَعلمُه إلاّ الله جلّ وعزّ. والدَّليل على ذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ ﴾ [الأعراف: ٥٣] يريد قيامَ الساعة وما وُعدوا من البَعْث والنَّشور. وهذا قولُ كثيرٍ من أهل العلم والله أعلم[1].

فالمتشابِهات هي الآيات التي نَزلتْ في ذِكر القيامة والبَعْث والنشور، كما ذهب إليه كثير من أهل العلم، وكما جنح له الأزهري.

ولا بأس بأن نوسع هذا المفهوم، ونضيف إليه، فنقول: كل الأمور الغيبية، التي ورد ذكرها في القرآن، من وقوع القيامة، والبعث، والحساب، ومن أحوال البرزخ، وأحوال الجنة والنار، وكل الأمور التي تعود إلى قدرة الله الخارقة، ومشيئته النافذة، والتي يعجز الإنسان عن إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها تدخل في المتشابهات، مثل خلق سيدنا عيسى من غير أب، ومثل واقعة الإسراء، حيث أسرى الله بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عاد به في فترة قصيرة، تحيلها العادة.

اتباع المتشابه ابتغاء تأويله:

فلو اتبع إنسان تلك المتشابهات، يبتغي تأويلها، فهل يقدر عليه؟ قال تعالى:

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، شبه: ٦/ ٥٨.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٥].

فلو أراد شخص أن يدرك كنه شجرة الزقوم، وأراد أن يعرف، كيف تنبت تلك الشجرة في وسط النار، أو في قعر الجحيم، فهل يقدر عليه؟

قال تعالى عن آل فرعون:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

فلو أراد شخص أن يدرك ما يجري مع آل فرعون، وأراد أن يعرف كيف يعرضون على النار غدواً وعشياً، وقد أكلتهم التماسيح، وأكلتهم دواب البحر، وبَدَنُ فرعون ما زالت تحتفظ به إحدى المتاحف في مصر، لو أراد شخص أن يعلم تأويله، فهل يقدر عليه؟

ذكر الله من أحوال أهل النار، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦].

فلو أراد إنسان أن يعلم حقيقة هذه الحياة، ويعرف كيف تستمرّ تلك الحياة في وسط النار، فهل يقدر عليه؟ وهل يجيز العقل البشري استمرار الحياة لناس تغشاهم النار من فوقهم، ومن تحت أرجلهم؟

ولا نريد أن نطيل، فالأمر أوضح من الواضح، والآيات المتشابهات في القرآن من هذا القبيل، فهي واضحة في لفظها وعبارتها، وواضحة في معانيها وأهدافها. ولكن ليس لأيّ إنسان أن يعلم تأويلها، ويدرك كنهها وحقيقتها؛ فإن العقل البشري عاجز عن التحليق في أجوائها.

ليس التشابه في لفظ الآية وعبارتها:

فلا يكون التشابه في لفظ الآية وعبارتها، وإنما يكون في كنه ما أخبرت به

وحقيقته، وتلك نكتة لطيفة تحتاج إلى بيان وإيضاح، فنقول:

إن لفظ «الآية» عبارة عن اللفظ والمعنى معاً، فقد يطلق لفظ الآية، ويراد به اللفظ والمعنى جميعاً، وقد يراد به لفظ الآية فقط، وقد يراد به معنى الآية فقط.

فحينما جاء في الآية: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

فـ«أخر متشابهات» لا يراد بها لفظ الآيات، فإن القرآن كله، بألفاظه وأساليبه، جاء بلسان عربي مبين، ولا يمكن أن يوصف القرآن بكونه عربياً مبيناً، إذا كان بعض ألفاظه، أو بعض أساليبه مفهومة، وبعضها الآخر غير مفهومة، أو غير واضحة عند أهل اللسان.

وإذاً فلا يراد بـ«أخر متشابهات» إلا مضامين الآيات، أو ما يتصل بمضامين تلك الآيات من كنهها، وحقيقتها، وكيفية وقوعها.

ولقد ضربنا أمثلة من القرآن، وفصلنا أن تلك الآيات واضحة في مضامينها، ولا يوجد فيها أي نوع من الغموض والخفاء، وإنما كنهها، وحقيقتها، وكيفية وقوعها، هي التي يعجز العقل البشري عن إدراكها، وهو ليس بحاجة إلى إدراكها، ولذلك جاء النكير على من يتّبعها.

إذاً، فليس لأيّ شخص أن يحكم على آية، أو مجموعة من الآيات أنها من المتشابهات، ثم ينصرف عنها، وينهى عن تدبرها، ومذاكرتها، والحديث عنها، ويُلزِم الناس بالإيمان والتصديق مع التفويض في شأنها، فنحن أُمرنا بتدبر القرآن كله، بدون أيّ استثناء، ولم نؤمر بالتفويض في شأن أيّ آية، قال تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فائدة هذا التفسير:

وهذا التفسير للمتشابهات يريحنا من كثير من المعضلات التي ارتبك فيها العلماء، وما زالوا يرتبكون فيها، ومن كان يحبّ أن يقدّر ما وقعت فيه الأمة من حيرة وارتباك في هذا الأمر، فلينظر فيما كتبه الفخر الرازي في تفسيره، حيث قال:

«واعلم أن هذا موضع عظيم فنقول: إن كل واحد من أصحاب المذاهب يدعي أن الآيات الموافقة لمذهبه مُحكَمة، وأن الآيات الموافقة لقول خصمه متشابهة، فالمعتزلي يقول: قوله ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] محكم، وقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] متشابه، والسنّيّ يقلب الأمر في ذلك فلا بد ههنا من قانون يرجع إليه في هذا الباب».[1]

هذا الوضع السيّىء، أو الواقع المرّ الذي يشكو منه الإمام الرازي،كان نتيجة طبيعية لذلك التفسير الخاطئ للمتشابهات، الذي درج عليه علماء التفسير. فالله سبحانه وتعالى لم يذكر المتشابهات، حتى نصنّف الآيات، فنجعل بعضها محكمات، والأخر متشابهات، ثم نعمل بالمحكمات، ونعطّل المتشابهات.

وإنما ذكرت المتشابهات في سياق قوم في قلوبهم زيغ، فهم يسخرون من كتاب الله، ويستهزؤون بأوامر الله، ويستهينون بقدرة الله، ولا يهمّهم من كتاب الله إلا ما يكون لهم أداة، ووسيلة للخوض في آيات الله، والتشكيك في نبوّة محمد بن عبد الله. وفي شأن هؤلاء جاء التحذير:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ثم تكرّر التحذير:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازي، سورة آل عمران، رقم الآية: ٧.

[النساء: ١٤٠].

وأما المؤمنون الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، وتذوقوا لذة القرآن فهم يرون القرآن كله محكماً، ويحرصون على فهم آياته آية آية، ويريدون أن يمتصّوها امتصاصاً، مثلما تمتصّ النحل الأزهار والثمار وأوراق الأشجار.

وإن استغلقت عليهم آية، ازدادوا تضرعاً واستكانة لربهم، وحملوه على عجزهم وقلة علمهم، وابتهلوا إلى الله أن يفتح عليهم من كنوز كتابه.

والذي ذكره الإمام الرازي من فعل أهل المذاهب، لا يزيد على أن يكون من التلاعب بكتاب الله، وهو من مخلفات المناظرات العقيمة بين مذاهب المسلمين، التي مُنيت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها، وكانت نتائجها وخيمة، وما زالت الأجيال، تلو الأجيال تذوق مرارتها، ووبال أمرها.

والواقع أن كلتا الآيتين من المحكمات، وليستا من التشابه في شيء. وكل ما جرى حولهما من ردود، ومناقشات، لم يكن له صلة بالقرآن، وكان إثمه أكبر من نفعه!

ردّ لا يقرّه القرآن!

وقال رحمه الله:

«اعلم أن من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به كل صاحب مذهب على مذهبه.

فالجبري يتمسك بآيات الجبر، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

والقَدَري يقول: بل هذا مذهب الكفار، بدليل أنه تعالى حكى ذلك عن الكفار في معرض الذم لهم في قوله ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وفي موضع آخر ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

وأيضاً مُثْبتُ الرؤية يتمسك بقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

والنافي يتمسك بقوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ومثبت الجهة يتمسك بقوله ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وبقوله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والنافي يتمسك بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم إن كل واحد يسمي الآيات الموافقة لمذهبه: محكمة، والآيات المخالفة لمذهبه: متشابهة، وربما آل الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية، ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجوع إليه في كل الدين إلى قيام الساعة هكذا، أليس أنه لو جعله ظاهراً جلياً نقياً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى حصول الغرض؟»(١)

ذكر الإمام الرازي تلك المطاعن، ثم ردّ عليها بأن أفاض القول في بيان فوائد المتشابهات، وعدّد لها أربعة وجوه، وبذلك أقرّ تلك المطاعن، وهو يزعم أنه ردّ عليها!

والواقع أن تلك الآيات كلها من المحكمات، وهي ظاهرة، جلية، نقية عن التشابه. والذين احتجوا لتبرير مواقفهم بتلك الآيات، وضربوا بعضها ببعض، أساؤوا، وظلموا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً! والقرآن براء مما فعلوا.

علمٌ ليس من مقاصد القرآن:

وعلم تأويل المتشابهات ليس من مقاصد القرآن، ولا من مطالب القرآن، ولا من معارف القرآن، فلا معنى إذاً لأن يقال، كما قال الإمام النووي:

«والأصح الأول، وأن الراسخين يعلمونه؛ لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته، وقد اتفق اصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه

---

(١) تفسير الفخر الرازي، سورة آل عمران، رقم الآية: ٧.

يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد، والله اعلم».[1]

فالله سبحانه وتعالى ما خاطب عباده بالمتشابهات، وإنما خاطبهم بالمحكمات، وقد أنكر على قوم أنهم اتبعوا المتشابهات لزيغٍ في قلوبهم، وأثنى على غيرهم، أنهم لرسوخهم في العلم، آمنوا بكل ما جاء من عند ربهم، ولم يتبعوا المتشابهات.

والمؤمن الخاشع الحريص على كتاب الله يهتم برسالة كتابه، وأهدافه، ولا يخوض فيما لا يعنيه في دنياه، ولا في آخرته.

وهو حينما يسمع مثل تلك الآيات يخاف ويرتجف، ويستعيذ بالله من عذابه، إن كان فيها ذكر العذاب، ويستبشر، ويطمئن إلى رحمة الله، إن كان فيها ذكر الرحمة، ويؤمن بأن كُلَّ ما أخبر به القرآن، فهو حق، وصدق، وليس عليه إلا أن يرضي ربه، ويحذر سخطه، ويسارع إلى جنته، ويفرّ من سعيره.

وأما الذين في قلوبهم زيغ، فهم الذين يسخرون من آيات الله، ويستكبرون عنها، وهم الذين يتبعون ما تشابه من الآيات، يبتغون تأويلها، ويبتغون فيها الفتنة.

ولقد سبق أن رأينا اليهود كيف تشبّثوا بقصة خلق عيسى من غير أب، يبتغون تأويلها، وحاجّوا فيها، وجادلوا حتى أدّى الأمر إلى الابتهال، ثم إرسال اللعنة عليهم.

عصفوران بحجر واحد!

ولم يكن الدافع إلى اتباع هذا الأمر المتشابه، أو الحادث المتشابه إلا ابتغاء الفتنة، فإن صنيعهم هذا قد تمخض عن شبهتين:

شبهة حول هذا الدين الجديد، الذي جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام.

وشبهة حول شخصية عيسى، الذي كانوا يحملون عليه الحقد منذ قديم.

وبذلك رموا عصفوران بحجر واحد، وأظهروا للناس أن الدين هو دينهم، ولا يضره، إذا كانت فيه شائبة الشرك، فإن الشرك لا يخلو منه أيّ دين، حتى هذا الدين الجديد، الذي ينادي بالتوحيد، ويتبرأ من الشرك!

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٨/ ٢٢٥.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن القرآن علل (اتباع المتشابه) بقوله (ابتغاء الفتنة) وهذا أيضاً يذهب بنا إلى القول بأن وجه الخطاب في تلك الآيات إلى اليهود، دون النصارى، فإن اليهود، إذ أثاروا هذه القضية، لم يكونوا يقصدون بذلك إلا أن ينثروا الشبهات حول هذا الدين الجديد، وينفّروا الناس عنه. وأنسب كلمة تنطبق على هذا الموقف السلبي، هي ابتغاء الفتنة.

بخلاف النصارى؛ فإنهم لو كانوا وراء هذه القضية، وأرادوا بذلك أن يدافعوا عن معتقداتهم - سواء حقا أو باطلا - فإن هذا لا يسمى ابتغاء الفتنة، وإنما هو جهل، أو شقاق، وما إلى ذلك.

وبالجملة، فإن فريقا من اليهود قابلوا دعوة الإسلام باتباع المتشابهات، دون المحكمات، وعارضوها بخبث التصرف وابتغاء الفتنة.

بينما الفريق الآخر منهم، وهم الراسخون في العلم، استقبلوها بكل حفاوة وحرارة، وبكل شوق ولهفة، كما قال تعالى:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٧-٩].

لا تشابه في الحروف المقطعات

ذكر أبوحيان، صاحب تفسير البحر المحيط، قائمة طويلة للأقوال التي قيلت في تأويل الحروف المقطعات، ثم قال:

«فانظر إلى هذا الاختلاف المنتشر الذي لا يكاد ينضبط في تفسير هذه الحروف والكلام عليها. والذي أذهبُ إليه: أن هذه الحروف التي في فواتح السور، هو المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وسائر كلامه تعالى مُحكَم. وإلى هذا ذهب أبو محمد علي بن أحمد اليزيدي، وهو قول الشعبي والثوري وجماعة من المحدثين، قالوا: هي سرّ الله في القرآن، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتُمَرُّ كما جاءت.

وقال الجمهور: بل يجب أن يُتكلَمَ فيها، وتُلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي

تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك الاختلاف الذي قدمناه».[1]

وقال الشوكاني:

«إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه، الذي قدمناه، فواتح السور؛ فإنها غير متضحة المعنى ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب ويعرف عرف الشرع ما معنى الم، المر، حم، طس، طسم، ونحوها، لأنه لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع فهي غير متضحة المعنى لا باعتبارها نفسها، ولا باعتبار أمرآخر يفسرها ويوضحها[2].

فالناس في شأن الحروف المقطعات فريقان:

فريق يئس من فهمها، وطواها على غرّها، واعتبرها من المتشابهات.

وفريق آخر تكلموا فيها، ولكن اختلفوا فيما بينهم اختلافاً شديداً، فتكاثرت الأقوال، وتراكمت، حتى قال الحافظ ابن حجر:

«وقد اختلف في هذه الحروف المقطعة التي في أوائل السور على أكثر من ثلاثين قولا، ليس هذا موضع بسطها».[3]

وتلك الكثرة الكاثرة من الأقوال لبّست على القارئ أمرها، حتى صعب عليه ترجيح الراجح وردّ المرجوح، وذلك لأن تلك الأقوال ما جاءت مصحوبة بقرائنها، مدعومة بأدلتها، وإنما جاءت غُفْلاً، وكأنها مجرد خواطر خطرت ببال أصحابها، من غير دليل يقوي أمرها، ويثبت وجاهتها.

قال السيوطي:

«وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد، ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم،

---

(١) أبو حيان الأندلسي، تفسيرالبحر المحيط: ١/ ٢٠.

(٢) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير: ١/ ٤٠٣.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب قوله سورة المؤمن بسم الله، ٨/ ٧١١-٧١٢.

ويصل منها إلى فهم».[1]

رأي الفراهي في الحروف المقطعات:

ولقد أدلى الفراهي دلوه في تأويل تلك الحروف، وأفاض فيها القول وأجاد، قال رحمه الله:

«وقد دلنا القرآن على أنها أسماء للسور، بما أشار بـ «ذلك» و«تلك» إليه. فإنه يشار بها عموماً إلى ما سبق، وسيأتيك بيانه. وهكذا دلت السنّة على كونها أسماء للسور.

ثم إنها مع كونها أسماء للسور، جزء من القرآن لرجع الإشارة إليها، فلا بد أن نقرأها مع ما بعدها من الآيات. وهي نزلت مع القرآن، فلا سبيل إلى تركها؛ فإن القرآن كله محفوظ، كما هو مبسوط في موضعه، وإنا مأمورون بقراءته».[2]

فيرى الفراهي أن الحروف المقطعات كلها أسماء للسور، وهو يستند في ذلك إلى القرآن، ويستشهد بنظم آياته، حيث تأتي تلك الحروف، ثم تأتي إليها الإشارة غالباً بذلك، وتلك، نحو قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١- ٢].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١-٢].

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦.

(٢) تفسير نظام القرآن، سورة البقرة، الفصل: ١١ ص:٥١.

ويرى الفراهي تلك الحروف جزءاً من القرآن، ولايستسيغ إهمالها في القراءة، خلافاً لمن ذهب إليه. وعمدته في ذلك هو القرآن.

وقال رحمه الله:

«قد تفكر العلماء في وجه التسمية بهذه الحروف، وذهبوا فيه كل مذهب، ووجدنا لهم فيه حسب ما اطلعنا تسعة وعشرين قولا، ولكني لم أجد فيها تمسكاً بالقرآن، فليس لها محل في كتابنا هذا، ولو لم يكن في القرآن إشارة إلى هذا الأمر لطويناه على غَرّه، ولكني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فاعلم أن العرب إذا وضعوا لشيء اسماً جديداً، عمدوا إلى ما يناسب المسمى، أو يدل على خاصة مميزة، كما ترى فيما لقبوا به بعض الرجال كالملك الضلّيل، والمرقّش، وتأبط شرّا، فإن الاسم من الوَسْم، فما يكون علامة يصلح للاسميّة.

وهكذا سميت بعض السور مثل الروم، والنمل، والبقرة، والعنكبوت.

وإذ قد ثبت أن هذه الحروف المقطعات أسماء للسور، فلا بد أن تكون الحروف ذوات المعاني، والمركبات من مثل الأسماء المركبة كمعدي كرب.

وقد علمنا أن أسماء الحروف في لسان العرب لم تكن في الأصل أسماء للأصوات المجرّدة، كما هي في الهندية والإنكليزية، بل كانت أسماء للأشياء وتماثيل لها، ولذلك بقي كثير منها ملفوظة بأسماء تلك الأشياء، ومكتوبة بهيئات فيها بقايا تماثيل تلك الأشياء، كما أن حروف أهل الصين بقايا تماثيل كانت حروفهم في الأوائل على هيئاتها.

وقد علمنا طرفاً من معاني أسماء حروفنا، مثلا (ألف) فإنها اسم البقرة، وكانت على صورة رأس البقرة، والباء، فإنها تسمى بالعبرانية (بيت) أى: البيت. والجيم فاسمها بالعبرانية (جيمل) أى: الجمل، وهكذا في الأُخر.

وهذا أمر ثابت معلوم لا يخفى على من له معرفة بتاريخ الكتابة العربية، فإنا نعلم أن حروفنا هذّبت من العبرانية، التي أخذت من حروف العرب القديمة، التي أخذ عنهم القبط الكتابة بالتماثيل التي توجد الآن على الأهرام المصرية، ولكنهم غيّروها، وابتدعوا فيها حسب أفكارهم.

ذلك، ثم قد دلنا القرآن على هذا السرّ بما قد سمّى سورة بحرف بقي في لسان العرب دالّا على معناه، وهو حرف «ن» فإنه الحوت، والسورة المسماة به جاء فيها ذكر يونس عليه السلام، ولم يذكر فيها غيره من الأنبياء، وذكره الله تعالى فيها باسم (صاحب الحوت)، ففي ذلك إشارة للمتوسم إلى وجه التسمية.

فإن كانت هذه السورة قد سميت بحرف «ن» لأجل معنى هذا الحرف، فعسى أن تكون السور الباقية المسماة بالحروف أيضاً قد سميت حسب معانيها الأولى.

وهذا يحثنا على النظر في المعاني التي كانت حروفنا دالة عليها في خط التمثال. فلما نظرنا فيها، وجدنا ما يؤيد هذا الرأي؛ فإن حرف «ط» صورته في العبرانية صورة الحية، ومعناه الحيّة، وكان على صورة حية، رفعت رأسها وذنبها، حتى صارت كالحلقة.

ونجد السورة المسمّاة ب(طه) تُبتدأُ بعد التمهيد بقصة موسى عليه السلام، وقلب عصاه حيّة.

ثم سبرنا هذا القياس طرداً وعكساً، فوجدنا أن السور الأخر التي سماها الله تعالى بأسماء تبتدأ بالطاء، أعني: «طسم» و«طس» تبتدأ بقصة موسى عليه السلام مع ذكر عصاه، وانقلابها حيّة.

وكذلك وجدنا أن غير هذه السور الأربع إما لا تذكر قصة موسى، وإما تذكرها، وهي كثيرة، فلا تذكر الحية إلا سورة الأعراف، ولكنها جاءت بقصة موسى عليه السلام تبعاً لقصص السابقين من الأنبياء من نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، فلم يكن حرف الطاء أولى بها.

فهذه السور كلها قد خُصَّت بموسى عليه السلام، ولست أول من جعل هذه السور مخصوصة بموسى عليه السلام، فإن بعض العلماء اطلعوا على طرف منه. فقال السخاوي: إن سورة طه تسمى «سورة الكليم»، وسماها الهذلي في الكامل: «سورة موسى»[1].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، فائدة في إعراب أسماء السور: ١/ ١٦١.

هذا، وأما (الم) فالألف صورة رأس البقرة، وكان هذا الحرف عندهم دالاً على الإله الواحد، ولم نجد السور التي تُبتدأُ أسماؤها بالألف، إلا ومن أعظم مطالبها الإيمانُ بالله الواحد، ولكن التوحيد أغلبُ تعليم القرآن، فهذا ليس مما يستدل به، وقصاراه أنه لا يخالف ما اطلعنا عليه.

وإني لا أدعي المعرفة بجميع معاني الحروف، ولكن العلم القليل الذي حصل لنا يؤيد ما استدللنا عليه من القرآن.

وهذا القدر يكفي لمن أراد مزيد العلم، ووجد لنفسه فرصة ونشاطاً للخوض في هذه الغمرة، وفوق كل ذي علم عليم».(١)

هذا ما دبَّجته يَراعة الفراهي، وجادت به قريحته بخصوص الحروف المقطعات، ولعلها فكرة بِكْر لم يسبقه إليها أحد من علماء التفسير، فهي توفيق من الله.

موجز القول أن تلك الحروف ليست مثل الألغاز، تتخبط فيها العقول، وتتحير فيها الألباب، وإنما هي حروف ذوات معانٍ. وكانت معانيها معلومة عند العرب.

كلمة وجيهة للسيوطي:

قال الإمام السيوطي:

«والذي أقوله: إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم «حم فصلت» و«ص» وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عَثْرة، وحرصهم على زَلَّة، فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم، لا إنكار فيه».(٢)

فتلك الحروف لها دلالات، وإيحاءات كانت معروفة في عهد نزول القرآن، والمسلمون وغير المسلمين، كلهم كانوا يفهمونها، ويدركون مراميها.

وهي تناسب مضامين تلك السور التي استهلت بها. مثل (ن) فهي الحوت،

---

(١) الفراهي، تفسير نظام القرآن، سورة البقرة، الفصل: ١٦، ص: ٩٦-٩٩.

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦.

والسورة التي سميت ب(ن) ورد فيها ذكر صاحب الحوت، دون غيره من الرسل والأنبياء، حيث قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وهكذا (ط) كانت تكتب في الرسم القديم على صورة الحية، وكانت تحمل معنى الحية، والسور التي استهلت ب(ط) كلها تذكر عصا موسى، وتحوُّلها إلى حية تسعى، أو إلى ثعبان مبين.

وتلك لفتة بارعة تحدّد لنا اتجاه السير في دراسة فواتح السور.

والفكرة وإن كانت غير مكتملة، حيث لم تتناول جميع الحروف المقطعات في القرآن، إلا أنها فكرة وجيهة رائعة، فكرة نيرة مشرقة، فكرة تتميز بكونها مستقاة من القرآن باستقراء آياته، وتتبع أساليبه.

فلا بد أن تُجرى فيها دراسات، وتُكتب فيها بحوث، وتتكاتف فيها الجهود، حتى يكتمل هذا العمل العظيم، وحتى تستوي تلك الفكرة المشرقة على سوقها، تعجب الباحثين، وتسرّ الدارسين، والله ولي التوفيق.

سؤال وجيه:

وهنا قد يسأل سائل: إذا كانت تلك الحروف أسماء للسور، فما فائدتها إذا كانت في سورة تحمل اسماً آخر غيره، ولا سيما إذا كان ذلك الاسم الآخر هو الأشهر، مثل سورة البقرة، فهي استهلت بـ(الم)، ولكنها اشتهرت باسم سورة البقرة؟

وهكذا الأمر في سور أخرى متعددة، حيث استُهلَّت بحروف من الحروف المقطعات، ولكنها اشتهرت باسم آخر، نحو سورة الأعراف، حيث استهلت ب(المص) قال تعالى:

﴿المص ① كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢].

ونحو سورة يونس، حيث استهلت بـ(الر)، قال تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

وهكذا دواليك. فما فائدة هذه الأسماء، إذا كانت السور تعرف بغيرها؟

علامات على المناسبات بين السور:

فالجواب أن الله تعالى سمّى كل سورة باسم تُعرف به، وسمى جملة منها بتلك الحروف المقطعات، حتى تكون علامات على العلاقات والمناسبات القائمة بين تلك السور، وحتى تكون حافزاً للتأمل في الوشائج التي تربط بعضها ببعض، فإن تلك الحروف بعينها قد تكون اسماً لعدد من السور، مثل (الم) فهي اسم لعدد من السور، قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

فتلك ست سور، كلها استهلت ب(الم)، وتلك الظاهرة تستلفت انتباه الباحث، وتثير في ذهنه السؤال: لماذا استهلت تلك السور الست بـ(الم) على الرغم من ذلك البعد الشاسع بينها؟ فإن الأولين منها مدنيتان، والأربع البواقي مكيات، والأوليان في أول القرآن، والأربع البواقي في الثلث الأخير من القرآن.

هذا الوضع يلقي في روع الباحث أن تلك السور إذا كانت تحمل اسماً واحداً، واستهلت استهلالاً متقارباً، فلا بد أن تكون هناك وشائج تربط بعضها ببعض، ولا بد أن تكون بينها علاقات ومناسبات.

ثم هذا الوضع يدعو الباحث إلى دراسة تلك السور من هذه الناحية، ويدعوه إلى

البحث عن وجوه التشابه بينها.

فإذا تأمل الباحث في مضامين تلك السور، وأنعم فيها النظر، وجد فيها من التشابه والتقارب ما يحمله على القول بأن تلك السور أسرة واحدة، بل هي أخوات شقيقات، بعضها من بعض، مضامينها متشابهة، وأهدافها متقاربة، وهي كلها تسبح في فلك واحد.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل، فنقول ونسأل الله السداد والتوفيق:

آيات متشابهات في الزهراوين:

نبدأ حديثنا بكشف القناع عن وجوه التشابه بين الزهراوين، أي: سورتي البقرة وآل عمران، فإنهما جارتان، بل النظرة الفاحصة المتأملة في السورتين تُحسّهما، وكأنهما شقيقتان، أو توأمان، وذلك لما يوجد بينهما من تشابه وتقارب، وتلاحم دقيق.

والقرآن نفسه نبّهنا إلى تلك الظاهرة بنظم آياته، حيث تكررت في سورة آل عمران كثير من الآيات التي وردت في سورة البقرة، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٧٧].

أو كقوله تعالى:

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [٨٤].

أو كقوله تعالى:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [٨٦-٨٨].

أو كقوله تعالى:

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [١١٢].

أو كقوله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [١٦٤].

أو كقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [١٦٩].

فقد مضت تلك الآيات كلها في سورة البقرة، مع فرق يسير في بعض كلماتها. فالآية الأولى تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٧٤].

والآية الثانية تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٦].

والآية الثالثة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [١٦١-١٦٢].

والآية الرابعة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [٦١].

والآية الخامسة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [١٥٠-١٥١].

والآية السادسة تشبه قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [١٥٤].

فتلك الآيات كلها تكررت في سورة آل عمران، ولا يوجد في الموضعين إلا فرق يسير. وهذا التكرار إنْ دل على شيء، فإنما يدل على تشابه السورتين، وتلاحمهما بشكل عجيب.

وجوه التشابه بين الزهراوين:

أما وجوه التشابه بين السورتين، فهي كما يلي:

الوجه الأول:

السورتان متشابهتان في غُرّتيهما، حيث بدأت كل واحدة منهما بالتنويه بشأن القرآن، والإشادة بذكره مع تفرّد الثانية بذكر الرسول مع القرآن، حيث قال تعالى في الأولى:

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وقال في الأخرى:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

وهذا التشابه في المطلع لا يدل إلا على التشابه فيما وراءه من المعنى والموضوع.

والواقع هكذا؛ فإن الموضوع في كلتا السورتين جِدُّ متقارب، حيث إن الأولى دعوة إلى الإيمان بالقرآن، والتمسّك به،كما أن الأخرى دعوة إلى اتباع الرسول،

والمسارعة إلى أوامره، وماجاء به من عند ربه.

وعلى هذا، فهاتان السورتان جاءتا على نمط قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [٥٣].

حيث إن الأولى تشبه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ لكونها دعوة إلى الإيمان بما أنزل الله تبارك وتعالى.

والأخرى تشبه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ لكونها دعوة إلى اتباع رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إن هذين الأمرين يلتقيان في واجب الإيفاء بالعهد، حيث إن بني إسرائيل قد أُخذَ منهم العهد على لسان رسلهم أن يؤمنوا بهذا القرآن، كما أخذ منهم العهد على أن يؤمنوا بهذا الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد ذُكر هذان العهدان في هاتين السورتين مراراً، وتكراراً.

فالسورة الأولى دعوة إلى أن يوفوا بعهدهم الأول،كما أن الأخرى دعوة إلى أن يوفوا بعهدهم الآخر.

الوجه الثاني: ثم إن هاتين السورتين متشابهتان في خاتمتيهما أيضاً،كما أنهما متشابهتان في فاتحتيهما، حيث إن الخاتمتين كلتيهما مدح وثناء لصحابة رسول الله. وقد بينا ذلك، وفصلناه تفصيلاً في أثناء دراستنا لتلك الآيات، في كتابنا (البرهان في نظام القرآن) [1].

ثم إنهما تشتملان على أدعية حارّة ضارعة من المؤمنين، واستجابة عجيبة سريعة من الله.

وهكذا نرى الخاتمتين متقاربتين جداً في جوّهما ومحتوياتهما.

---

(١) من منشورات دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

الوجه الثالث: إن سورة البقرة ختمت بدعاء النصر على الكافرين:

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٢٨٦].

فجاءت سورة آل عمران تتوعد الكافرين من أول أمرها، وجاءت تبشرهم بالهزيمة وسوء العاقبة، قال تعالى:

﴿وَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [١٢].

الوجه الرابع: إن سورة البقرة تذكر تاريخ بني إسرائيل إلى عهد سيدنا موسى عليه السلام، ثم تجيء سورة آل عمران لتكمل تلك السلسلة الذهبية، وتقص علينا من أنباء آل عمران، صلوات الله عليهم.

الوجه الخامس: إن سورة البقرة كانت مرحلة إعداد وتربية للجهاد، وكانت مرحلة حثّ وتحريض عليه:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١٩٠].

وقال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢١٦].

وقال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٤٤].

ثم جاءت سورة آل عمران لتنتقل بهؤلاء المؤمنين من مرحلة الإعداد والتربية إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ، فدخلت بهم في معركة فاصلة بين الإسلام والكفر، ثم تناولت أحداث تلك المعركة بتنبيه وتوجيه وترشيد؛ ليكون ذلك إعداداً لما سيتبعها من معارك.

الوجه السادس: إن سورة البقرة تفصل سمات المنافقين وملامحهم، وتفصل مواقفهم وتصرفاتهم، من غيرأن تَصِمَهُم بالنفاق، أو من غير أن تطلق عليهم لفظ «النفاق».

بخلاف سورة آل عمران، فإنها تكشف عنهم القناع، وتعرّيهم، وتصِمهم بتلك الرذيلة، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [١٦٦-١٦٧].

ثم نرى الأمر في السورة التي تليها - وهي سورة النساء - أشد من ذلك وأفضح، حيث إنها تكشفهم كشفاً، وتعرّيهم تعرية كاملة، وترميهم بهذا اللقب مرة بعد مرة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [٦١].

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [٨٨].

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٣٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [١٤٠].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [١٤٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥].

الوجه السابع: إن سورة البقرة يغلب عليها طابع الدعوة والتوجيه، فهي تدعو بني إسرائيل، وترشدهم إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويفيئوا إلى الحق الذي نسوه، بعد ما ائتمنوا عليه، وإن كانت تلك الدعوة والتوجيه لا تخلو في كثير من الأحيان من اللوم والتعنيف.

بينما سورة آل عمران تنبّه المسلمين إلى كيدهم، وتحذّرهم من شرهم، وتكشف لهم ما يبيّتون لهم حتى يكونوا على حذر منهم.

الوجه الثامن: إن سورة البقرة تحتوي على قدر صالح من الشرائع والأحكام، بينما سورة آل عمران لم تتناول الشرائع والأحكام البتّة، ثم جاءت بعدها سورة النساء، وسورة المائدة، وهما أيضاً تشتملان على قدر طيب من الشرائع والأحكام.

هذا الوضع يدل على أن هذه السورة - سورة آل عمران - إنما جاءت لتكمل سورة البقرة، وجاءت لتخدمها في بعض أهدافها، التي تتصل بعمودها.

ومما يدل على ذلك أن سورة آل عمران بُنيت على آية من آيات سورة البقرة، بل بنيت على جزء صغير منها، حيث قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [٢٥٥].

فبنيت سورة آل عمران على غُرَّة هذه الآية العظيمة، حيث قال تعالى في مستهل هذه السورة:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [١-٢].

الوجه التاسع: إن سورة البقرة تخاطب جماهير اليهود والنصارى، وتتحدث عنهم، بينما سورة آل عمران تخاطب أحبارهم ورهبانهم، وتتحدث عنهم.

ولعل هذا هو السرّ في أن هذه السورة يغلبها جوّ الحِجاج واللجاج، كما نرى ذلك واضحاً صريحاً في مثل تلك الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [١٩-٢٠].

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [٦٥-٦٦].

وهذا الجو يخص هذه السورة دون سورة البقرة، ولعل السر في ذلك ما أشرنا إليه.

الوجه العاشر: إن الصراع العقائدي الذي شهدناه في سورة البقرة قد احتدّ واشتدّ في هذه السورة، ولذلك نرى هذه السورة يغلبها جوّ الحجاج واللجاج، كما مرّ معنا آنفاً.

ولعل هذا هو السر في أن هذه السورة تحث المؤمنين حثا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعدّ ذلك من صميم مهمتهم، قال تعالى:

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو العلاج الناجع للحجاج واللجاج، وهو الضمان الوحيد للانتصار على العدو المجادل، وهو الطريق الوحيد لسلامتهم من شر ذلك الصراع العقائدي والغزو الفكري، الذي يهدد كيانهم، ويكاد يمزّق شملهم!

تلك عشرة كاملة، أي: عشرة وجوه لارتباط هذه السورة بالتي قبلها، وهي من الوضوح بحيث لا تخفى على من تدبرها، وتمعّن فيها.

وليست هذه كلها، فمن يدري لعل هناك وشائج أخرى غيرها تربط هذه السورة بالتي قبلها، ولم نتوصل إليها بعد؟

وهل يملك أحد أن يتقصى تلك الوشائج الدقيقة، اللطيفة، الزاخرة، المتشابكة، المتلاحمة في كتاب الله؟ وهل يستطيع أن يحيط بها علماً؟!

وجوه التشابه بين السور الستّ:

وبعد ما انتهينا من بيان وجوه التشابه بين سورة البقرة وسورة آل عمران، بفضل من الله وتوفيقه، نعرّج على السور الأخرى التي استهلّت ب(الم) حتى نرى وجوه التشابه فيها:

الوجه الأول: مطلع سورة البقرة يشبه مطلع سورة لقمان شبهاً كبيراً، فلنتأمل تلك الآيات:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٥].

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

كما أن مطلع سورة السجدة يشبه مطلع سورة البقرة :

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

الوجه الثاني: تلك السور كلها تنوّه بفضيلة الشكر، وتحث عليها، وتلوم على التقصير فيها، فلنتأمل تلك الآيات:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

[العنكبوت: ١٧].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٥].

الوجه الثالث: تلك السور كلها تنوّه بفضيلة الصبر، كما تنوّه بفضيلة الشكر، وبعضهما من بعض، فإن فضيلة الصبر هي أصل فضيلة الشكر، فلنتأمل تلك الآيات:

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٩].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الوجه الرابع: تلك السور كلها تدعو إلى ملة الإسلام، وتحرض عليها، مع الفرق في الاختصار والتفصيل، فلننظر في تلك الآيات، قال تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣].

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٥٣].

﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٣٢) أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ

ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٩-٢٠].

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

الوجه الخامس: تلك السور كلها تبطل الشفاعة الباطلة في الآخرة، وتربط النجاة والسعادة بالإيمان والتقوى، فلنتأمل تلك الآيات، قال تعالى:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٢].

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٦].

الوجه السادس: سورة الروم تشبه سورتي البقرة، وآل عمران في التنفير من الربا، والحث والتحريض على الزكاة والصدقة، فأول ما جاء في التنفير من الربا مع الحث على إيتاء الزكاة، وعلى أداء الحقوق، قوله تعالى في سورة الروم:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [٣٨-٣٩].

ثم جاءت سورة آل عمران بالنهي الصريح عن أكل الربا، مشيرة إلى أنه قسوة في قسوة، وظلم فوق ظلم حيث لا يلبث المرابي أن يأكل الربا أضعافاً مضاعفة، وتلك القسوة القاسية تقذف الإنسان بعيداً عن الفلاح، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١٣٠].

ثم جاءت سورة البقرة تحذّر سوء مغبة الربا، وتعلن الحرب ضد من لا يصيخ للنصيحة، ويصرّ ويستمر على أكل الربا، قال تعالى:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

﴿إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢٧٦-٢٨١].

الوجه السابع: سورة العنكبوت تجعل البلاء والفتنة من لوازم الإيمان، كمثل ما نرى في سورتي البقرة وآل عمران، فلنتأمل تلك الآيات:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [١٥٥-١٥٦].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فالمؤمن لا بد أن يبتلى، ولا بد أن يفتن ويمتحن، حتى يتكشف أمره، ويظهر صدقه وصلابته، فلا يكشف الفتيان غير الفتن والمحن، ومنه ما رواه أنس بن مالك عن نبينا عليه الصلاة والسلام أَنَّهُ قَالَ:

«إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ».(١)

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن: ٥/١٥٩/٤٠٣١.

الوجه الثامن: ذكرت دعوة إبراهيم على لسان إبراهيم في سورة العنكبوت بأسلوب واضح جامع، ثم بُني عليها الكلام في سورتي البقرة وآل عمران، فلننظر في تلك الآيات:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٦-٦٧].

حسبنا هذا الاستعراض السريع لمضامين تلك السور، حتى ندرك أن الجوّ فيها جدّ متقارب، وهي كلها تسبح في فلك واحد.

ومن هنا نقول: إن تلك السور الست التي استهلت بـ(الم) أسرة واحدة، يشبه بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، ويعضد بعضها بعضاً.

وجوه التشابه بين السور الأربع:

ولقد سبق منا حديث ضاف مستفيض حول ما يربط سورتي البقرة وآل عمران، من وشائج قوية متشابكة فيما بينهما، والآن نتوجه بإذن الله إلى السور الأربع المكية حتى نكشف القناع عن وجوه المناسبة فيما بينها.

فسورة العنكبوت هي قطب الرحى في هذه المجموعة، والسور الثلاث الأخرى،

أي: سور الروم، ولقمان، والسجدة تدور حولها، وتفصل جوانب منها، فجاء في سورة العنكبوت مثلا قوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٨-٩].

ثم تكررت نفس الوصية في سورة لقمان بشيء من التفصيل، قال تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤-١٥].

وقال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [١-٣].

ثم جاءت سورة السجدة لتفصل من هم المؤمنون حقا، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [١٥-١٧].

فتلك صفات المؤمن الصادق، الذي ذاق حلاوة القرآن، وخالطت قلبه بشاشة الإيمان، فهو يخر ساجداً، إذا ذكّر بآيات ربه الرحمن، ويدعوه بالليل والناس نيام، وينفق مما رزقه ربه على الجياع والأيتام.

فتلك صفات تكسب المؤمن قوة لا ترام، وتجعله مثل الرواسي الشمّ في وجه الطغيان، فهو لا يعرف الخوف ولا الوهن ولا الضعف ولا الاستكانة مهما اكفهرّ الزمان، وعبست الأيام.

وقال تعالى في خاتمة سورة العنكبوت:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [٦٩].

وهذا وعد من الله بأنه سينصر المجاهدين المحسنين، وسيهديهم سبل رحمته ورضوانه، ثم جاء توكيد هذا الوعد في مستهل السورة التي تليها، وهي سورة الروم، قال تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [١-٧].

سورة الروم ليست تبشيراً بفتح الروم:

والجدير بالذكر أن هذا ليس تبشيراً بفتح الروم، كما قيل، اعتماداً على روايات لا تخلو من ضعف، ففيها اختلاف وفيها اضطراب، ورواتها ليسوا من الثقات. وما كان سيدنا أبوبكر ليراهن المشركين على فتح الروم!

وما ذا في الروم حتى يفرح المؤمنون بفتحهم؟ فليس للمؤمنين منه حبل ولا بعير، وإذا كان الروم أهل الكتاب، فالمؤمنون كانوا في معاناة شديدة من أهل الكتاب في جزيرة العرب، وأهل الكتاب لم يكونوا أقل حقداً على الإسلام وأهل الإسلام من مشركي قريش، وتاريخ حقدهم على دين الله أطول وأحفل من تاريخ المشركين.

وإنما هو من نوع الإخبار بالغيب، حتى يكون حجة من الحجج الظاهرة على كون القرآن وحياً من الله، وفي نفس الوقت يكون ذلك موعداً لنزول النصر إلى المؤمنين.

علما بأن الله تعالى كما وعد المؤمنين بالنصر في سورة العنكبوت، فكذلك وعدهم به في سورة الروم، وعدهم بأسلوب ينزع عنهم كل خوف، ويسكب برد الاطمئنان في قلوبهم، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا

عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [٤٧].

فكان من توفيق أقدار لأقدار أنْ غلب الروم خصومَهم الفُرس، وفي نفس اليوم انتصرَ المسلمون على أعدائهم المشركين، وكان ذلك ببدر، ويومئذ فرح المؤمنون بأن نصرهم الله على عدوهم نصراً مؤزراً، وقدكان نصراً يفوق كل ظن، وكل تقدير.

وجاءت في سورة العنكبوت مطالبة المشركين بآيات حسّية تنادي بصدق رسالة الرسول مع أنهم لو تدبروا القرآن لكفاهم، وأغناهم عن مثل تلك المطالب العقيمة الصبيانيّة، التي لا يلجأ إليها الإنسان إلا عن سفاهة وغرور، قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [٥٠-٥١].

ثم جاءت بعدها سورة الروم حتى تلفت انتباههم إلى آيات الله في أنفسهم، وإلى آياته في الكون، وهي عبارة عن نعم سابغة من الله على عباده، والتي يستمتع بها كل إنسان في ليله ونهاره، فهي ليست مقطوعة، ولا ممنوعة.

وتلك آيات لو تفكر فيها الإنسان لوضح أمامه الطريق، وتبين له الرشد من الغيّ، واستغنى عن أيّ قِيل وقال، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [٢٠-٢٦].

قطب الرحى هو الإيمان بالقرآن:

ثم هذه المجموعة من السور تدور بكاملها حول موضوع الإيمان بالقرآن، والإذعان لرسالة القرآن، فسورة العنكبوت تطالعنا بتلك الآيات:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٤٦-٤٩].

ثم تأتي سورة الروم لتوصي الرسول وأصحابه بالصبر والصمود على جادة القرآن، فإن وعد الله حق، والذين يُمسِّكون بالقرآن هم الذين يفوزون وينتصرون، وأما الذين يعرضون ويستكبرون عنه، فيندمون ويخسرون. فذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [٥٨-٦٠].

ثم تأتي سورة لقمان وهي تبدأ الكلام بالتنويه بشأن القرآن، وتربط الهدى والرحمة والفلاح بآيات الكتاب الحكيم، وتبشر من يستكبر عنه بالعذاب والهوان، فذلك قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١-٧].

ثم تأتي سورة السجدة لتؤكد أن هذا الكتاب لاريب في كونه من رب العالمين،

وهو ليس افتراء من الرسول، وإنما هو وحي جاء من عند الله لينذر الناس عاقبة غيهم وطغيانهم، ومن أعرض عن آيات الله بعد ما ذكّر بها، فهو مجرم، ولا بد أن يذوق وبال أمره، فذلك قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [١-٣].

وقال تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢١ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [٢١-٢٢].

لقد طال بنا الحديث حول السور التي استهلت بـ (الم)، ولعله يكفي للاقتناع بما سبق أن قلنا، من أن الله سبحانه وتعالى سمى كل سورة باسم تعرف به، فهو عَلَم لها.

وسمّى جملة منها بالحروف المقطعات، إضافة إلى الأعلام التي وضعت لها، واشتهرت بها، فتكون حروف بعينها عنواناً لعدة سور، وذلك لتكون علامة على العلاقات والمناسبات بين تلك السور، التي سميت بها، وحتى تشير إلى الوشائج التي تربط بعضها ببعض، مثل (الم) فهي اسم لست سور، وهي تنبه إلى ما بين تلك السور الستّ من سبب ونسب.



الأصل الثامن
تصحيح مفهوم النسخ

لا بد من تصحيح مفهوم النسخ؛ فإن المفهوم الخاطئ للنسخ أصبح حجاباً دون فهم كثير من معاني القرآن، وأصبح حجاباً دون تأويل كثير من آياته. وأدى إلى تعطيل كثير من أحكامه.

فما النسخ؟ وما المراد بما ذكر في القرآن من وقوع النسخ؟

مفهوم النسخ في اللغة:

قال صاحب تاج العروس:

نَسخه بِهِ كَمَنَعَه ينسَخُه وانتَسَخَه: أَزَالَهُ به وأَدالَهُ والشيءُ يَنسَخ الشيْءَ نَسْخاً أَي يُزِيله ويكون مكانَه. والعربُ تقول: نَسَخَتِ الشَّمسُ الظِّلَّ وانتَسَخَتْه: أَزالَتْه والمعنى أَذْهبَت الظِّلَّ وَحلَّتْ مَحلَّه وهو مجَازٌ. ونَسْخُ الآيَةِ بالآيَةِ: إِزالَةُ حُكْمِها. والنَّسْخ: نَقْلُ الشَّيْءِ من مَكانٍ إِلى مَكَانٍ وهو هو. ونسخَه: غَيَّرَهُ. ونَسَخَت الرِّيحُ آثَارَ الدِّيَار: غَيَّرَتْها. ونَسَخَه: أَبْطَلَه وأَقَامَ شيئاً مُقَامَه. وقال اللَّيث: النَّسْخ: أَن تُزِيل أَمْراً كان من قبلُ يُعْمَل به ثم تَنْسَخه بحادِثٍ غيرِه. وقال الفَرّاءُ: النسْخُ أَنْ تَعْمَلَ بالآيَةِ ثُمَّ تنزِلَ آيَةٌ أُخرَى فتعمَلَ بها وتَتْركَ الأُولَى. وفي التنزيل: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] والآيَةُ الثَّانِيَة ناسخةٌ والأُولَى مَنسوخَة. وقال ابن الأَعرابيّ: النَّسْخ تَبديلُ الشَّيْءِ مِن الشيْءِ وهو غيرُه[١].

وقال ابن فارس:

(نسخ) النون والسين والخاء أصلٌ واحد، إلاّ أنّه مختلفٌ في قياسِه. قال قوم: قياسُه رفْعُ شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه. وقال آخرون: قياسُه تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ. قالوا:

---

(١) مرتضى الزبيدي، تاج العروس: نسخ.

النَّسْخ: نَسْخ الكِتاب. والنَّسْخ: أمرٌ كان يُعمَل به من قبلُ ثم يُنسَخ بحادثٍ غيرِه، كالآية ينزل فيها أمرٌ ثم تُنسَخ بآيةٍ أخرى. وكلُّ شيءٍ خلَفَ شيئاً فقد انتسخه. وانتسخت الشَّمسُ الظِّلَّ، والشّيبُ الشبابَ[1].

فالنسخ في اللغة: إزالة شيء بشيء، أو رفع شيء، وإثبات شيء مكانه.

ما مفهوم النسخ عند المتقدمين؟

واستخدم القرآن لفظ النسخ لهذا المعنى الشائع عند العرب، وظلّ هذا اللفظ يستخدم لمعناه الشائع المعروف إلى يومنا هذا، وهو: إزالة حكم بحكم، أو رفع شيء، وإثبات شيء مكانه.

ومن العلماء الأعلام من يقول:

«هذا اصطلاح المتأخرين، أو الأصوليين، وأما المتقدمون فالنسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين؛ فقد يطلقون على تقييد المُطْلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المُبْهم والمجمل نسخًا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مُرادٍ في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرًا؛ فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.

وهذا المعنى جار في تقييد المطلق، فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده؛ فلا إعمال له في إطلاقه، بل المعمل هو المقيد، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئاً؛ فصار مثل الناسخ والمنسوخ.

وكذلك العام مع الخاص؛ إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ، فلما جاء الخاص أخرج حكمَ ظاهر العام عن الاعتبار؛ فأشبه الناسخ والمنسوخ؛ إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص، وبقي السائر على الحكم الأول، والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق، فلما كان كذلك؛

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٤/ ٤٢٤.

استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد».[1]

هذا ما قيل من الفرق في استعمال لفظ النسخ عند المتقدمين واستعماله عند المتأخرين، ولعل الذين قالوا بالفرق بين استعمال المتقدمين واستعمال المتأخرين لهذا اللفظ، إنما قالوا به حتى يتخلصوا من مشكلة تضخّم النسخ في القرآن، حيث قفز عدد الآيات المنسوخة حسب ماوردت به الروايات إلى خمس مائة آية، أو أكثر.

وكان أولى بهم أن ينصرفوا عن تلك الروايات انصرافاً، بدلاً من أن يلتمسوا لها تأويلا؛ فإن الصحابة - وهم العرب العرباء- كانوا أدرى الناس بالفرق بين لفظ النسخ، وبين غيره من الألفاظ مثل التعميم والتخصيص، والإطلاق والتقييد، وبيان المبهم، وتفصيل المجمل، وما إلى ذلك. وماكانوا ليخلطوا تلك الألفاظ بلفظ النسخ، حتى يوقعوا الناس في الخُلَّيْطى ويلبّسوا عليهم أمر القرآن.

علماً بأن روايات النسخ التي بُني عليها هذا الكلام، ليست لها عن آخرها قوائم، والقرائن كلها متضافرة على أنها مما وضعها أعداء القرآن.

وإذاً، فالكلام في موضوع النسخ ينبغي أن يكون باعتبار هذا المعنى المعروف عند العرب، وأما إذا عدلنا عنه إلى غيره، أخطأنا الطريق، وخاننا التوفيق.

الأصل في موضوع النسخ:

والأصل في موضوع النسخ في القرآن قوله تعالى:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١].

إذاً، فلتكن لنا وقفة واعية، متأنية عند هاتين الآيتين.

---

(١) الموافقات للشاطبي: الفصل الثاني في الإحكام والنسخ: ٣/ ٣٤٤-٣٤٥.

وقبل أن ندلي بدلونا في تأويلهما، نرى من الواجب أن نطلع على آراء أهل التفسير، وموقفهم منهما. ولنبدأ رحلتنا هذه من آية سورة النحل، لكونها آية مكية، ولكونها أول آية صريحة في أمر النسخ.

ما قيل في تأويل آية النحل:

قال الإمام الزمخشري:

«تبديل الآية مكان الآية: هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته. وهذا معنى قوله ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۭ﴾ وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون؛ ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق، لأنّ الغرض المصلحة، لا الهون والمشقة»(1).

هذا ما قاله الزمخشري في تأويل آية النحل، والذين جاؤوا من بعده لم يحيدوا عنه قُلامة ظفر(2).

ملخص ما قيل:

❖ المراد بتبديل الآية، تبديل آية من القرآن بآية أخرى. وهو رأي الجمهور.

❖ والآية جاءت ردّا على كفار قريش، حيث سخروا من النسخ، وقالوا يأمر محمد أصحابه بأمر، ثم يأتيهم بعد يوم بأمر آخر، وسموه افتراء من محمد، وتقولاً على الله.

---

(1) الزمخشري-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٢/ ٦٣٤.

(2) الماوردي، النكت والعيون، سورة النحل، آية: ١٠١= وفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، سورة النحل: ١٠١= وفتح القدير للشوكاني، سورة النحل آية: ١٠١.

❖ المراد بالآية: تبديل شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة. قاله ابن بحر، وهو أبومسلم الأصفهاني.

ما قيل في تأويل آية البقرة:

قال الإمام ابن جرير:

يعني جل ثناؤه بقوله: (ما ننسخ من آية): ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره. وذلك أن يحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ[1].

وقال الإمام الماوردي:

قوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) في (معنى) نسخها ثلاثة تأويلات:

أحدها: أنه قبضها، وهو قول السدي.

والثاني: أنه تبديلها، وهو قول ابن عباس.

والثالث: أنه إثباتُ خَطِّها، وتبديلُ حكمها، وهو قول ابن مسعود.

(أَوْ نُنسِهَا) فيه قراءتان:

أحدهما: هذه، والثانية: (أو ننسأها).

فمن قرأ: (أو ننسها) ففي تأويله أربعة أوجه:

أحدها: أنه بمعنى أو نمسكها، وقد ذكر أنها كانت في مصحف عبد الله ابن مسعود: (ما نُمْسِكُ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا نَجِيءُ بِخَيرٍ مِنْهَا أَو مِثْلِهَا) وذلك أن النبي ﷺ، كان يقرأ الآية، ثم يَنْسَى وَتُرْفَعُ، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ: (مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ تَنسَهَا)، بمعنى الخطاب لرسول الله ﷺ، فيكون تقديره: أو تنسى أنت يا محمد.

وقال القاسم بن ربيعة لسعد بن أبي وقاص: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: ﴿أو

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٤٧١-٤٧٢.

ننسها﴾، فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على ابن المسيب، ولا على آل المسيب قال الله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى) (وآذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وهذا معنى قول مجاهد وقتادة.

والثاني: أن ذلك بمعنى الترك، من قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي تركوه فتركهم، فيكون تقدير الكلام: (ما ننسخ من آية) يعني نَرفعُها ونبدِّلْها، (أو نُنْسِهَا) أي نتركها ولا نبدلها ولا ننسخها، وهذا قول ابن عباس والسدي.

والثالث: أن قوله ما ننسخ من آية أو ننسها قال: الناسخ والمنسوخ، وهذا قول الضحاك.

والرابع: أن معنى ننسها أي نَمْحُها، وهذا قول ابن زيد.

وأما من قرأ: (أو نَنْسَأْهَا) فمعناه نؤخرها، من قولهم نَسَأْتُ هذا الأمر، إذا أخَّرته، ومن ذلك قولهم: بعت بنَسَاءٍ أي بتأخير، وهذا قول عطاء وابن أبي نجيح.

(نَأْتِ بِخَيرٍ مِّنها أو مِثْلِهَا) فيه تأويلان:

أحدهما: أي خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم، وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أن معنى خير منها، أي أخف منها، بالترخيص فيها، وهذا معنى قول قتادة. فيكون تأويل الآية، ما نغير من حكم آية فنبدله، أو نتركه فلا نبدله، نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكماً منها، إما بالتخفيف في العاجل، كالذي كان من نسخ قيام الليل تخفيفاً، وإما بالنفع بكثرة الثواب في الآجل، كالذي كان من نسخ صيام أيام معدودات بشهر رمضان.

وقوله تعالى: (أَو مِثْلِهَا) يعني مثل حكمها، في الخفة والثقل والثواب والأجر، كالذي كان من نسخ استقبال بيت المقدس، باستقبال الكعبة، وذلك مثله في المشقة والثواب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] (١)

---

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٧١.

ملخص ما قيل:

- المقصود بالآية إثبات النسخ في القرآن.
- وهو يكون بمحو الآية، أو ترك إنزالها.
- أو إثبات خطّها، وتبديل حكمها.
- أو قبضها، أو رفعها مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا».
- أو تبديلها بتحويل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمحظور مباحاً، والمباح محظوراً.
- وكذلك المقصود بالآية إثبات الإنساء أو النسأ في القرآن، وذلك على اختلاف القراءة في الآية. و«أو نُنْسِها» معناه:
- أو نمسكها.
- نتركها ولا نبدلها، ولا ننسخها.
- نَمْحُها
- وأما من قرأ: (أو نَنْسَأُهَا) فمعناه نؤخّرها، من قولهم نَسَأْتُ هذا الأمر، إذا أخّرته.

ذلك موقف المفسرين من تأويل آيتي النسخ، فهم أوّلوا الآيتين إلى النسخ في القرآن، أي: نسخ الآيات بعضها ببعض، وإنساء ما أنزل على رسول الله من قرآن.

سؤال لا يصح الإغماض عنه:

وهنا يثور سؤال، وهو سؤال مهم لا يصح الإغماض عنه، فلسائل أن يسأل:

ما ضرّنا، لو أوّلنا هذا النسخ إلى نسخ القرآن لغيره من الكتب المحرّفة والشرائع السابقة؟

وماذا علينا لو أوّلناه إلى ما كان عليه المشركون من أعراف وتقاليد جاهلية -

أعراف وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان؟

والقرآن نفسه أشار إلى هذا النوع من النسخ، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج: ٥٢].

وأما ما ذهب إليه المفسرون رحمهم الله من نسخ آيات القرآن، بعضها ببعض، فهذا لا نجد له ذكراً، لا في كتاب الله، ولا فيما صحّ عن رسوله عليه الصلاة والسلام.

سنة الله في الوحي:

ثم هذا خلاف سنة الله في الوحي، فليس من المعلوم من سنته تعالى في إنزال الكتب أن ينزل كتاباً، وينسخ بعضه ببعضه في أثناء نزوله، لم يحدث ذلك في شأن التوراة، ولم يحدث ذلك في شأن الإنجيل، ولم يحدث ذلك في شأن أي كتاب آخر من كتب الله، فكيف تتبدل سنة الله في شأن القرآن، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

قد يقال: ذكر في آيتي النسخ، نسخ الآية، حيث قال تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖۙ ﴾ [النحل: ١٠١].

وقال تعالى:

﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦].

فما الداعي إلى الشكّ في أن المراد بالنسخ في الآيتين هو النسخ في القرآن، أي: نسخ الآيات بعضها ببعض؟

تطلق «الآية» على نصوص القرآن وغيره:

نقول: إن لفظ الآية ليس فيه دليل، فإنه ليس خاصاً بالقرآن، بل يطلق هذا اللفظ على نصوص الكتب السابقة، كما يطلق على نصوص القرآن. وإليك بعض الشواهد لما قلنا:

روى ابن حبان، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، حدثنا جويرية، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ رجم يهوديين رجلاً وامرأة زنيا، فأتت بهما اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: إن هذين زنيا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة؟»، قالوا: نفضحهما ونجلدهما، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم والله إن فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة، فاتلوها إن كنتم صادقين»، وقال عبد الله بن سلام: كذبتم والله إن فيها آية الرجم، قال: فأتوا بالتوراة فنشروها، وجاء رجل من اليهود يقال له: ابن صوريا أعور فوضع يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فوجد آية الرجم، فقالت اليهود: نعم يا محمد فيها الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فَرُجما.

قال ابن عمر: «وأنا فيمن رجمهما يومئذ»[1]

وروى الطحاوي بسنده، قال: لما سألهم عن حد الزنى في كتابهم ذكروا له أنه الجلد والفضيحة، وأنه لا رجمَ فيه، وأتوه بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم حتى أعلمه عبد الله بن سلام أنهم قد كذبوه، وأمر ذلك اليهودي أن يرفع يده عن آية الرجم، فرفعها فقامت عليهم الحجة بأن الرجم في كتابهم، فرجم رسول الله ﷺ عند ذلك من زنى منهم، ممن أتوه به، محكمين له فيه.[2]

وروى البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن اليهود جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله - ﷺ - «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم». فقالوا نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ، فرجما. قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ

---

(١) صحيح ابن حبان، باب الزنا وحدّه: ١٨/ ٣٦٩/ ٤٥١٢.

(٢) مشكل الآثار للطحاوي: ٤/ ٤٥٢/ ١٦٤٢.

على المرأة يقيها الحجارة[1].

فنرى تلك الروايات تطلق لفظ «الآية» على نصّ في التوراة، وهي آية الرجم، وهذا يعني أنه يطلق على نصوص الكتب السابقة، كما يطلق على نصوص القرآن.

دلالات لفظ «الآية» في كلام العرب:

ثم هناك أمر آخر يسترعي الانتباه، وهو أن لفظ الآية ليس خاصاً بنصوص القرآن، ولا بنصوص الكتب الإلهية السابقة، بل كثيراً ما يستعمله فرسان اللغة وفحول الشعراء للمعاني دون الألفاظ والكلمات، أي: بمعنى الأمر، والرسالة، والعرف، والعادة، والشعار، وهاك بعض الشواهد من كلامهم:

قال النابغة الذبياني:

مَنْ مبلغ عمرو بن هند آية ... ومن النصيحة كثرة الإنذار[2]

وقال عوف بن الخرع:

ألا أبلغا عني جريحة آية ... فهل أنت عن ظلم العشيرة مقصر[3]

وقال الآخر:

أتتني آية من أم عمرو ... فكدت أغصُّ بالماء القراح

فما أنسى رسالتها ولكن ... ذليل من ينوء بلاجناح[4]

وقال حَجَلُ بنُ نَضلَةَ:

أبلِغْ مُعَاوِيَةَ المَزِّقَ آيةً ... عَنِّي فَلَسْتُ كَبَعضِ مَنْ يَتَقَوَّلُ

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٥٥٠/ ٣٦٣٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ١١٨، خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، باب أسماء الأفعال: ٢/ ٣٦٩.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي: ٣/ ٨٩.

(٤) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، تأليف: الخالديان: ١/ ٢.

إنْ تلقِنِي لا تَلْقَ نهزَةَ واحِدٍ لا طائِشٌ رَعِشٌ ولا أنَا أعْزَلُ[1]

وأنشد الجوهري لبرج بن مسهر الطائي:

خرجنا من النقبين لا حيّ مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

قال الفراهي في تفسير قوله: «بآيتنا»:

لعله أراد: بأعلامنا وشعارنا[2].

وأحياناً تأتي الآية بمعنى ما يفعله الإنسان من بطولات ومغامرات، دفاعاً عمن يحبه ويواليه. قال الحارث بن حلّزة اليشكري، وهو من شعراء المعلقات:

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو، وهل لذاك انتهاء

من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاث في كلهن القضاء

يقول الزوزني:

يقول: أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو بن هند الملك، ألا تنتهي عن إبلاغ الأخبار الكاذبة عنا؟ هو الذي لنا عنده ثلاث آيات، أي ثلاث دلائل من دلائل غنائنا وحسن بلائنا في الحروب والخطوب، يقضي لنا على خصومنا في كلها، أي: يقضي الناس لنا بالفضل على غيرنا فيها[3].

وأحياناً يستعمل لفظ الآية بمعنى الأعمال والحركات التي يفعلها الإنسان، وهي تنمّ عما يجول في قلبه، مثلما قال عبيد بن الأبرص من قصيدة في ديوانه:

تريني آية الإعراض عنا وفظّت في المقالة بعد لين[4]

وإذا كان لفظ الآية شاملاً لتلك المعاني كلها، فما المانع إذاً من إطلاقه على ما كان

---

(١) الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون: ١/ ١٣٩.

(٢) مفردات القرآن للإمام الفراهي، في الهامش، ص: ١٣٦.

(٣) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ت: محمد عبد القادر الفاضلي، ص: ٢٣٤-٢٣٥.

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص: ١٣٣.

عند المشركين من آيات الشرك، من عادات سيئة، وتقاليد باطلة، وشعارات جاهلية؟

كلام فيه نظر:

وأما ما قاله الإمام ابن الجوزي، وهو يذكر الشروط المعتبرة في ثبوت النسخ:

«والشرط الثالث أن يكون الحكم المنسوخ مشروعاً أعني أنه ثبت بخطاب الشرع فأما إن كان ثابتاً بالعادة والتعارف، لم يكن رافعه ناسخاً، بل يكون ابتداء شرع. وهذا شيء ذكر عند المفسرين فإنهم قالوا: كان الطلاق في الجاهلية لا إلى غاية، فنسخه قوله: (الطلاق مرتان) وهذا لا يصدر ممن يفقه؛ لأن الفقيه يفهم أن هذا ابتداء شرع، لا نسخ».[1]

فهذا الشرط فيه نظر، وإن كان له رواج وقبول عند فريق من أهل العلم، وابن الجوزي ليس أول قائل لهذا القول، فقد سبقه قوم بمثل قوله. قال القاضي ابن عطية:

«وحدّ الناسخ عند حذّاق أهل السنة: الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، على وجهٍ لولاه لكان ثابتاً، مع تراخيه عنه».[2]

فالذي ذهب إليه ابن الجوزي وابن عطية، يعوزه الدليل، والظاهر المتبادر من القرآن الكريم أن النسخ يتناول البدع والخرافات، ويتناول كل ما دخل في حياة الناس من ضلالات وانحرافات.

يتناول النسخ تلك الأمور كلها بالدرجة الأولى، فإن الوحي الجديد لا يأتي إلا ليصحح الأخطاء، ويُذهب عن الناس رجس الجاهلية، ويُذهب عنهم رجز الشيطان،كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: ٥٢].

فما حكاه ابن الجوزي عن المفسرين رحمهم الله، من أنهم قالوا:

---

(١) ابن الجوزي، نواسخ القرآن، باب شروط النسخ: ١/ ٩٦.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٣٠٩.

«كان الطلاق في الجاهلية لا إلى غاية فنسخه قوله: الطلاق مرتان».

ثم عاد عليه بالردّ والإنكار، وقال: «هذا لا يصدر ممن يفقه؛ لأن الفقيه يفهم أن هذا ابتداء شرع، لا نسخ».

هذا كلام منه غريب، حيث لا يوجد فيه ما يدعو إلى الردّ والإنكار؛ فالمنسوخ ليس من شرطه أبداً، أن يكون مشروعاً، بل الأصل فيه أن يكون خلاف المشروع، ويكون من إلقاءات الشيطان، والذي يكون خلاف المشروع، ويكون من إلقاءات الشيطان، هو الذي ينسخه الله، ثم يحكم آياته.

هذا الذي نستوحيه من قوله تعالى:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وأما نسخ ما شرعه الله، سواء سابقا أو حديثاً، فهذا لا نجد له ذكراً في القرآن.

كلمة قيمة للفراهي:

ولقد أدلى الإمام عبد الحميد الفراهي بدلوه في هذا الموضوع، وتناوله في ضوء القرآن، فأجاد وأفاد. قال رحمه الله:

«النسخ جلّه للشرائع السابقة، فاعلم أن الله تعالى بَيَّن لنا في القرآن أنه مُصدِّقٌ لما نزل من قبل، ومع ذلك مهيمن عليه. فأنزل الله تعالى فيه قسمين من النسخ:

الأول بتشريع ما هو خير من الحكم السابق، ليترقى به الإنسان.

والثاني بردّ ما نسوه من أصل شريعتهم، وذلك قوله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

أي: ما يودون ذلك حسدا منهم، ولكن الله تعالى ذوفضل، فيزيد من النعم حسب مشيئته الحكيمة.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] (أي: من الأحكام السابقة، فإنهم

نسوا كثيرا منها، كما قال تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤] وإنما نسب الإنساء إلى ذاته المقدّسة، كما نسب الإضلال والإزاغة، ولم يكن ذلك إلا استحقاقا منهم، كما صرّح به القرآن كثيرا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦] (أي: بخير مما نسخ من أحكامهم، أو بمثل ما نسوه) ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ (أيها المخاطب) ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] فلا يمنعه مانع عن صرف القدرة إلى ما شاء من الحكمة والرحمة.

وقال رحمه الله:

«بعد ما علمت من قسمي النسخ في الشريعة الإلهية، بقي قسم ثالث، وذلك نسخ ما أدخلوه في الشريعة من المحدثات والمفتريات، التي كثر وقوعها في الأديان، وكان أكبر همّ الأنبياء إبطالها، وردّ الشريعة إلى أصلها، فإن أكثر أنبياء بني إسرائيل لم يأتوا بشريعة جديدة.

وهكذا يجب على علماء هذه الأمة أن يردوا الأمة إلى كتاب الله والسنة الراشدة، فكل نبي ينسخ ما خلطوه بالدين، ويحكم ما جاء أولاً من الله تعالى، وذلك معنى قوله تعالى:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [الحج: ٥٢].

والقرآن كثيراً ما نسخ من مفترياتهم في العقائد والأعمال، أما العقائد، فمثل:

(١) أن الله ثالث ثلاثة.

(٢) وأن اليهود أبناء الله، وأحباؤه.

(٣) وأن الله تعالى استراح يوم السبت بعد ما مسّه اللغوب من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

(٤) وأن الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقربان تأكله النار.

(٥) وأن يد موسى عليه السلام قد أصابها البرص، فقال:

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص:٣٢].

(٦) وأن الله تعالى غضب على موسى، ففرق بينه وبين قومه، لأنه لم يحمده حين ضرب الحجر للماء، فانفجر.

فذكر سبب ترك موسى عليه السلام قومه في سورة المائدة:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [٢٥-٢٦].

ذلك إلى كثير مما افتروه من الأهواء والأماني المضلة، وكذلك ما تفوّهوا به من السوء في شأن أنبيائهم.

وأما الأعمال، فمثل ما فعلوه في الأسارى، ومثل أكلهم الربا، ومثل ما أحلت النصارى من الخنزير والمنخنقة، بل نبذوا الشريعة بأسرها، فنسخ القرآن كل ذلك، وصدق التوراة والإنجيل، وكذّب ما خلطوه من إلقاء الشياطين، وتحريفهم فيهما.

ويشبه ذلك ما بيّنه مما أخفوه، وأظهروا خلافه كسبب موت موسى قبل بلوغه الأرض المباركة الموعودة كما مرّ. وقال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

أى: لا يذكر كل خيانتكم، كما قال في آية قبلها.

وأتمّ هذا البيان بذكر ما كتموه من أمر الكعبة، ومن أمر إبراهيم، وإسماعيل، وهاجر عليهم السلام وغير ذلك».(١)

قرائن تصرف الآية إلى نسخ الشرائع السابقة:

هذا، ولو رجعنا إلى نظم الكلام، وسياق الآيات، في سورة النحل، أو في سورة

---

(١) عبد الحميد الفراهي، كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ- مخطوط.

البقرة، على السواء، لوجدنا تأويل الآيتين إلى نسخ آيات القرآن، بعضها ببعض، لا ينسجم مع ما بين أيديهما، وما خلفهما من الآيات.

فالآيات التي تحيط بهما تجرّ الباحث جرّاً إلى تأويل النسخ والتبديل المذكورين في الآيتين إلى نسخ القرآن وتبديله لما بدّله أهل الكتاب وغيّروه من دين الله، ولما انغمس فيه المشركون من خرافات وضلالات، وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم خليل الله!

فأما آية سورة البقرة، فجاء قبلها قوله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٠٥].

وجاء بعدها بثلاث آيات قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٠٩].

تلك جارات آية النسخ، وهي الجارات ذات القربى، وهي صريحة في أن أهل الكتاب والمشركين كانوا يبذلون أقصى جهودهم ليمنعوا المسلمين ذلك الخير السابغ الذي أُفيض عليهم من ربهم، وكانوا يودون أن يفتنوهم عن قرآنهم، بحجة أنه يخالف كتب الأنبياء، وينسخ كثيراً من عقائدها وشرائعها، فإذا كان هذا الكتاب ينسخ كتب الله الذي جاءت بها رسله وأنبياؤه، فهو كتاب باطل،من غير شك.

كانوا يقولون هذا، مع أن قلوبهم كانت تشهد أن الذي جاء به القرآن هو الحق، حيث قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وكانوا يعرفون جيداً أنه مانسخ من كتبهم إلا ما ألقى الشيطان فيها من آيات الشرك، حيث قال تعالى:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

قرينة أخرى:

وأما الجارات الجنب لتلك الآية، التي تقود الباحث إلى القول بأن النسخ المذكور في الآية هو نسخ تحريفات اليهود والنصارى في كتبهم، ونسخ الخرافات والأباطيل التي أدخلوها في دينهم، فهي كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٨٩-٩١].

أي: قال أهل الكتاب حينما دعوا إلى الإيمان بهذا القرآن: نحن نؤمن بما أنزل علينا، ولن نؤمن بهذا الكتاب الذي ينسخ كتابنا، مع أن هذا الكتاب جاء وفقا لما بشرت به كتبهم، وهم عرفوا ذلك معرفة لا يشوبها شك. وكان من علامات هذا النبي وهذا الكتاب في كتبهم أنه يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. ويحل لهم الطيبات التي حرمت عليهم بسبب ظلمهم.

قرينة ثالثة:

وقال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٢٠].

فاليهود والنصارى قد شنّوا غارة شعواء على القرآن، وكادوا يتميّزون من الغيظ،

وكانوا يريدون من نبي الإسلام أن يتبع ملتهم، وما ملّتهم؟

كانت ملّتهم عبارة عن أهوائهم وتحريفاتهم وجاهليّاتهم، والقرآن جاء يحمل نور العلم، ويبدّد ظلمات الجاهلية، وينسخ ما أدخلوا في كتبهم من الخرافات والأهواء.

ومن تلك الخرافات والأهواء عدولهم عن الكعبة المشرفة، التي هي قبلة أنبيائهم ورسلهم جميعاً، إلى بيت لم يكن من القبلة في شيء.

قرينة رابعة:

وقال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [١٤٤-١٤٥].

نسخت تلك الآيات التوجه إلى بيت المقدس، وهو أيضاً من تحريفات أهل الكتاب، فإن القبلة هو المسجد الحرام، وهو قبلة للناس جميعا، منذ بناه سيدنا إبراهيم مع ابنه سيدنا إسماعيل، عليهما ألوف التحية والتسليم، ولكن أهل الكتاب عدلوا عنه بغياً وعدواً، عدلوا عنه حسداً لبني إسماعيل، وا تخذوا بيت المقدس قبلة ومصلى.

فبيت المقدس لم يكن قبلة مشروعة من الله، وإنما هو مسجد من المساجد بُني في اتجاه الكعبة، وقد بناه سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، مثلما بنى مسجد المدينة سيدنا محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، وإنما الأحبار والرهبان هم الذين أضلوا قومهم، وولّوهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وقد أُمِروا بها على لسان أنبيائهم جميعاً.

ونبينا عليه السلام لم يكن على علم بهذا الأمر قبل نزول آيات القبلة، ففعل مثلما كان يفعله أهل الكتاب، وكان من دأبه أنه كان يتبع ما عليه أهل الكتاب، في الأمور التي لم ينزل عليه فيها وحي من الله.

والله سبحانه وتعالى أقرّ رسوله على هذا الوضع لفترة، وأخّر الوحي بتحويل القبلة لحكمة ذكرها في آيات تحويل القبلة، حيث قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الحجة على تحريفاتهم في أمر القبلة:

والحجة على كونه من تحريفات أهل الكتاب موجودة في نفس السياق، حيث قال تعالى:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [١٤٤-١٤٥].

أي: أهل الكتاب يعرفون جيداً أن القبلة المشروعة، التي ارتضاها الله لعباده، هي الكعبة، وأن التوجه إلى بيت المقدس كان نتيجة لأهوائهم، ولم يكن يمتّ بصلة إلى الحقّ.

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [١٤٦-١٤٧].

أي: العلماء الصالحون الراسخون من أهل الكتاب يعرفون أن القبلة المشروعة، التي ارتضاها الله لعباده هي الكعبة، وهم لا يعرفون تلك القبلة معرفة موضوعية جافّة، كما يعرف الطالب مبادئ الفيزيا، أو مبادئ الهندسة، بل يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، يعرفونها معرفة فيها حرارة وحفاوة، وفيها سكينة وحلاوة، فهم يطيبون بها نفساً، ويقرّون بها عيناً، كما يقرّ الوالد الحنون عيناً، إذا وجد وحيده، بعد ما فقده دهرا، واستيأس منه يأساً!

وكان هناك فريق من أهل الكتاب يكتمون هذا الحق، مع أنهم يعلمونه علماً لا يشوبه شك. وكانوا يضلون الناس ويقولون: بيت المقدس هو الذي بناه إبراهيم دون الكعبة، وإبراهيم سكن الشام دون مكة، والذي كان معه في بناء البيت، هو إسحاق وليس إسماعيل، فكانوا يضجون، ويصيحون، وينشرون الشبهات، ويثيرون الزوابع على تحويل القبلة، ولم يكن وراء هذه الضجات والصيحات إلا البغي والحسد!

وهذا هو السرّ في أن الله شدد عليهم اللوم والتعنيف، وصبّ عليهم اللعنة صباً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [١٥٩].

وبالجملة فالقرآن حينما نسخ الشرائع السابقة، إنما نسخ ما دخل فيها من أهواء الناس، ومن إلقاءات الشيطان، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

إذاً، فالنسخ لا ينصبّ إلا على البدع والخرافات، التي تتسرب إلى شرع الله، فتكدّر صفوه، وتطمس نوره، وتذهب بنقائه، وتجعل المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وتترك الناس حيارى، يعمهون في الغيّ، فالله سبحانه وتعالى يرحم عباده، وينزل شرعه من جديد، وينسخ ما كان قبله مما التبس فيه الحق بالباطل.

عودة ابن جرير إلى سياق الآيات:

ونرى ابن جرير يؤول آيتي النسخ والتبديل إلى النسخ والتبديل في القرآن، وذلك من جرّاء تلك الروايات والآثار التي تزاحمت وتواطأت على إثباته في القرآن، فاستسلم لها على الرغم من ضعفها، وعلى الرغم مما يكتنفها من إشكالات!

ولكنه حينما خلص من آية النسخ إلى ما بعدها من قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧].

قال ما كان يملي عليه سياق الآيات ونظم الكلام، فإنه لم يكن هناك من الروايات والآثار ما يحجزه عن مراعاة نظم الكلام، فقال:

«وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمداً ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرَهم بما شاء ونهيَهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ وفيما أترك فلا أنسخ، من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يهولنكم خلاف مخالف لكم في أمري ونهيي وناسخي ومنسوخي، فإنه لا قَيِّمَ بأمركم سواي، ولا ناصر لكم غيري، وأنا المتفرد بولايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحد بنصرتكم بعزي وسلطاني وقوتي على من ناوأكم وحادَّكم، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم، حتى أُعلي حجتكم، وأجعلها عليهم لكم».(١)

وهنا نودّ أن نقول: إن من عادة القرآن أنه لا يقرن شيئاً بشيء إلا لمناسبة بينهما، فما مناسبة أن تتحدث آية عن وقوع النسخ في القرآن، وعن نسخ الآيات بعضها بعضا، وآية أخرى في جنبها تذكر نسخ القرآن لما سبقه من الكتب والشرائع؟

فهو منسوخ أولاً، لكونه نسخ بعضه بعضا، وناسخ ثانياً، لكونه نسخ الشرائع السابقة.

أليس هناك اقتضاب واضح في الكلام، إذا ذكر الأمران معاً؟ وما عهدنا في كتاب الله مثل هذا الاقتضاب، وكان الأولى بالإمام الطبري أن ينصرف عن روايات تفسد معنى الآيات، وتبدّد نظمها، وكان عليه أن يؤول الآيات تأويلاً يكشف عن حسن نظامها، وتمام الانسجام فيها.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٢/ ٤٨٨.

تأويل آية النسخ في ضوء سياقها:

والآن نرجع إلى تأويل آية النسخ في ضوء سياقها، فنقول وبالله التوفيق: —

التأمل في الآيات وسياقها يوحي إلينا أن الشرائع السابقة كانت على قسمين:

قسم منها كان باقياً معروفاً عند الناس، وقسم منها قد نُسِي، كما نصّ عليه القرآن، حيث قال:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٣-١٤].

ثم هذا القسم الثاني كان على قسمين: قسم منه كان ساري المفعول، وكان صالحا لأن يبقى في شريعة الإسلام، وقسم منه قد انتهى وقته، وفقد صلاحيته لهذا الزمان.

فالذي كان صالحاً للبقاء، أحياه القرآن وأبقاه، والذي كان قد نُسِي، وقد انتهى وقته، تركه القرآن كما كان، حيث كان في عالم النسيان. وقد أشار إليه القرآن حيث قال:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة: ١٥].

وقد جاءت الآية على أسلوب قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

أي: فلما نسوا تلك الآيات أنساهم الله، وعلى هذا قيل: (أَوْ نُنْسِهَا)

ومما نسي أهل الكتاب، فأنساهم الله، ثم أتى بمثله قوله تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وأما القسم الأول، الذي كان باقياً معروفاً عند الناس، فهو أيضاً على قسمين: قسم منه كان صالحاً لأن يبقى في شريعة الإسلام، فأبقاه القرآن، وأقرّه. وقسم منه قد تلاعبت به الأهواء، وغيّرته وبدلته عما كان عليه، أو كان مما قد ابتدعه الناس، ولم يكن مما أنزل الله، فنسخه القرآن،وجاء بخير منه.

فالذي نسخه القرآن من تلك الشرائع، جاء بخير منه، والذي أحياه، وأعاده، وقد نُسِي جاء به، أو بمثله. فذلك قوله تعالى:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

رواية مسلم في إنساء السورة:

وأما ما روى الإمام مسلم، من أن المراد به إنساء سور القرآن، حيث قال: حدثني سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن داود عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها غير أنى قد حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها غير أنى حفظت منها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة».[1]

نقد الرواية:

فتلك رواية لا تصح سنداً ولا معنى، حيث جاءت عن طريق سويد بن سعيد، وهو سويد بن سعيد بن سهل بن شهريار الهروي، أبومحمد الحدثاني الأنباري، وقد تُكُلّم فيه.

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٠٠/ ٢٤٦٦.

قال عبد الله بن علي بن المديني: سئل أبي عن سويد الأنباري فحرك رأسه وقال ليس بشيء.

وقال الضرير: إذا كانت عنده كتب فهو عيب شديد.

وقال: هذا أحد رجلين، إما رجل يحدث من كتابه أو من حفظه، ثم قال: هو عندي لا شيء.

وقال يعقوب بن شيبة: صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعد ما عمي.

وقال أبو حاتم: كان صدوقاً، وكان يدلس ويكثر ذلك، يعني التدليس.

وقال البخاري: كان قد عمي فتلقّن ما ليس من حديثه.

وقال النسائي: ليس بثقة ولا مأمون. أخبرني سليمان بن الأشعث قال سمعت يحيى بن معين يقول: سويد بن سعيد حلال الدم!

وقال صالح بن محمد البغدادي: صدوق إلا أنه كان قد عمي فكان يُلقَّنُ أحاديث ليست من حديثه[1].

وقال عنه ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمعضلات.

روى عن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً».

ومن روى مثل هذا الخبر الواحد عن علي بن مسهر يجب مجانبة رواياته، هذا إلى ما يخطئ في الآثار ويقلب الاخبار. سمعت محمد بن زكريا بن الحسين يقول: سمعت أبا الحسن علي بن عبدالله البصري يقول: سمعت عثمان بن خرزاذ الانطاكي يقول: سمعت يحيى بن معين يقول: لو كان لي فرس ورمح لكنت أغزو سويد بن سعيد.[2]

---

(١) تهذيب الكمال للمزي: ٣/ ٣٣٨/ ٢٦٢٨.

(٢) كتاب المجروحين، ابن حبان: ١/ ٣٥٢.

رواية الطبراني في إنساء السورة:

وهناك رواية أخرى رواها الطبراني من هذا النوع، قال: حدثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان من الأنصار سورة، أقرأهما رسول الله ﷺ، وكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا له ذلك، فقال رسول الله ﷺ: إنها مما نسخ وأنسي، فالهوا عنها، فكان الزهري يقرؤها: «ما ننسخ من آية أو ننسها» بضم النون خفيفة.(١)

نقد الرواية:

تلك الرواية جاءت عن طريق سليمان بن أرقم، وهو سليمان بن أرقم، أبو معاذ البصري، مولى الأنصار، وقيل: مولى قريش، وقيل: مولى قريظة أو النضير.

قال عباس الدوري، عن يحيي بن معين: ليس بشيء، ليس يساوي فلساً.

وقال عثمان بن سعيد ، عن يحيى: ليس بشيء.

وقال عمرو بن علي: ليس بثقة، روى أحاديث منكرة.

قال: وقال محمد بن عبدالله الانصاري: كانوا ينهونا عنه ونحن شباب، وذكر عنه أمرا عظيما.

وقال البخاري: تركوه.

وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا داود عن سليمان بن أرقم، قال: متروك الحديث.

وقال أبو حاتم، والترمذي، والنسائي، وعبد الرحمان بن يوسف بن خراش، وغير واحد: متروك الحديث.

وقال أبو زرعة: ضعيف الحديث، ذاهب الحديث.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٠/ ٤٣٠/ ١٢٩٦٣.

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: ساقط.

وقال أبو أحمد بن عدي: عامة ما يرويه لا يُتابع عليه.[1]

رواية النسائي في إنساء الآيات:

وهناك رواية رواها النسائي في إنساء الآيات، قال: أخبرني معاوية بن صالح الاشعري قال: ثنا منصور وهو ابن أبي مزاحم قال ثنا أبو حفص عن منصور عن عاصم عن زر قال قال أبيّ بن كعب: كم تعدون سورة الأحزاب آية؟ قلنا: ثلاثة وسبعين. فقال أبيّ: كانت لتعدل سورة البقرة، ولقد كان فيها آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم.[2]

نقد الرواية:

ذلك ما رواه النسائي في إنساء الجزء الأكبر من سورة الأحزاب، أى: إنساء (٢١٣) آية من مجموع (٢٨٦) آية، أى: إنساء ما يقارب ثلاثة أرباع مما نزل من هذه السورة!

والرواة الذين رووا هذا الحادث الكبير ليسوا ممن تقوم بهم حجة في مثل هذا الأمر الجلل، ولا فيما دونه، فمن رواته عاصم، وهو عاصم بن بهدلة الأسدي أبوالنجود مولاهم الكوفي أبو بكر المقرئ. تكلم فيه ابن علية فقال: كأن كل من اسمه عاصم، سيئ الحفظ!

وقال ابن خراش: في حديثه نكرة.

وقال العقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ!

وقال الدار قطني: في حفظه شيء.[3]

ومن رواته أيضاً، أبوحفص، وهو عمر بن عبدالرحمن بن قيس الأسدي،

---

(١) تهذيب الكمال للمزي: ٣/ ٢٦٢/ ٢٤٧٥.

(٢) سنن النسائي الكبري: ٤/ ٢٧١/ ٧١٥٠.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٥-٣٦.

أبو حفص الكوفي الأبّار نزيل بغداد.

قال ابن عدي: حدثنا ابن حماد قال ثنا عباس قال: سمعت يحيى بن معين يقول: عمرو بن خالد كوفي كذّاب غير ثقة ولا مأمون حدث عنه أبو حفص الأبّار وغيره.(١)

فما قيمة هذه الرواية، إذا كان أحد رواتها ليس فيه إلا سوء الحفظ! والآخر لا يفرق بين الكذابين وغير الكذابين! ويتلقف الروايات منهم جميعا.

رواية الصنعاني في إنساء الآيات:

ولقد روى عبدالرزاق الصنعاني نحو تلك الرواية بسند آخر، وهي كما يلي:

عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أبي النجود عن زر بن حبيش قال: قال أبي بن كعب: كأين تقرأون سورة الاحزاب؟ قال قلت: بضعاً وثمانين آية. قال لقد كنا نقرأها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو سورة البقرة، أو هي أكثر، ولقد كنا نقرأ فيها آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم)(٢)

نقد الرواية:

جاءت تلك الرواية عن قتادة عن أبي النجود، وهو عاصم بن بهدلة الأسدي مولاهم.

وقد أسلفنا ذكر ما كان يتسم به من سوء الحفظ آنفا، والذي روى عنه هو قتادة بن دعامة، وكان رأساً في بدعة!

قال حنظلة بن أبي سفيان:كان طاووس يفر من قتادة، وكان قتادة يُرمى بالقدر.

وقال علي بن المديني: قلت ليحى بن سعيد: إن عبدالرحمن يقول: اترك كل من كان رأسا في بدعة يدعو إليها، قال كيف تصنع بقتادة وابن أبي رواد وعمر بن ذر؟ وذكر قوما ثم قال يحيى: إن تركت هذا الضرب تركت ناساً كثيراً!

وقال معتمر بن سليمان عن أبي عمرو بن العلاء: كان قتادة وعمرو بن شعيب لا

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال: ٥/ ١٢٣، الضعفاء الكبير للعقيلي، رقم الصفحة: ٣/ ١١٥٥.

(٢) مصنف عبد الرزاق، باب تعاهد القرآن ونسيانه: ٣/ ٣٦٥/ ٥٩٩٠.

يغتّ عليهما شيء، يأخذان عن كل أحد!

وقال جرير عن مغيرة عن الشعبي: قتادة حاطب ليل!

وقال أبو داود حدث قتادة عن ثلاثين رجلاً لم يسمع منهم.(١)

وتلك الرواية أيضاً حدثها قتادة عن أبي النجود، ولم يسمعها منه؛ فإنه ليس من تلاميذه، ولم يثبت له لقاء ولا سماع منه!

فهل نقبل تلك الروايات التي تحدّثنا بمثل ذلك الحادث الكبير العجيب، الذي ليس له نظير في النبوات السابقة، تحدّثنا بحادث مخالف لسنة الله في الوحي؟! هل نقبل تلك الروايات في ذلك الخطب الجلل! مع ما فيها من تلك البلايا، وتلك المناكير الكُبر؟

تلك أمثلة مما روي في إنساء الآي والسور، ويمكن أن نقيس عليها سائر الروايات، التي جاءت بخصوص إنساء ما أُوحي إلى رسولنا عليه السلام، من سور القرآن، وآياته. فكلها مكذوبة موضوعة!

وبعد ما درسنا آية النسخ في سورة البقرة في ضوء سياقها، نأتي إلى آية سورة النحل، لندرسها في ضوء سياقها كذلك.

آية سورة النحل في ضوء سياقها:

سبق أن عرفنا آراء فريق من المفسرين في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

فقد فسروا تلك الآية، كما فسروا آية سورة البقرة. فسروهما، وكأنهما آية واحدة، وجعلوا الآيتين دليلاً على وقوع النسخ في القرآن. وهم لم ينظروا إلى سياق هذه الآية، كما لم ينظروا إلى سياق أختها من سورة البقرة. فما سياق هذه الآية إذاً؟

إذا أردنا أن نعرف سياق هذه الآية، فلنعرف أولاً أن هذه السورة في مجموعها

---

(١) تهذيب التهذيب: ٨/ ٣١٧، ٣١٩.

بيان وتفصيل لنعم الله على الناس، فقد فصلت فيها أنواع وأصناف من نعم الله الجسام، وجاءت في أثناء ذكر النعم تلك الآية العظيمة:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٨].

قال صاحب الظلال، وهو يشير إلى تلك الظاهرة:

«تتراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر، والتوجيهات إليها، والتعقيب بها في مقاطع السورة، وتضرب عليها الأمثال، وتعرض لها النماذج، وأظهرها نموذج إبراهيم ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢١] كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والظلال، والعبارات والإيقاعات، والقضايا والموضوعات».(١)

آيات تحدّد اتجاه السورة:

وإذا نظرنا إلى سياق الآية، طالعتنا تلك الآيات، التي تساعدنا في تحديد اتجاه السورة:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [٣٥].

تفيد تلك الآية أن:

❖ المشركين كانوا يعبدون من دون الله آلهة، وكانوا يجادلون في أمرهم، إذا نهوا عن عبادتهم، وكانوا يقولون: نعبدهم بأمر الله، ومشيئته، ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء!

❖ وتفيد أنهم قد حرموا على أنفسهم كثيراً من نعم الله، وكانوا يجادلون في أمرها، وكانوا يقولون، ما حرمناها إلا بأمر الله، ولو شاء الله ما حرمنا من دونه من شيء!

❖ وتفيد أن التحريم والتحليل من اختصاص الخالق، ولا يجوز لأحد من الخلق أن يحل ما حرّم الله، أو يحرم ما أحل الله، ومن حرم شيئاً من نعم الله فقد أشرك.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة النحل: ٤/ ٢١٥٩.

❖ وتفيد أن تحريم ما أحل الله من طبيعة الشرك، فالذين خلوا من قبلهم فعلوا مثل ما يفعلون، ورسلهم بلغوهم البلاغ المبين، وحذروهم، ولكنهم أصروا، واستكبروا، مثلما يصرون، ويستكبرون.

وقال تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [٥٣-٥٦].

تنبّه تلك الآيات هؤلاء المشركين على ضلالهم وسفاهتهم، حيث ينهلون، ويرتوون من نعم الله، ثم يعبدون آلهة من دون الله، وإذا مسّهم الضرّ يجأرون إلى الله، ثم إذا كشف الضرّ عنهم عادوا إلى شركهم، وكفروا بأنعم الله. هم يتمتعون برزق الله، ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم! ولقد فصل ذلك في سورة الأنعام، فقيل:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [١٣٦].

وقال تعالى:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [١١٤-١١٨].

حقائق عن دين المشركين:

تكشف تلك الآيات من سورة النحل عدة حقائق عن دين المشركين، وتسلط أضواء على ما كانوا يتخبطون فيه من ظلمات البدع والخرافات، وهي كما يلي:

• حرم المشركون على أنفسهم كثيراً مما أحل الله لهم من طيبات النعم.

• تلك الفضيحة المخزية كانت تخص أهل الكتاب، ثم أعْدَت المشركين من أهل مكة وما حولها، فإنهم حينما حرمت عليهم كثير من الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم، ما أحبوا أن ينعم بها الآخرون، وأرادوا أن يلقوهم في الشقاء الذي ضُرب عليهم، وهكذا وقع المشركون في الفضيحة التي وقع فيها أهل الكتاب.

• كان من شقائهم أنهم افتروا على الله الكذب، وقالوا بغير علم ومن غير حق: هذا حلال، وهذا حرام!

• لقد أحل الله لهم الأنعام كلها، ما عدا الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، ولكنهم كفروا بأنعم الله، وحرموا منها ما شاءوا، وأحلوا ما شاءوا، ولقد ذكر بعض تفاصيله في سورة الأنعام، حيث قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[١٣٨-١٤٤].

وأيضاً ذكر شيء مما حرموا على أنفسهم في سورة المائدة، حيث قال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [١٠٣].

فشاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن تخرجهم من تلك الضلالات والخرافات، فنسختها نسخاً، وبدّلت آيات الإيمان مكان آيات الكفر. وكان يجمل بهؤلاء المشركين أن يغتبطوا بهذا الخير الذي أفيض عليهم، ويخرّوا سجّداً لله شاكرين على ما أكرمهم، وأنعم عليهم، ولكنهم نُكسوا على رؤوسهم، وجادلوا الرسول، ولم يحبوا أن يخرجوا من ضلالاتهم، وخرافاتهم، فذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [١٠١-١٠٢].

الفرق بين آية البقرة وآية النحل:

فآية سورة البقرة مدنية، وهي تذكر نسخ بدع أهل الكتاب، وأهوائهم، وأباطيلهم، وتحريفاتهم في كتبهم. وتحذّر المؤمنين ألا يُلقوا سمعهم إلى ما يوسوسون به ضد ما أنزل على رسولهم، ولا يتأثروا بما يلقون إليهم من شبهات، فهم ليسوا صادقين فيما يقولون، وليسوا ناصحين لهم إذ يحاجون الرسول فيما أُنزل إليه من شرع يخالف شرعهم الذي ابتدعوه، وليس لهم من الله فيه برهان.

وأما آية سورة النحل، فهي آية مكية، وهي تذكر نسخ ضلالات المشركين في مكة وما حولها، وتذكر ما بدّله الله من شرائع وأحكام مكان خرافاتهم، وأهوائهم، وأباطيلهم في دينهم. وتذكر ضجيجهم، وامتعاضهم لهذا التبديل، فقوله تعالى: (إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) فيه غضب وامتعاض وتهجّم، وليست فيه سخرية، كما قيل.

وأما النسخ في القرآن، فلا تشير إليه الآيتان، لا من قريب، ولا من بعيد. ولا توجد في القرآن آية تشير إلى ذلك.

فالأصل في النسخ أنه لا يكون فيما أنزل في نحر النهار غضّاً طريّاً، وإنما يكون في

حكم قديم قد أكل عليه الدهر وشرب، وقد مرّت عليه الأجيال، وتلاعبت به الأيام، حتى تغيّر وتنكّر عما كان عليه.

وبلفظ آخر، فالنسخ محله الشرائع القديمة السابقة، دون الشريعة الحاضرة المحدثة. والقرآن نزل ناسخا، لا منسوخا. هو ناسخ للشرائع السابقة، وفي نفس الوقت هو محكم، ومعمول به إلى يوم القيامة، وما جرى النسخ منه على حرف، ولا على كلمة.

ثم الأصل في شرع الله أنه لا ينسخه، إلا مَنْ شرعه، وأمر به. فالله هو الذي يأمر بما يشاء، وينسخ ما يشاء، والقول بنسخ ما أنزل الله يحتاج إلى دليل صريح قطعي من الوحي المتلو، الذي لا يتطرق إليه شكّ. وليس لشخص، ولا لمجموعة من الأشخاص أن يحكموا على آية بالنسخ.

وما علمنا فيما صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال بنسخ آية من القرآن. وأما ماروي عن بعض الصحابة أنهم قالوا بنسخ بعض الآيات، فليس بشيء متين، ومن يدري؟ لعل بعض الرواة تَقوّلوا عليهم، وأنطقوهم بما لم يَنطقوا! وليس ذلك بدعا من القول، فهو معلوم، ومعروف عند أهل العلم.

لا اجتهاد في أمر النسخ أصلاً:

ولا نَنْسَ أبداً أن النسخ ليس أمراً اجتهادياً، وإنما هو أمر توقيفي، فلا اجتهاد فيه أصلا، ولا ندري كيف استساغ من استساغ من العلماء أن يتولوا هذا الأمر بأنفسهم، ويحكموا على الآيات بالنسخ، فكلما أحسّوا إشكالاً أو اختلافاً بين آيتين، ولم يوفقوا إلى التوفيق بينهما، قالوا: هذا ناسخ، وذاك منسوخ! وهكذا جعلوا جزءاً كبيراً من القرآن منسوخا!

وكان أولى بهم، إذا لم يوفقوا إلى التوفيق بين الآيتين، أن يحملوه على عجزهم، وقلة فهمهم، دون أن يحكموا عليه بالنسخ. فإن أيّ إشكال، لا يكون إشكالاً عند الجميع، وإن أحسّ شخص اختلافاً بين آيتين، فقد لا يحسّه الآخرون، بل يتعجبون إذا سمعوا ذلك.

لا حكم للروايات على الآيات:

ومن الخطأ أن يقال عن شيء: إنه من الوحي الذي بقي حكمه، ونسخت تلاوته!

وذلك استناداً إلى روايات ضعيفة، لا نكاد نملك الجزم بصحتها، بل الغالب فيها أنها من وهم الرواة، أو من وضعهم واختلاقهم!

فهذا النوع من الوحي غير معهود في كتاب الله. وليس لأحد أن يقول عن شيء لا يوجد في كتاب الله: إنه كان في كتاب الله، ثم نُسخ، مثلما قال ابن العربي المالكي:

«قد ينسخ الأمر أصلاً، فلا يبقى له ذكر، لا في اللفظ، ولا في المعنى. فقد روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: إن سورة نحواً من التوبة نزلت، ثم رفعت».[1]

ومثلما قال صاحب أضواء البيان:

«ومثال نسخ الكتاب بالسنة: نسخ آية عشر رضعات تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. ونسخ سورة الخلع وسورة الحفد تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. وسورة الخلع وسورة الحفد هما القنوت في الصبح عند المالكية. وقد أوضح صاحب (الدر المنثور) وغيره تحقيق أنهما كانتا سورتين من كتاب الله ثم نُسختا».[2]

فمثل هذا الكلام لا نعدمه في الكتب، وذلك بناءً على آثار، وروايات لا تخلو من آفات، ولا تخلو من أسقام، وهي لا يمكن الجزم بصحتها بحال من الأحوال.

وضغث على إبالة أن كثيراً من العلماء يسمّون أخبار الآحاد «السنة المتواترة» مع ما فيها من علل وأسقام، مثلما رأينا عند صاحب أضواء البيان، فكل ما ذكر كونه من القرآن، ثم ذكر نسخه، لم ترد به السنة المتواترة أبداً، وإنما هي أخبار تحفّ بها احتمالات وإشكالات، ومن أراد أن يثبتها من السنة المتواترة، فدونه خرط القتاد.

فكتاب الله هو الذي جاءنا عن طريق التواتر، جاءنا بتواتر لا يماثله أيّ تواتر. جاءنا عن طريق الأجيال المتكاثرة المتتابعة، لا عن طريق أناس معدودين، ولا عن

---

(١) ابن العربي، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ص: ١٣.

(٢) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان: ٢/ ٤٥١.

طريق الآحاد. والأخبار، سواء كانت متواترة أو آحادية، ليس من شأنها أن تحكم بكون شيء في كتاب الله، ولا أن تحكم بنسخ شيء منه.

شتّان بين التواترين!

ولا يخدعنّنا لفظ التواتر في الأخبار؛ فإن الأخبار، وإن كانت متواترة، لن تبلغ ذلك المستوى الباذخ الشامخ من التواتر، الذي يتميز به القرآن، فلا مقارنة بين التواترين، ومن هنا ليس للأخبار حكم في شأن القرآن، لا نسخاً ولا إثباتاً.

قال ابن الجوزي، وهو يذكر الشروط المعتبرة في ثبوت النسخ، وكان مصيباً فيما قال:

والشرط الخامس: أن يكون الطريق الذي ثبت به الناسخ مثل الطريق الذي ثبت به المنسوخ، أو أقوى منه، فأما إن كان دونه فلا يجوز ان يكون الأضعف ناسخاً للأقوى[1].

فلنعلم أن الروايات مهما بلغت في قوتها وتواترها، فهي دون القرآن، والفرق بين الآيات والروايات مثل الفرق بين السمك والسماك، وبين الثرى والثريّا! فلا مبرر للاحتجاج بالروايات على نسخ الآيات.

لا ناسخ للقرآن غير الله:

وربنا سبحانه وتعالى لم ينسب النسخ إلا إلى نفسه، حيث قال:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

وقال تعالى:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

---

(١) ابن الجوزي، نواسخ القرآن، باب شروط النسخ: ١/ ٩٧.

فالله سبحانه وتعالى هو الناسخ، حيث تولى أمر النسخ بنفسه، ونسخ ما أراد نسخه من الشرائع السابقة المحرفة، ونسخ ما دخل في حياة الناس من البدع والخرافات والأهواء، التي ما أنزل بها من سلطان، نسخ كل ذلك عن طريق هذا الكتاب، وانتهى الأمر.

ومن الخطأ الفاحش أن نتولى نحن قضية النسخ من غير حق، ونتحكم فيه من غير علم، ونحوّل هذا النسخ إلى القرآن ذاته، من غير أن ننظر في سياقه، أو ننظر في عواقبه، ونجعل بعض آياته ناسخة، وبعضها منسوخة، ثم نختلف فيما بيننا، فنقول عن آية: هذه منسوخة، ويقول الآخر: لا، تلك محكمة، وليست منسوخة. وتكون الآية الواحدة منسوخة عند قوم، ومحكمة عند آخرين!

وإن فعلنا ذلك، فهو يتعارض مع أهداف القرآن صريحاً. ولنا العبرة في قوله تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالقرآن لا يحمل بين دفّتيه شيئاً منسوخاً، بل جاء كله ناسخاً لغيره، وما جاء إلا ليجمع المسلمين على الحق، ويلمّ شعثهم، لا ليبدّد شملهم، ويفرّق أمرهم.

وإذا كنا مختلفين في أصل القرآن، كيف يتأتى لنا الاعتصام بحبل الله جميعاً، وهو من أوجب الواجبات علينا معشر المؤمنين، حيث أمرنا الله به بكل تأكيد؟

ألم نجعل القرآن عضين؟

وإن اختلف العلماء في أصل القرآن، واختلفوا في آياته، هل هي محكمة أم منسوخة؟ وهل هي معمول بها أم غير معمول بها؟ ألا يكون ذلك شبيهاً بما فعله أهل الكتاب، حيث جعلوا كتابهم عِضين، فعملوا ببعضه، وانصرفوا عن بعضه؟ حيث قال تعالى:

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣].

قال ابن كثير في تأويل تلك الآية: أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه.

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهُود والنصارى[1].

وقال البغوي:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال الفراء: مجازه: أنذركم عذابًا كعذاب المقتسمين. حكي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ جزَّؤوه فجعلوه أعضاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم، ففرقوه وبدَّلوه[2].

فلنستعذ بالله من التشبه بأهل الكتاب، ولنستعذ به من أن نجعل القرآن عضين، فقد فعلنا ذلك، برب الكعبة، حينما قلنا بنسخ بعضه، وإنساء بعضه! فلنتب إلى الله مما سلف، ولنكن عند قوله تعالى في شأن المحسنين:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٥].

إن هذا القرآن جاء ليجمع الناس على كلمة سواء، وكان من شأنه أن يلمّ شعث المسلمين، ويكون مرجعاً لهم إذا تنازعوا في أمر، ولكن أنّى له ذلك إذا كان هو نفسه موضع خلاف بين علماء المسلمين!

فليكن في بالنا دائماً أن المقصود بالنسخ هي الشرائع السابقة، دون آيات القرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٤٩.

(٢) معالم التنزيل-الإمام البغوي: ٤/ ٣٩٣.

والله سبحانه نسخ بالقرآن الشرائع السابقة المحرّفة، نسخها لكونها قد التبس فيها الحق بالباطل، ونسخ به ما وقع فيه الناس من البدع والخرافات، وتقاليد الجاهلية، وتكفل بحفظ هذا القرآن، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وثبّته محكماً ومعمولاً به ما دامت السماوات والأرض.

وجوب علم الناسخ والمنسوخ!

قال السيوطي:

قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ. وقد قال عليّ لقاض: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكتَ وأهلكت[١].

وقال قتادة: روي عن علي بن أبي طالب (رض) أنه دخل يوماً مسجد الجامع بالكوفة فرأى فيه رجلا يعرف بعبد الرحمن بن دأب، وكان صاحباً لأبى موسى الأشعري، وقد تحلق عليه الناس يسألونه، وهو يخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر، فقال له علي (رض): أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال هلكت وأهلكت[٢].

ذكر قتادة والسيوطي تلك الرواية بدون إسناد، وكأن الأمر عندهما ثابت متفق عليه، وليس بحاجة إلى بحث ودراسة، وذلك دأب معظم العلماء، حيث يثبتون الرواية، ويهملون أسانيدها، إلا أن أبا جعفر النحاس، وابن الجوزي ذكرا في كتابيهما عن الناسخ والمنسوخ، روايات بأسانيدها، فلا بأس بأن تكون لنا وقفات عندها، حتى نعجم عودها، ونخبر خبرها.

رواية أولى ونقدها:

قال أبو جعفر أحمد بن محمد حدثنا محمد بن جعفر بن أبي داود الأنباري بالأنبار قال حدثنا يحيى بن جعفر قال حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن عطاء بن

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، النوع السابع والأربعون.

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي، الناسخ والمنسوخ: ١/ ٨-٩.

السائب عن أبي البختري قال: دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد، فإذا رجل يخوف الناس، فقال ما هذا؟ فقالوا رجل يذكّر الناس، فقال: ليس برجل يذكّر الناس ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان فاعرفوني!

فأرسل إليه أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال لا قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه.

تلك رواية جاءت عن طريق عطاء بن السائب، فمن هو؟

«قال ابن علية قال لي شعبة ما حدثك عطاء بن السائب عن رجال زاذان وميسرة وأبي البختري فلا تكتبه، وما حدثك عن رجل بعينه فاكتبه.

«وقال وهيب: لما قدم عطاء البصرة قال: كتبت عن عبيدة ثلاثين حديثاً، ولم يسمع من عبيدة شيئاً! وهذا اختلاط شديد.

وقال أبو داود: وقال شعبة: حدثنا عطاء بن السائب وكان نسيّاً. وقال ابن معين: لم يسمع عطاء بن السائب من يعلى بن مرة. وقال ابن معين: عطاء بن السائب اختلط وما سمع منه جرير وذووه ليس من صحيح حديثه، وقد سمع منه أبو عوانة في الصحيح والاختلاط جميعاً ولا يحتج بحديثه. وقال أحمد بن أبي نجيح عن ابن معين: ليث بن أبي سليم ضعيف مثل عطاء بن السائب، وجميع من سمع من عطاء سمع منه في الاختلاط، إلا شعبة والثوري.

وقال ابن عدي من سمع منه بعد الاختلاط في أحاديثه بعض النكرة[1].

رواية أخرى ونقدها:

وحدثنا محمد بن جعفر قال أخبرنا عبد الله بن يحيى قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان الثوري عن أبي حصين عن أبي عبدالرحمن السلمي قال انتهى علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رجل يقص، فقال: أعلمت الناسخ من المنسوخ؟ فقال لا فقال: هلكت وأهلكت!

---

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٧/ ١٨٤-١٨٣.

تلك الرواية جاءت عن طريق عبدالله بن يحيى، فمن هو؟

هو عبدالله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير المدني، عن هشام بن عروة، وغيره. وعنه إبراهيم بن المنذر.

ومن بلاياه: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة - مرفوعاً: من لم يجد صدقة فليلعن اليهود. قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات.

وقال أبو حاتم الرازي: متروك الحديث، وساق ابن عدي له أحاديث، ثم قال: عامتها مما لا يتابعه عليه الثقات(١).

رواية ثالثة ونقدها:

وحدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا محمدبن ديسم قال أخبرنا سليمان قال حدثنا شعبة عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: مر علي بن أبي طالب رضي الله عنه برجل يقص، فقال: أعرفت الناسخ والمنسوخ؟ قال لا قال: هلكت وأهلكت!

جاءت تلك الرواية عن طريق سليمان، وهو سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي الواشحي أبو أيوب البصري. وواشح من الأزد.

قال أبو عبيد الآجري: سمعت أبا داود يقول: كان سليمان بن حرب يحدّث بحديث، ثم يحدّث به كأنه ليس ذاك.

وقال الخطيب: كان يحدث على المعنى، فتتغير ألفاظ الحديث في روايته(٢).

رواية رابعة ونقدها:

قال أبو جعفر حدثنا محمد بن جعفر قال أخبرنا عبدالله بن يحيى قال أخبرنا أبو نعيم عن سلمة بن نبيط عن الضحاك بن مزاحم قال: مَرَّ ابن عباس بقاصٍّ يقص فركله برجله، وقال: أتدري ما الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت(٣).

---

(١) ميزان الاعتدال: ٢/ ٤٨٦/ ٤٥٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٣٣٤، تهذيب التهذيب: ٤/ ١٥٨.

(٣) أبوجعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ: ١/ ٦.

جاءت تلك الرواية عن طريق سلمة بن نبيط، وعبدالله بن يحيى، فعبدالله بن يحيى قد سبق الكلام عليه، وأما سلمة بن نبيط، فهو سلمة بن نبيط بن شريط بن أنس الاشجعي أبو فراس الكوفي.

قال عنه البخاري: يقال اختلط بأخرة[1].

رواية خامسة ونقدها:

قال ابن الجوزي: أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي قال أخبرنا عبد الله ابن محمد الصريفيني قال أخبرنا عمر بن إبراهيم الكتاني قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوي قال بنا زهير بن حرب قال حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن أن علياً عليه السلام مر بقاصّ فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت!

جاءت تلك الرواية عن طريق عبدالله بن محمد البغوي، فمن هو؟

قال أحمد بن علي السليماني الحافظ: البغوي يتهم بسرقة الحديث[2].

وقال ابن عدي: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز أبو القاسم البغوي ابن بنت أحمد بن منيع، وهو ابن أخي علي بن عبد العزيز، كان صاحب حديث وكان وراقاً من ابتداء امره، يورق على جده وعمه وغيرهما، وكان يبيع أصل نفسه في كل وقت. وسمعت إبراهيم بن محمد بن عيسى يقول: سمعت أبا أحمد بن عبدوس يقول لابنه أبي الطيب أحمد بن عبد الله: لا تكن مثل أبيك، هو دائماً بلا أصل يبيع أصل نفسه واتخذ لنفسك أصلاً.

وزاد ابن عدي فقال:

ووافيت العراق سنة سبع وتسعين ومائتين والناس أهل العلم والمشايخ معهم مجتمعين على ضعفه، وكانوا زاهدين في حضور مجلسه، وما رأيت في مجلسه قط في ذلك

---

(١) تهذيب التهذيب: ٤/ ١٤٠/ ٢٧٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤٥٥.

الوقت إلا دون العشرة غرباء بعد أن يسأل بنوه الغرباء مرة بعد مرة حضور مجلس أبيهم، فيقرأ عليهم لفظاً، وكان مُجّانهم يقولون: في دار ابن منيع شجرة تحمل داود بن عمرو الضبي من كثرة ما يروي عنه، وما علمت أحداً حدث عن علي بن الجعد أكثر مما حدث هو، وسمعه قاسم المطرز يوماً يقول ثنا عبيدالله العيشي، فقال قاسم في حرم من يكذب، وتكلم قومه فيه عند عبد الحميد الوراق ونسبوه الى الكذب وقال عبد الحميد هو أنغش له من أن يكذب أي، يحسن الكذب وكان بذيء اللسان يتكلم في الثقات، وسمعته يقول يوم مات المروزي: أنا قد ذهب بي عمي الى أبي عبيد القاسم بن سلام وعاصم بن علي وسمعت منهما، ولم يذكرهما قبل موت المروزي، فلما كبر وأسن ومات أصحاب الإسناد احتمله الناس واجتمعوا عليه ونفق عندهم ومع نفاقه وإسناده كان مجلس ابن صاعد أضعاف مجلسه، وقد حدث مما أنكرت عليه عن كامل بن طلحة عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن النبي ﷺ.........

والبغوي كان معه طرف من معرفة الحديث ومن معرفة التصانيف وهو من أهل بيت الحديث جده وعمه، وطال عمره، واحتمله الناس واحتاجوا إليه وقبله الناس[1].

رواية سادسة ونقدها:

قال ابن الجوزي: وأخبرنا محمد بن ناصر قال أخبرنا علي بن الحسين بن أيوب قال أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن شاذان قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد قال حدثنا أبو داود السجستاني قال حدثنا حفص بن عمر قال حدثنا شعبة عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: مر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على قاص يقصّ فقال: تعلمت الناسخ والمنسوخ؟ قال لا، قال: هلكت وأهلكت![2]

جاءت الرواية عن طريق النجاد، وهو أبوبكر أحمدبن سليمان بن الحسن بن إسرائيل، البغدادي الحنبلي النجاد.

---

(١) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال: ٤/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) ابن الجوزي، نواسخ القرآن: ١/ ١٠٥-١٠٦.

قال عنه الدارقطني: حدث النجاد من كتاب غيره بما لم يكن في أصوله[1].

وقال أحمد بن عبدان: هو لا يدخل في الصحيح[2].

تلك أسانيد تلك الروايات!! فهل هي بحيث يُبنى عليها أمر النسخ في الآيات؟

إشكالات تتعلق بمضمون الروايات:

وهنا يثور سؤال آخر: إذا كان هذا شأن علم الناسخ والمنسوخ في القرآن، وهو بتلك الأهمية البالغة في دين الله، فهل ثبت عن نبينا عليه الصلاة والسلام شيء بهذا الصدد؟ هل هو رغّب في تعلمه، وحذر من التلهي عنه؟ فإن نبينا عليه السلام ما ترك من خير إلا رغّبنا فيه، وما ترك من شرّ إلا حذّرنا منه.

فما أثر لنا شيء بهذا الصدد، ما أثر عن رسول الله، ولا عن خليفة رسول الله، ولا عن خليفة خليفته، ولا عن الآخرين من كبار الصحابة، وهم كُثُر، وإنما رُوي ما رُوي عن سيدنا عليّ فقط، وفي رواية عن ابن عباس مثله بلفظ واحد.

ثم الذي روي عن سيدنا علي، لا يخلو من اضطراب، فرواية تقول: إن الرجل الذي أنكر عليه عليّ، كان من الواعظين القصاصين، وأخرى تقول: إنه كان قاضياً يقضي بين الناس، وثالثة تقول: تحلّق الناس عليه، وكانوا يسألونه، وهو يفتيهم.

ومعظمَ الروايات توحي أن الرجل كان أجنبياً مجهولاً غير معروف لدى عليّ ولدى أصحابه، وهناك من الروايات ما يشعر أن الرجل كان معروف الاسم والنسب، وكان من أصحاب أبي موسى الأشعري.

ثم أسلوب الكلام، أو أسلوب التعامل مع ذلك الرجل، كما وردت به الروايات، لا يتفق مع ما عهدناه في علي وابن عباس، فهو أسلوب كله غلظة وجفاف، وسخرية واحتقار، أسلوب ينفر الابن من أبيه، والأخ من أخيه. ولم يكن ذلك أبداً من دأب سيدنا علي، ولا سيدنا ابن عباس.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٩/ ٥٠٠.

(٢) شمس الدين الذهبي، المغني في الضعفاء: ١/ ٨٠، تحقيق: نور الدين عتر.

نعم، لا يتوقع منهما هذا الأسلوب الخشن أبداً، ولا سيما إذا عرفا أن الرجل من أصحاب أبي موسى الأشعري. فالمعهود في الكرام أنهم يكرمون الأصدقاء، ويكرمون أصدقاء الأصدقاء.

ثم ما معنى تعلم الناسخ والمنسوخ؟ وهل له عدد معلوم حتى يحفظه الإنسان، ويستوعبه؟

فهناك اختلاف كبير بين العلماء في عدد الناسخ والمنسوخ.

كم عدد الآيات المنسوخة؟

ولا بأس بأن نطلع هنا على نبذة من الآراء في ناسخ القرآن ومنسوخه، حتى نعرف الوضع، ونقدّر الموقف:

❖ قال ولي الله الدهلوي، المتوفى سنة ١١٧٩هـ في كتابه « الفوز الكبير»:

«بلغت الآيات المنسوخة إلى خمس مائة آية، بل إذا حققت النظر، تجدها غير محصورة بعدد».

❖ والآيات الناسخة والمنسوخة عند ابن العربي المالكي المتوفى سنة٥٤٣هـ في كتابه: (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) تبلغ مائة وثماني عشرة آية.

❖ وذكر النحاس، وهو أبوجعفر المتوفى سنة ٣٣٨هـ في كتابه «الناسخ والمنسوخ في القرآن»: عدد الآيات المنسوخة، وهي عنده ست وعشرون آية.

❖ وذكر مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٨هـ في كتابه «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» الآيات المنسوخة، وهي عنده خمس وعشرون آية.

❖ وذكر ابن الجوزي المتوفى سنة٥٩٧هـ في كتابه «نواسخ القرآن»: الآيات المنسوخة، وهي عنده إحدى وعشرون آية.

❖ وقال السيوطي في الإتقان: أقرب الأقوال إلى الصحة في الآيات المنسوخة أنها لا تزيد عن عشرين آية.

❖ وقال ولي الله الدهلوي: «وبما حررته لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات».

❖ وذكر الزرقاني المتوفى سنة ١٣٦٧هـ في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن»: الآيات المنسوخة، وهي عنده تسع آيات.

فإذا اختلف جهابذة العلماء هذا الاختلاف الشديد في أمر الناسخ والمنسوخ، فأيهم أحسن قولاً، وأقرب رشداً؟ وماذا يفعل المتعلم إذا أراد أن يتعلمه؟ هل يتعلم النسخ في خمس آيات؟ ويطمئن أنه تعلم الناسخ والمنسوخ، أم يتعلمه في تسع آيات؟ أم يتعلمه في عشرين آية؟ أم يتعلمه في خمس وعشرين آية؟ أم يتعلمه في خمس مائة آية؟ أم ماذا يفعل؟

وكم يتعلم الإنسان من النسخ حتى لا يكون من الهالكين، ولا المهلكين؟ هل الذين بالغوا في عدد الناسخ والمنسوخ كانوا أقرب رشداً، أم الذين قلّصوا هذا العدد، وقلّصوا حتى وصلوا إلى خمس؟

قال محقق (نواسخ القرآن) للإمام ابن الجوزي في آخر الكتاب، وهو يسجل نتائج بحثه:

«ومن هنا يتبين للقارئ أن المتفق عليه مما قيل بنسخه، لا يزيد عن آيتين اثنتين فقط، هما:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ (١٢) من سورة المجادلة.

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ (١-٣) من سورة المزمل.

وما عدا ذلك فهو موضع اختلاف بينهم».(١)

وإذا تقلص هذا العدد من خمس مائة أو أكثر، إلى آيتين اثنتين فقط، فهل هناك مانع من أن يتقلص من اثنتين إلى صفر؟

---

(١) ابن الجوزي، نواسخ القرآن: ١/ ٥٢٤.

لا معنى لدعوى الإجماع!

قال الإمام الشوكاني: وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفاً وخلفاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه، ولا يؤبه لقوله[1].

وقال العلامة الشنقيطي: لا خلاف بين المسلمين في جواز النسخ عقلاً وشرعاً، ولا في وقوعه فعلاً.[2]

هكذا ادعى علماؤنا الأعلام الإجماع على النسخ في القرآن؟ نعم، ادعوا تلك الدعوى الكبيرة، وهي لم تثبت، ولن تثبت إلى يوم القيامة؛ فإن الإجماع على شيء، إذا لم يكن محدداً، ولا معيّناً، ولا مشخّصاً، خلاف الأصل، وخلاف المعقول. وإذا اختلف الجهابذة في شيء على آراء متعددة متباعدة، كيف يُتصور فيه الإجماع؟

كيف ينعقد الإجماع على النسخ في القرآن، ولم يعرف مكان النسخ بالتحديد؟ ولم يعرف عدد الآيات الناسخة والمنسوخة، على وجه اليقين، وليس في حقيبة القائلين به إلا الظن والتخمين، وهل يكون النسخ لشيء مجهول غيرمعلوم؟ وهل يكون بشيء مجهول غير معلوم؟

لا شك أن الذين ادعوا تلك الدعوى الكبيرة، تسرّعوا في الحكم، ولم يقدّروا الموقف، مع أن الموقف كان خطيراً، جدّ خطير، وكان عليهم أن يفكروا ألف مرّة قبل أن يرسلوا مثل هذا الكلام!

ولتكن لنا وقفة عاقلة واعية عند ما أثر عن سيدنا علي رضي الله عنه، وهو قوله لمن لم يعرف الناسخ والمنسوخ في القرآن: «هلكتَ وأهلكت!» فهو حقيق بالتفكير والتقدير، وحقيق بأن نقلّبه ظهراً لبطن، حتى نكون منه على بينة. فقد أُشيع عنه، رضي الله عنه، هذا القول بشكلٍ رهيب، حتى أخذ مكانه من مدارك الناس، وحتى وقر في الأذهان، وكأنه قضية مُسلَّمة لا شِيةَ فيها، وليس لأحد أن يساوره في صدقه شك!

---

(١) فتح القدير: ١/ ١٦١.

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان في أيضاًح القرآن بالقرآن: ٢/ ٤٤٦.

لا بد أن نكون على بصيرة مما قيل، فهل القول بإحكام الآيات، واستمراريّة أحكامها يفضي إلى الهلاك، أم الذي يُفضي إلى الهلاك هو القول بنسخها، وإلغاء أحكامها؟

مثال يشخّص أضرار القول بالنسخ:

ولنضرب لذلك مثالاً؛ فإن المثال يشخّص الحال، ويبين المقال. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [١-٤].

قال أبو جعفر النحاس في الحديث عن تلك الآيات:

حدثنا يموت بإسناده عن ابن عباس أنها نزلت بمكة، فهي مكية سوى آيتين منها، فإنهما نزلتا بالمدينة، وهما قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى آخرها.

قال أبو جعفر: قال الله جل وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ - الآية. فجاز أن يكون هذا ندباً وحضّاً، وأن يكون حتماً وفرضاً، غير أن بابه بأن يكون حتماً وفرضاً إلا أن يدل دليل على غير ذلك. والدلائل تقوي أنه كان حتماً وفرضاً، وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت، وأيضاً فقد جاء التوقيف بما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وجاز أن يكون هذا حتماً وفرضاً على النبي ﷺ وحده، وجاز أن يكون عليه وعلى أمته، فجاء التوقيف بأنه كان عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ، كما قرىء على أحمد بن شعيب عن اسماعيل بن مسعود قال: حدثنا خالد بن الحارث قال حدثنا سعيد قال ثنا قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها، فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئيني بقيام رسول الله قالت: ألست تقرأ هذه السورة: «يا أيها المزمل» قلت: بلى. قالت: إن الله جل وعز افترض القيام في أول «يا أيها المزمل» على النبي وعلى أصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة.

فتبين بهذا الحديث أنه كان فرضاً عليه وعلى أصحابه ثم نسخ.

وقرىء على محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدثنا وكيع ويعلى قالا :حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول لما أنزلت أول (يا أيها المزمل)كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزلت آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة.

قال: حدثني جعفر بن مجاشع قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق قال: حدثنا إبراهيم بن عبدالله قال حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما قدم النبي ﷺ المدينة نسختها هذه الآية: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠] الى آخرها.

وحدثنا محمد بن رمضان بن شاكر قال: حدثنا الربيع بن سليمان قال: حدثنا محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله قال: ومما نقل بعض من سمعت منه من أهل العلم، أن الله جل وعز أنزل فرضاً في الصلاة قبل فرض الصلوات الخمس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ثم نسخ هذا في السورة معه فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ إلى ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ولما ذكر الله عز وجل بعد أمره بقيام الليل نصفه إلا قليلا أو الزيادة عليه فقال: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ كان بيّناً في كتاب الله نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه بقول الله عز وجل: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ فخفف فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ﴾ إلى ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾.

ثم احتمل قول الله عز وجل ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ معنيين: أحدهما أن يكون فرضاً ثابتاً؛ لأنه أزيل به فرض غيره. والآخر أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فاحتمل قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: أن يتهجد بغير الذي فرضه عليه مما تيسر منه. قال الشافعي رحمه الله: فكان الواجب

طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجبَ من الصلاة إلا الخمس[1].

ملخص ما قيل:

هذا ما قيل في تأويل أوائل سورة المزمل، وإذا أردنا تلخيص ما قيل، فهو كما يلي:

- آخر سورة المزمل ناسخٌ لأوائلها.
- آخر السورة نزل بعد أوائلها بعام واحد في مكة. وهو ما روي عن أم المؤمنين عائشة، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس.
- بين آخر السورة وأوائلها فاصل زمني طويل، حيث نزلت تلك السورة في فجر النبوة بمكة، بينما نزل آخرها بالمدينة بعد الهجرة، فالفاصل الزمني بين أوائل السورة وآخرها لا يقل عن ثلاثة عشر عاماً. وهي رواية أخرى عن ابن عباس.
- (قم الليل إلا قليلا) الآية، جاز أن يكون هذا ندباً وحضّاً.
- وجاز أن يكون حتماً وفرضاً، والدلائل تقوى أنه كان حتماً وفرضاً.
- جاز أن يكون هذا حتماً وفرضاً على النبي ﷺ وحده.
- جاز أن يكون حتماً وفرضاً عليه وعلى أمته، فجاء التوقيف بأنه كان عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ.
- إن الله جل وعز أنزل فرض صلاة الليل قبل فرض الصلوات الخمس.
- سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الصلوات الخمس.
- صار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة.

موقف ابن العربي والسيوطي والدهلوي:

هذا ملخص ما ذكره النحاس عن آيات سورة المزمل، ويشبهه ما قاله ابن العربي: «فهذا نص في أن قيام الليل كان فرضاً في صدر الإسلام، بأول سورة المزمل، ثم

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس: ١/ ٢٥٠-٢٥٢.

نسخه الله بآخرها، فصار منسوخاً عن الأمة بنص القرآن، بعد أن كان مفروضاً عليهم بمعنى القرآن وصريح السنة.

وهل بقي على رسول الله عليه السلام، لم ينسخ عنه؟ في ذلك خلاف بين العلماء، والصحيح بقاؤه عليه بأدلة بيناها في المتقدم من كلامنا، وفي الأحكام».[1]

وأخرج أبو داود في ناسخه من وجه آخر عن ابن عباس قال: أول آية نسخت من القرآن القبلة، ثم الصيام الأول.

قال مكي: وعلى هذا فلم يقع في المكي ناسخ.

قال وقد ذكر أنه وقع في آيات، منها قوله تعالى في سورة غافر: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فإنه ناسخ لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

قال السيوطي: قلت أحسن من هذه نسخ قيام الليل في أول سورة المزمل بآخرها أو بإيجاب الصلوات الخمس، وذلك بمكة اتفاقاً.[2]

وقال الدهلوي: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير متجهة، بل الحق أن أول السورة في تأكيد الندب إلى قيام الليل، وآخرها نسخ التأكيد إلى مجرد الندب.[3]

ماذا ربحنا من القول بالنسخ؟

ولقائل أن يقول هنا: ماذا ربح القائلون بالنسخ في أوائل سورة المزمل؟ هل ربحوا شيئاً غير الحيرة والكلال؟ والقول المروي المشهور: «هلكت وأهلكت» يصدق على أيّ الفريقين؟ يصدق على القائلين بالنسخ، أم على غيرهم من نفاته؟

فالواقع أننا خسرنا خسراناً مبيناً، وجلبنا الخسار على الجميع، حينما قلنا بنسخ قيام الليل، أو قلنا بنسخ فرضيّته، أو قلنا بتخفيفه، أو قلنا بنسخ تأكيده، فالقرآن لا

---

(١) ابن العربي المالكي، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ١/ ٢٢١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٦٥.

(٣) الفوز الكبير في أصول التفسير، ص: ٦٠.

يقول هذا، ولا ذاك.

وإنما يقول:

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [٢٠].

فهو تقدير الليل والنهار، وتكليف النفس بما يتيسر لها، ومراعاة ظروف المؤمنين، والنظر إلى ما قد يعتريهم من مرض، أو سفر، أو ما يقومون به من قتال وجهاد في سبيل الله.

سبب نزول الآية:

والظاهر أن الآية الأخيرة ما نزلت إلا بعد الهجرة إلى المدينة، حينما دخل المسلمون في مرحلة جديدة من حياتهم، حيث تمكنوا من الضرب في أرجاء الأرض لابتغاء فضل الله، وقد كانوا غير قادرين على الضرب فيها، حينما كانوا ببطن مكة.

وحان لهم أن يخوضوا القتال والجهاد في سبيل الله، وبالتالي ستمسّهم قروح وجروح، وسيكون فيهم مرضى.

ولقد مرت معنا رواية عن ابن عباس، وهي تفيد أن الآية الأخيرة ما نزلت إلا بعد الهجرة إلى المدينة.

وأما ما ورد في بعض الروايات، من أن الآية الأخيرة نزلت بعد اثني عشر شهراً من نزول أوائل السورة، فهو ليس بشيء؛ فإن تلك الروايات جاءت عن طريق أناس ينقصهم الضبط والعدالة، فرواية عائشة، التي مضت معنا قبل قليل في كلام أبي جعفر النحاس، هي جاءت عن طريق سعيد عن قتادة، وكلاهما ليسا موضع ثقة. ولا يقبل منهما شيء إلا بحذر!

رواة ينقصهم الضبط والإتقان:

فأما سعيد فهو سعيد بن أبي عروبة، واسمه مهران، العدوي، أبو النضر البصري،

مولى بني عدي بن يشكر.

قال أبو بكر البزار: هو يحدث عن جماعة لم يسمع منهم، فإذا قال: سمعت وحدثنا كان مأموناً على ما قال.

وقال ابن أبي خيثمة، عن يحيى: كان يرسل.

وقال الأزدي: اختلط اختلاطاً قبيحاً.

وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، ثم اختلط في آخر عمره.

وقال ابن حبان في «الثقات»: مات سنة خمس وخمسين ومئة، وبقي في اختلاطه خمس سنين، ولا يحتج إلا بما روى عنه القدماء، مثل: يزيد بن زريع، وابن المبارك، ويعتبر برواية المتأخرين عنه دون الاحتجاج بها.

وقال أحمد: كان يقول بالقدر ويكتمه[1].

وأما قتادة شيخ سعيد، فهو قتادة بن دعامة السدوسي أحد المشهورين بالتدليس وهو أيضاً يكثر من الإرسال.[2]

وقال معتمر بن سليمان عن أبي عمرو بن العلاء: كان قتادة وعمرو بن شعيب لا يغث عليهما شيء، يأخذان عن كل أحد!

وقال جرير عن عبد الحميد عن مغيرة عن الشعبي: قيل له: هل رأيت قتادة؟ قال: نعم رأيته كحاطب ليل! وقال سفيان بن عيينة: قال الشعبي لقتادة: حاطب ليل![3]

وأما الرواية الأخرى، التي مرت معنا في كلام أبي جعفر النحاس، وهي تفيد أن الآية الأخيرة نزلت بعد سنة، فهي جاءت عن طريق وكيع، وهو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان الكوفي.

---

(١) تهذيب التهذيب: ٤/ ٥٧-٥٨.

(٢) أبو سعيد العلائي، جامع التحصيل في أحكام المراسيل: ١/ ٢٥٤/ ٦٣٣.

(٣) تهذيب الكمال للمزي: ٦/ ١٠٢/ ٥٤٣٧.

قال محمد بن نصر المروزي: كان – وكيع – يحدث بآخره من حفظه فيغيّر ألفاظ الحديث، كأنه كان يحدّث بالمعنى، ولم يكن من أهل اللسان.[1]

فإذا كان وكيع يغير ألفاظ الحديث، ويحدث بالمعنى، وهو ليس من أهل اللسان، فكيف يؤمن عليه الخطأ والنسيان؟ وكيف يسلم من التحريف والتصحيف؟

قال – عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه – في موضع: سمعت أبي يقول: ابن مهدي أكثر تصحيفاً من وكيع، ووكيع أكثر خطأ من ابن مهدي، ووكيع قليل التصحيف.

وقال في موضع آخر: سمعت أبي يقول: أخطأ وكيع في خمس مئة حديث.[2]

وأما ما ذكره النحاس من قول الشافعي، في نسخ أوائل سورة المزمل، فهي رواية الربيع بن سليمان المرادي عنه. وهو رجل ليس بذاك.

قال عنه مسلمة: كان من كبار أصحاب الشافعي ينتمي إلى مراد، وكان يوصف بغفلة شديدة! وهو ثقة، أخبرنا عنه غير واحد. وقال أبو الحسين الرازي الحافظ والد تمام: أخبرني علي بن محمد بن أبي حسان الزيادي بحمص سمعت أبا يزيد القراطيسي يوسف بن يزيد يقول: سماع الربيع بن سليمان من الشافعي ليس بالثبت وإنما أخذ أكثر الكتب من آل البويطي بعد موت البويطي.[3]

فإذا كان الرجل فيه غفلة شديدة، وسماعه من الشافعي ليس بالثبت، فمن يضمن لنا أن ما رواه عن الشافعي من نسخ آخر سورة المزمل لأوائلها ليس من نتائج تلك الغفلة؟

تلك حال الروايات في أسانيدها، وإذا نظرنا إلى الآية نفسها، فهي أيضاً تصرفنا بمضمونها عن تلك الروايات، فإنها تذكر القتال في سبيل الله، وتذكر الأسفار لابتغاء فضل الله، ولم يكن ذلك التطور في حياة المؤمنين إلا بعد الهجرة إلى المدينة.

---

(١) تهذيب التهذيب: ١١/ ١١٤.

(٢) تهذيب الكمال للمزي: ٧/ ٤٦٣/ ٢٧٩٠.

(٣) تهذيب التهذيب: ٣/ ٢١٣.

لا فرق بين الأمس واليوم:

وما جاء هذا الحكم الجديد في الآية الأخيرة بسبب انتفاخ أقدام رسول الله وأصحابه، وإنما جاء بحكم الظروف المتطورة المستجدّة، التي كان يقبل إليها المسلمون، من مرض وسفر وقتال في سبيل الله.

فإذا كان المسلم في سلامة وعافية من مرض، وليس في حالات السفر، وليس على جبهة من جبهات القتال، أو على ثغر من ثغور المسلمين، فما الذي يعفيه من قيام الليل؟ فليقم ثلثه، أو نصفه، أو أدنى من ثلثي الليل.

وكم نتعجب من قول من يقول: سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الصلوات الخمس!

والذي نعرفه من سنة رسول الله أنه كان مواظباً على قيام الليل، كما كان مواظباً على الصلوات الخمس، وكانت تلك سنته الدائبة إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، وهذا الذي حمل ابن العربي على أن يقول:

«وهل بقي على رسول الله عليه السلام، لم ينسخ عنه؟ في ذلك خلاف بين العلماء، والصحيح بقاؤه عليه بأدلة بيناها في المتقدم من كلامنا، وفي الأحكام».

ثم لم تكن تلك سنة رسول الله فقط، بل كانت سنة خلفائه الراشدين، وسنة جلة أصحابه أجمعين.

قد يقال: فهل يجب علينا قيام الليل، مثلما تجب علينا الصلوات الخمس؟ وهل يجب علينا اليوم مثلما كان واجباً في صدر الإسلام، ولم يكن هناك شيء من نسخ أو تبديل؟

نقول: نعم، ليس هناك نسخ أو تبديل، ولا نحبّ أن نخوض في المصطلحات الفقهية، فلا نسميه فرضاً، أو واجباً، وإنما نقول: إننا اليوم مأمورون بقيام الليل، مثلما أمر به رسول الله وأصحابه بالأمس.

حقيقة هامّة جديرة بالانتباه!

وهناك حقيقة هامة لا يفوتنا التنبيه إليها، وهي أن الصلوات الخمس وأخواتها من شروط الإسلام، ولابد من أدائها لتحقق الإسلام وثبوته، فإذا أداها الرجل تحقق إسلامه، وثبت له ما ثبت لجماعة المسلمين من فوز وكرامة، وذلك كما رواه الإمام مسلم:

حدثنا قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي عن مالك بن أنس - فيما قرئ عليه - عن أبي سهيل عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال هل علي غيرهن قال «لا. إلا أن تطوع وصيام شهر رمضان». فقال هل علي غيره فقال «لا. إلا أن تطوع». وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال: هل علي غيرها قال «لا. إلا أن تطوع» قال فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

فقال رسول الله ﷺ «أفلح إن صدق».[1]

فتلك الرواية لا تذكر من الصلوات إلا الصلوات الخمس، وهي فرض على كل مسلم، ولا بد من أدائها، ولكن هناك صلاة غيرها، وهي صلاة الليل، وهي إن لم تكن فرضاً على الجميع، فهي فرض على من أراد أن يذوق حلاوة الإيمان !

وهي فرض على من أراد أن يقوم بالدور القيادي في خدمة الإسلام !

وهي فرض على من أراد أن يقوم بما قام به سيدنا رسول الله وأصحابه البررة من نشر دين الله، ورفع بنيانه، وتوطيد أركانه، وإعلاء كلمته !

والرسول عليه السلام حينما كان يقوم أدنى من ثلثي الليل، ونصفه، وثلثه، ما كان يقوم معه المسلمون كلهم، وإنما كان يقوم معه طائفة منهم، وهم الذين كانوا

---

(١) صحيح مسلم، باب بيان الصلوات التي هي: ١/ ٣١/ ١٠٩.

القاعدة الصلبة لصرح الإسلام فيما بعد، وهم الذين قاموا بالدور القيادي في نشر الإسلام، ورفع لواء الإيمان. قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

وتلك الصلاة كانت زيادة على الصلوات الخمس، وتلك الخمس فرضت على المؤمنين قبل صلاة الليل. فالقول بنسخ صلاة الليل بالصلوات الخمس ليس له وجه.

لا يغني غناءهم إلا من بات بِيْتَتَهم!

والعالم، أو الداعية إذا كان حريصاً على أن يدعو الناس إلى دين الله، وكان حريصاً على أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وكان حريصاً على أن يكون من ورثة الأنبياء، ومن ورثة الصالحين من بعدهم، وكان حريصاً على أن يكون خير خلف لخير سلف، فذلك لا يتأتى له إلا إذا كان كما كان سلفه الصالحون العاملون، وقد ذكر الله من دأبهم ما يلي:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

هذا هو دأب السالكين على درب الدعوة والجهاد، وذلك شأنهم في آناء الليل. وكل من أراد أن يفري فريهم، ويغني غناءهم، لا بد أن يسلك طريقهم، ويبيت بيتتهم.

وأما إذا كان الأمر على غير ذلك، حيث كان أئمة المسلمين، وعلماؤهم، ودعاتهم، وأولياء أمورهم يأكلون ملء بطونهم، وينامون ملء جفونهم، وكانت لياليهم ليالي النائمين الغافلين، أو إذا سهروا، سهروا على غير صلاة أو قرآن، ثم كانوا يعتقدون أن الصلوات الخمس فيها غنية وكفاية لأداء الرسالة، وبراءة الذمة، والخروج من العهدة، والقيام بالمهمة، وهم سينالون ما يحبون، ويبلغون ما إليه يتطلعون، من تحرير البشرية

من أعدائها، وإظهار دين الله في أوطانها، فهذا لن يتمّ لهم ما ذرّ شارق، وما عنّ في السماء نجم!

ولنا العبرة فيما أثر عن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال:

«لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ جِيفَةَ لَيْلٍ قُطْرُبَ نَهَارٍ»[1].

قال ابن منظور:

القُطْرُبُ: دويبة كانتْ في الجاهلية، يزعمون أَنها ليس لها قَرارٌ البتة، وقيل لا تَسْتَرِيح نهارَها سَعْياً.

قال أَبو عبيد يقال إِن القُطْرُبَ لا تستريح نهارها سَعْياً فشَبَّه عبدُالله الرجلَ يَسْعى نَهارَه في حوائج دُنْياه فإِذا أَمْسَى أَمْسَى كالاًّ تَعِباً فينامُ ليلَتَه حتى يُصْبِح كالجِيفة لا يَتحرك[2].

وقال الزبيدي: يَسْعَى طُولَ نَهارِهِ لِدُنْياه ، ويَنَامُ طُولَ لَيْلِه !كالجِيفَةِ التي لا تَتَحَرَّكُ![3]

قيام الليل مما يوجبه الإيمان الحيّ!

فالعمل الإسلامي لا يستوي على سوقه، ولا يؤتي من ثماره، إلا إذا كان مصحوباً بآهات شجيّة، وعبرات مسكوبة، ودعوات ضارعة خاشعة في جوف الليل.

فالقول بنسخ قيام الليل كانت له آثار سلبية واضحة في تأخر المسلمين عن دينهم، وغفلتهم عن مسؤولياتهم. وفشلهم في جهودهم ومخططاتهم!

والواقع أن قيام الليل واجب على كل من أراد أن يكون من جنود الدعوة، وقادة الصحوة، وأراد أن ينهض بالعمل الإسلامي كما نهض به الرعيل الأول من أصحاب

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٨/ ٦٣/ ٨٦٧٦.

(٢) ابن منظور- لسان العرب- قطرب.

(٣) مرتضى الزبيدي- تاج العروس من جواهر القاموس: ج ي ف.

رسول الله.

وليس هذا الوجوب كوجوب الصلوات الخمس، حتى لا يعتبر إسلام المرء إلا به، وإنما هو وجوب يوجبه الإيمان الحيّ، حتى يكون صاحبه رجلاً شامخاً، ومؤمناً حقاً!

وذلك كوجوب الرياضة البدنية، أو التمارين الرياضية على من أراد أن يكون قوي الجسم، مجدول الخلق، مفتول الساعدين.

أو كوجوب إعداد العدّة، وتنظيم القوّة على من أراد أن يذهب إلى الهيجاء، ويقمع الأعداء.

أو كوجوب شمّ الكتب ومعايشتها، والسهر عليها، على من أراد أن يحوز شأو السبق، وقصبات التقدم في مجال العلم والثقافة.

أو كوجوب الإدلاج على من أراد أن يبلغ المنزل، حيث روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي عليه السلام قال:

(مَنْ خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية ! ألا إن سلعة الله الجنة !)

هذا مثال لما قيل فيه بالنسخ، وكان الأولى هو القول بالإحكام، وحينما قلنا فيه بالنسخ لم نجن منه إلا الخسار، والأمثلة لذلك كثيرة، فكل قول بنسخ شيء من القرآن لم يَزِدْنَا غير تخسير، والمقام لا يتسع لأكثر من مثال، وإلا ضربنا له الأمثال تلو الأمثال.

وسيكون لنا بحث مستقل، بإذن الله، حول الآيات التي قيل فيها بالنسخ، وحينئذ سيظهر لنا حجم الخسارة التي خسرناها، حينما أخطأنا في تأويل آيتي النسخ، وجعلنا القرآنَ المُحْكم، الناسخ لغيره، هو المنسوخ!

فكرة ليس لها أصل!

موجز القول أن فكرة النسخ في القرآن فكرة غريبة شاذة، فكرة ليس لها أصل.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أكثم، أنه قال: «ليس من العلوم كلها علم هو واجب على العلماء، وعلى المتعلمين، وعلى كافة المسلمين من علم ناسخ القرآن ومنسوخه؛ لأن الأخذ بناسخه واجب فرضاً، والعمل به واجب لازم ديانة، والمنسوخ لا يُعمل به، ولا يُنتهى إليه، فالواجب على كل عالم، عِلْمَ ذلك؛ لئلا يوجب على نفسه وعلى عباد الله أمراً لم يوجبه الله، أو يضع عنهم فرضاً أوجبه الله».[1]

هذا ما قاله يحيى بن أكثم، وهو في غنى عن أيّ تعليق، فإن هذا القول وما شابهه من أقوال الآخرين، يرجع كله إلى تلك الروايات التي قتلناها بحثاً ودراسة، وبينا ما فيها من ضعف وخلل، فحينما انهارت تلك الروايات، انهار معها كل ما كان يستند إليها من أقوال وآراء.

وفوق تلك الروايات كلها كتاب الله، وهو أوضح من الواضح في معنى النسخ، وجهات النسخ، ومحاور النسخ، وقد بيناه، وشرحناه فيما مضى.

والآن، بعد ما بُيِّنَ الصبحُ لذي عينين، لم يعد من مصلحتنا، ولا من مصلحة ديننا إلا أن نفتح عيوننا، ونفتح صدورنا لما هو أقرب للحق، فالحق ضالة المؤمن، أينما وجده، فهو أحق به.

فإن قيل: كيف، وقد قال فلان كذا، وقال فلان كذا، هم كلهم أثبتوا النسخ في القرآن، وهم من فطاحل العلماء؟

قلنا: ما اختلفنا في ذلك، فهم كلهم حبيب إلينا، وموضع إجلال وتقدير لدينا، ولكن الحق أحب إلينا، وأعزّ لدينا منهم.

وإذا رجح ميزان البرهان بشيء، فهو الراجح، ولا اعتبارَ لقولٍ لا يشفع له دليل، ولا يتفق مع سياق الآيات، ولا يتلاءم مع أهداف القرآن، ويكون كله ضرراً على أهل الإسلام! وقد شرحنا ذلك، وبيناه أتمّ بيان.

---

(١) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٦٤، ت: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي.

فمن أحب دراسة القرآن وتدبر آياته، فلينظر إلى كل آية منه، وكأنها آية محكمة، وليقف عندها وقفة متأنية، وكأنها آية لها رسالة، ولها دلالة، وعليه تطبيقها والعمل بها.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل التاسع
لا يُبنى التأويل على الروايات والآثار

التفسير بالمأثور له قيمته، وله أهميته، وأيّ تفسير يكون أحسن وأحكم وأجمل من تفسير سيدنا رسول الله؟ وإذا لم يكن تفسير رسول الله، فأوثق تفسير بعده تفسير أصحابه الغرّ الميامين، الذين تربوا في أحضانه، ونهلوا وعلّوا من منهله، وطعموا وتغذوا على مائدته، ثم شاهدوا القرائن والأحوال التي نزل فيها القرآن، فهم كانوا أدرى الناس بمواقع نزول الآيات، وكانوا أعلم الناس بدلالاتها وإيحاءاتها، وكانوا أبصر الناس بآفاقها وأعماقها.

تلك ظاهرة لا يختلف فيها عاقلان، ولا يتنازع فيها مسلمان، ولكن لا يعزبنّ عن بالنا أن كل كلام يروى عن رسول الله، لا يكون كلام رسول الله، وكل تفسير يحكى عن الصحابة لا يكون تفسير الصحابة.

قال الزركشي: «لكن يجب الحذر فيه من الضعيف والموضوع؛ فإنه كثير».[1]

وقال السيوطي: «الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة».[2]

لا بدّ من الحذر والتثبّت:

وإذاً، فلا بد من الحذر والتثبت في قبول الروايات، فلا يقبل منها إلا ما صح وثبت، وكان منسجماً مع لفظ الآية، ونظمها وسياقها، وكان متلائماً مع رسالة القرآن، وعظمة القرآن، وكرامة القرآن.

وذلك لأن القرآن محارَب مستهدف من أوان نزوله، وحينما جاء عصر التدوين أكثر الأعداء من وضع روايات تشوش على الناس معاني الآيات، وتبعدهم عن الوجه

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٦.

(٢) الإتقان: ٤/ ١٨١، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

الصحيح في تأويلها، وكان هذا الوضع بكل لباقة ومهارة حتى لا ينتبه لها الناس.

قال الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة كتب ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير.

قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب منها ليس لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح من ذلك كثير.(١)

وقال ابن تيمية:

«ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي. ويروى: ليس لها أصل أي إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل».(٢)

قال شيخنا الدكتور أحمد حسن فرحات، وهو يسلط الأضواء على ما أصيب به التفسير بالمأثور:

«يرى كثير من الباحثين أن التفسير بالمأثور قد تعرض إلى الضعف نظراً لكثرة الوضع على الثقات من المفسرين كابن عباس وعليّ وابن مسعود، وأن الدوافع السياسية والعصبيات والأهواء كانت وراء ذلك، كما أن ذيوع الإسرائيليات وتساهل بعض العلماء في روايتها ضمن تفاسيرهم قد ساهم أيضاً في عدم الثقة بالتفسير بالمأثور، فإذا وصل الأمر إلى حذف الأسانيد، أصبح الأمر في غاية الظلمة، ومن هنا روي عن الإمام أحمد قوله:» ثلاثة لاأصل لها: التفسير والمغازي والملاحم». وذلك إشارة إلى كثرة الموضوع فيها، حتى إن الصحيح لا يكاد يتبين نظراً لكثرة الموضوع وغلبته».(٣)

وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحزم أن يُبنى تأويل الآيات على الروايات والآثار؛ فإن القرآن قطعي الثبوت، وغير القرآن كله ظني الثبوت، والقطعي الثبوت لا يُبنى على الظنيّ الثبوت؛ فإن الظني الثبوت لا يفيد إلا الظن، ولا يخلو من احتمال

(١) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، النوع الحادي والأربعون معرفة: ٢/ ١٥٦.

(٢) مقدمة في التفسير: ص:٥٢-٥٣.

(٣) أحمد حسن فرحات، «في علوم القرآن: عرض ونقد وتحقيق» ١/ ٢٥٣-٢٥٤. طبع دار عمار، الأردن.

الخطأ، والوضع، والتصحيف، في حين أن القطعي الثبوت يفيد اليقين، ولا يكون فيه شيء من تلك الاحتمالات.

وإذاً، فالروايات والآثار لا تكون إلا للاستئناس. حيث يقبل منها ما وافق لفظ الآية، وأسلوبها، وسياقها، ويُقبل مالم يخالف طبيعة القرآن، وروح القرآن، ولم يمسّ كرامة القرآن وعظمة القرآن، وأمّا ما لم يكن كذلك، فلا بد من طرحه، ولا بد من تجنّبه.

المعوذتان وقصة السحر:

قال صاحب الدر المنثور في تفسير المعوذتين:

«أخرج عَبد بن حُمَيد في مسنده عن زيد بن أسلم قال: سحر النَّبِي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية فجعل يقرأ ويحل حتى قام النَّبِي ﷺ كأنما نُشطَ من عقال.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: كان لرسول الله ﷺ غلام يهودي يخدمه، يقال له لبيد بن أعصم فلم تزل به يهود حتى سحر النَّبِي ﷺ وكان النبيّ ﷺ يذوب ولا يدري ما وجعه، فبينا رسول الله ﷺ ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: ما وجعه قال: مطبوب، قال: مَنْ طَبَّهُ قال: لبيد بن أعصم، قال: بم طبه قال: بمشط ومشاطة وجف طلعة ذكر بذي أروان وهي تحت راعوفة البئر، فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا ومعه أصحابه إلى البئر، فنزل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومن مشاطة رأسه، وإذا تمثال من شمع تمثال رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بالمعوذتين فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [١] وحل عقدة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [٢] وحل عقدة حتى فرغ منها».(١)

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٨/ ٦٢٧-٦٢٨.

هل الختام برقية السحر؟

هذا ما قيل في تأويل سورة الفلق، فهل الأمر هكذا؟ هل خُتم القرآن برُقية السحر؟

هل هذا الختام يتناسب مع عظمة القرآن؟ وهل يتناسب هذا السحر الذي ذكروه، مع عصمة القرآن،كتاب الله؟ وهل يتناسب مع عصمة رسول الله؟

أليس ذلك تصديقاً لدعوى الكفار، فقد كانوا يزعمون عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه رجل مسحور، حيث ذكر القرآن قولهم:

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧].

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

وليس ذلك خاصاً بنبينا عليه الصلاة والسلام، فكل نبيّ رُمي في قومه بما رُمي به نبينا عليه، وعليهم الصلاة والسلام. فقد رُمي موسى بأنه مسحور:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١].

ورُمي سيدنا صالح بأنه مسحّر:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

ورُمي سيدنا شعيب بأنه مسحّر:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

فهل استطاعت تلك الأقوام أن يسحروا أنبياءهم ورسلهم، وهل استطاعوا أن يثبتوا أنهم مسحورون؟ وإذا لم يستطع هؤلاء، وهؤلاء أن يسحروا رسلهم وأنبياءهم،

فكيف استطاع لبيد بن الأعصم وبناته أن يسحروا خاتم النبيين وسيد المرسلين؟ وكيف استطاعوا أن يصدّقوا ظنهم، أو يحققوا فِريتهم؟

ولم يكن صاحب أضواء البيان دقيقاً في كلامه، إذ قال:

أجمع المفسرون: أنها نزلت في لبيد بن الأعصم، لما سحر رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل عليه السلام وأخبره.(١)

فليس هذا إجماع المفسرين، والحمد لله، وإنما هو رأي فريق من العلماء، ولعل الذين قالوا هذا الكلام لم يقدّروا خطورة الموقف، ولم ينظروا في عواقب ما قالوا، وحسبوه هيّناً وهو في الواقع عظيم!

فالمعوذتان لا علاقة لهما بالسحر وقصة السحر، وإنما جاءت السورتان تفسيراً وبياناً لما سبقهما من قوله تعالى في سورة الإخلاص:

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾- (٢)

الصمدة في اللغة:

فإن الصمدة في اللغة هي الصخرة الراسية في الأرض. قال الزبيدي:(والصمدة: صخرة راسية في الأرض مستوية بها) أي بمتن الأرض، (أو مرتفعة).

وفي التهذيب: وربما ارتفعت شيئاً.(٢)

وهي التي إذا لُذْتَ بها نجوت من مخاوف العدو، وكثيراً ما كانوا يلوذون بالصخور إذا دهمهم العدو.

ومن هنا سمي سيد القوم صمداً؛ فإن القوم يلجؤون إليه، ويحتمون بحِماه إذا دهاهم أمر.

فالله هو الصمد؛ فإنه لا يملك أحد أن يكشف الضر، ويرد المكاره إلا هو. وإذا فر الإنسان إليه، ولاذ بكنفه، واحتمى بحماه أَمِنَ المخاوف كلها، ولن يضره شيء في

---

(١) الشنقيطي- أضواء البيان: ٩/ ١٦١.

(٢) الزبيدي- تاج العروس.

الأرض ولا في السماء، فهو الملجأ، وهو المعاذ.

ومن هنا جاءت المعوذتان، حتى يَعْلم المسلم كيف يستعيذ بربه الصمد، ثم يواصل المسير إلى إعلاء كلمته وأداء مسؤوليته بكل جدّ وشجاعة، بعيداً من الشرور والآفات والفتن كلها.

المناسبة بين الفاتحة والخاتمة:

ومن بديع المناسبة بين فاتحة القرآن وخاتمته أن سورة الفاتحة تشتمل على إقرار المسلم بأنه لايعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فجاءت سورتان للاستعانة في أول القرآن، وسورتان للاستعاذة في آخر القرآن.

ومعلوم أن الاستعاذة أخت الاستعانة ونسيبها.

فخواتيم سورة البقرة، وخواتيم سورة آل عمران، كلها استعانة حارّة ضارعة من العبد المسلم بربه الكريم الودود.

لا نقول: إن هاتين السورتين، هدفهما أو عمودهما الاستعانة بالله، وإنهما تدوران حول هذا الموضوع، ولكن تلك الآيات لها شأن خاص تتميز به دون غيرها، وهي تكاد تطبع السورتين بطابعها.

ولقد جاءت أدعية أخرى كثيرة، في سور أخرى متعددة، والأدعية كلها استعانة بالله، ولكن لهذه الآيات وضعاً يختلف عن البقية، وإن لها لشأناً لا يوجد في غيرها.

ثم إن الترتيب الذي نراه في الاستعانة والاستعاذة، حيث افتتح القرآن بالاستعانة وختم بالاستعاذة، كان هو الترتيب المفضل من ناحية البلاغة؛ فإن المسلم يكون في أول أمره بحاجة إلى الاستعانة بربه، ليعرف معالم الطريق، ويعرف قصد السبيل من الجائر، ويحتاج بعد ذلك إلى أن يلجأ إلى ربه، ويستعيذ به من آفات الطريق وعقباتها حتى لايسقط دون الغاية بعد ما عرف الطريق إليها.

تقويم روايات السحر:

ومن تمام القول أن روايات سحر النبي عليه الصلاة والسلام، التي رواها

الشيخان،كلها جاءت عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

وهو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، وهو تابعي صغير مشهور، ذكره بذلك أبو الحسن القطان.

وأنكره الذهبي وابن القطان فإن الحكاية المشهورة عنه أنه قدم العراق ثلاث مرات، ففي الاولى حَدَّثَ عن أبيه فصرح بسماعه، وفي الثانية حدث بالكثير فلم يصرح بالقصة، وهي تقتضي أنه حدث عنه بما لم يسمعه منه، وهذا هو التدليس.[1]

وقال يعقوب بن شيبة: هشام ثبت، لم ينكر عليه إلا بعد ما صار إلى العراق، فإنه انبسط في الرواية، وأرسل عن أبيه أشياء، مما كان قد سمعه من غير أبيه عن أبيه.

وقال عبد الرحمن بن خراش: بلغني أن مالكاً نقم على هشام بن عروة حديثه لأهل العراق، وكان لا يرضاه.

ثم قال: قدم الكوفة ثلاث مرات، قِدْمة كان يقول فيها: حدثني أبي، قال: سمعت عائشة.

والثانية، فكان يقول: أخبرني أبي، عن عائشة.

وقدم الثالثة، فكان يقول: أبي، عن عائشة -يعني: يرسل عن أبيه-[2]

وقال الآجري عن أبي داود: لما حدث هشام بن عروة بحديث أم زرع، هجره أبو الأسود يتيم عروة.

وقال العقيلي: قال ابن لهيعة: كان أبو الأسود يعجب من حديث هشام عن أبيه، وربما مكث سنة لا يكلمه!

قال أبو الاسود: لم يكن أحد يرفع حديث أم زرع غيره.

---

(١) تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، لابن حجر العسقلاني :١/ ٢٦، تحقيق : د.عاصم بن عبد الله القريوني.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي:١١/ ٣٧.

وقال أبو الحسن بن القطان: تغير قبل موته.(١)

هذا هو هشام بن عروة، الذي روى عنه الشيخان قصة سحر النبي عليه الصلاة والسلام.

وروى أحمد والنسائي وغيرهما هذا الحديث عن طريق الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم.

وهذا الطريق أيضاً ليس مأموناً، فإن الأعمش قال عنه علي بن سعيد النسوي: سمعت أحمد بن حنبل يقول:

منصور أثبت أهل الكوفة، ففي حديث الأعمش اضطراب كثير.(٢)

وقال ابن حجر: سليمان بن مهران الأعمش محدث الكوفة وقارئها، وكان يدلّس، وصفه بذلك الكرابيسي والنسائي والدارقطني وغيرهم.(٣)

وقال ابن حبان:

سليمان بن مهران الأعمش مولى بني كاهل كنيته أبو محمد كان أبوه من سبي دبثا، وقد رأى أنس بن مالك بواسط، ومكة، روى عنه شبيهاً بخمسين حديثاً، ولم يسمع منه إلا أحرفاً معدودة، وكان مدلساً.(٤)

وقال صاحب الجرح والتعديل:

حدثنا عبد الرحمن نا حماد بن الحسن بن عنبسة ثنا أبو داود عن زائدة قال كنا نأتي الأعمش فيحدثنا فيكثر ونأتي سفيان الثوري فنذكر تلك الاحاديث له فيقول: ليس هذا من حديث الأعمش، فنقول هو حدثنا به الساعة، فيقول: اذهبوا فقولوا له إن شئتم،

---

(١) تهذيب التهذيب :١١/ ٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي:١١/ ٢٩٥.

(٣) تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، لابن حجر العسقلاني:١ / ٣٣.

(٤) الثقات: رقم التذكرة: ٣٠١٤.

فنأتي الأعمش فنخبره بذلك، فيقول: صدق سفيان، ليس هذا من حديثنا[1].

وقال صاحب «المغني»:

سليمان بن مهران الأعمش ثقة جبل، ولكنه يدلس.

قال وهب بن زمعة: سمعت ابن المبارك يقول: إنما أفسد حديث أهل الكوفة الأعمش وأبو اسحاق.

وقال جرير: سمعت مغيرة يقول: أهلك أهل الكوفة أبو اسحاق وأعمشكم هذا، كأنه عنى الرواية عمن جاء.[2]

وقال علي بن سعيد النسوي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: منصور أثبت أهل الكوفة، ففي حديث الاعمش اضطراب كثير!

وقال ابن المديني: الأعمش كان كثير الوهم في أحاديث هؤلاء الضعفاء.[3]

الحادث أكبر من رواته ألف مرة!

موجز القول أن الروايات التي جاءت في سحر النبي ﷺ، ما جاءت عن طريق الثقات الأثبات، فالحادث أكبر من هشام، وأكبر من الأعمش ألف مرة!

ثم إن صح وقوع هذا الحادث، وهو حادث جلل كبير، وهو لا يخص شخصاً أو شخصين، بل يهمّ الجميع، فلماذا أغفله كبار الصحابة، ولم يشيروا إليه أيّ إشارة؟

زد إلى ذلك أن تلك القصة لا تتلاءم مع سياق الكلام، ولا تتلاءم مع موقع السورة، وتتنافى مع عظمة القرآن، وتتنافى مع عصمة رسول الله، فما المبرر للركون إليها والتمسك بها؟

ولعل الإمام سيد قطب كان أنفذ نظراً، وأقرب رشداً حينما قال:

---

(١) عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي- الجرح والتعديل: ١/ ٧١.

(٢) المغني في الضعفاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: ١/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال: ٢/ ٢٢٤.

«وقد وردت روايات - بعضها صحيح ولكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ في المدينة.. قيل أياماً، وقيل أشهراً .. حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله ﷺ فلما استحضر السحر المقصود - كما أُخبر في رُؤياه - وقرأ السورتين انحلت العقد، وذهب عنه السوء.

ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك.

ومن ثم تُستبعد هذه الروايات .. وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة. والمرجع هو القرآن. والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد. وهذه الروايات ليست من المتواتر. فضلاً على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح. مما يوهن أساس الروايات الأخرى».[1]

نردّ ما يجعلها فوق القرآن!

والإمام أبوزهرة لم يقل شططاً، حينما قال:

«فإذا رددنا منها- أي: السنة- ما يخالف القرآن، فنحن نردّ ما يجعلها فوق القرآن، وبالأحرى يكون ذلك تمحيصاً للسنة، وتبييناً لصحيحها من سقيمها.

إن عبارات القرآن التي هي نص في دلالتها ومعانيها، فيها تنزيه لرسالة محمد ﷺ، وتنزيه للبعث المحمدي، فإنما ندفع الريب عن الرسول ﷺ، ولا نتهجم عليه، ولا على حكمته،كتلك الآثار التي توهم أن النبي ﷺ سُحِرَ، وكتلك الأخبار الكاذبة التي تقول: إن محمداً ﷺ قال عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى)!

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٨.

إنا نردّ هذا وأشباهه تنزيهاً للرسالة المحمدية الإلهية، مهما يكن راويها من الثقة، ونعدها عليه، وليس بمنزّه عن الخطأ والنسيان، ودخول الغلط عليه، وأخشى أن أقول: إن من يعتقد ذلك يكون كأهل الجاهلية، الذين قالوا:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فليبحثوا عن موقفهم كمسلمين مؤمنين، وذلك لأنهم آثروا راوياً على القرآن، وعلى الرسالة المحمدية كلها، إذ جعلوا الشك يرد على بيانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.[1]

مثال آخر:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فتلك الآية بإطلاقها صريحة، واضحة في أن المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشراً، سواء كانت حاملاً، أم غير حامل، ولكن فريقاً من المفسرين لم يتناولوا الآية على إطلاقها، بل قيدوها بكونها غير حامل، بسبب رواية رووها عن سبيعة الأسلمية، وهي كما يلي:

حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَى قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبُوهُرَيْرَةَ جَالِسٌ عِنْدَهُ فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ آخِرُ الأَجَلَيْنِ قُلْتُ أَنَا ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي، يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهْيَ حُبْلَى فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ

---

(١) الإمام أبو زهرة – زهرة التفاسير – تمهيد: ٢٤.

فِيمَنْ خَطَبَهَا.[1]

وقالوا في تفسير الآية:

«ولا يخرج من ذلك -أي: من عموم هذه الآية- إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدّتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لو لا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية، المُخَرَّج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لي أراك مُتَجَمِّلة؟ لعلك ترجّين النكاح. والله ما أنت بناكحٍ حتى يمر عليك أربعة أشهر وعَشْر.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت، فأتيتُ رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حلَلَتُ حين وضعتُ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي.

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيعة، يعني لما احتُجَّ عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو قول أهل العلم قاطبة».[2]

أساس غير ثابت:

فبُني تأويل الآية على أمرين:

أحدهما: عموم قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والواقع أن سياق الكلام لا يقبل في اللفظ ذلك العموم الذي زعموه، فالحديث كله يدور حول المطلقات، والمراد بأولات الأحمال، أولات الأحمال من المطلقات لا غير.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: ٣/ ٣٧٥/ ٤٩٠٩.

(2) تفسير ابن كثير: ١/ ٦٣٦.

والأمر الآخر، الذي بُني عليه تأويل الآية حديث سبيعة الأسلمية، وكان المفروض أن تعرض تلك الرواية على الآية، حتى يحكم لها، أو عليها في ضوء الآية، ولكنه عكس الأمر، وجُعلت الرواية هي القاضية على الآية، وهو خلاف الأصل، فالقرآن يَقضِي ولا يُقضى عليه.

وتلك الرواية، وإن كانت من رواية الشيخين، ليست محفوظة، ورواتها ليسوا حجة. ولقد سبق لنا حديث مستفيض حول موضوع العدة، وحول تلك الرواية ورواتها في كتابنا «عقد الجمان في تقويم تدبر القرآن»[1]: الفصل: (الضابط السادس من ضوابط التفسير) فيحسن استحضاره.

مثال ثالث:

قال تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

الكلالة في بيان القرآن:

هذا بيان من ربنا سبحانه وتعالى في أمر الكلالة، وأنزل ربّنا هذا البيان على طلب من الناس، فهل يتصور أن يبقى في هذا البيان شيء من الغموض، أو شيء من النقص، أو شيء من الغبش؟ اللهم لا.

فما الكلالة في بيان القرآن؟ الكلالة أن يهلك امرؤ، وليس له ولد، وله أخ أو أخت.

تلك الحالة من الوفاة تسمى كلالة.

فإذا كانت تلك الحالة، فالأخت أو الأخ يحل محل الولد، ويرث ما يرث الولد.

---

(١) من منشورات دار عمار، الأردن، ٢٠١٦.

هذا تعريف القرآن للكلالة، وهو يختلف عما وردت به الآثار والروايات، فما تعريف الكلالة في الآثار والروايات؟

الكلالة في الآثار والروايات:

قال صاحب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»:

أخرج أبو الشيخ في الفرائض عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال: ما خلا الولد والوالد.

وَأخرَج عبد الرزاق وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة والدرامي، وابن جَرِير، وابن المنذر والبيهقي في «سُنَنِه» عن الشعبي قال: سئل أبو بكر عن الكلالة فقال: إني سأقول فيها برأيي فإذا كان صواباً فمن الله وحده لا شريك له، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه بريء، أراه ما خلا الولد والوالد. فلما استخلف عمر قال: الكلالة ما عدا الولد. فلما طعن عمر قال: إني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر رضي الله عنه.

وأخرج عَبد بن حُمَيد عن أبي بكر الصديق أنه قال: من مات ليس له ولد ولا والد فورثته كلالة فضجَّ منه علي. ثم رجع إلى قوله.

وأخرج عبد الرزاق عن عمرو بن شرحبيل قال: ما رأيتهم إلا قد تواطؤوا أن الكلالة من لا ولد له ولا والد.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور، وَابن أبي شيبة والدرامي، وَابن جَرِير، وَابن المنذر والبيهقي في «سُنَنِه» من طريق الحسن بن محمد بن الحنفية قال: سألت ابن عباس عن الكلالة قال: هو ما عدا الوالد والولد، فقلت له ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ فغضب وانتهرني.

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس قال: الكلالة: من لم يترك ولداً ولا والداً.

وأخرج ابن أبي شيبة عن السميط قال: كان عمر يقول: الكلالة: ما خلا الولد والوالد.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: الكلالة ما كان سوى الوالد والولد من الورثة، إخوة أو غيرهم من العصبة، كذلك قال: علي، وَابن مسعود، وزيد بن ثابت.[1]

الفرق بين التعريفين:

ذلك تعريف الكلالة في الآثار والروايات، وهو يختلف اختلافاً واضحاً عن تعريف القرآن، حيث إن القرآن لا يذكر الوالد في تعريف الكلالة، وإنما يذكر الولد فقط.

فوجود الوالد، أو عدم وجوده سواء في بيان القرآن، والإخوة هم الذين يحلون محل الولد، إذا لم يكن ولد. والوالد يَجِدُ في حالة وجود الإخوة مثل ما يجد في حالة وجود الولد، لا أقل ولا أكثر.

هذا حسب بيان القرآن، وأما إذا رجعنا إلى ما وردت به الآثار والروايات، فالوالد هو الذي يحل محل الولد، ويأخذ ما يأخذ الولد، والإخوة والأخوات لا يجدون من الميراث شيئاً، ويكونون محجوبين بالوالد حجباً كاملاً.

فما الموقف؟

فما الموقف السليم إذاً في تأويل الكلالة؟

هل نبنيه على الآثار والروايات، وهي تخالف نص القرآن، أم نتمسك ببيان القرآن، ونقبل ما وافقه من تلك الآثار والروايات، ثم ننصرف عن غيره انصرافاً، ولا نلقي له بالاً؟

وإن تعجب فعجب ما فعله الناس، حيث ركنوا إلى تلك الآثار والروايات، وجعلوها هي القاضية على الآية، وبنوا نظام الميراث كله على تلك الآثار والروايات!

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٢/ ٧٠٠-٧٠١.

فلا بد من إعادة الأمور إلى نصابها، ولا بد من إعادة المياه إلى مجاريها، وربنا يهدينا إلى سواء الصراط.

ومن أحب أن يتوسع في الموضوع، فليرجع إلى كتابنا: (إمعان في مشكل القرآن).

مثال رابع:

قال ربنا سبحانه وتعالى:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٥-٨].

مفاد تلك الآيات:

تفيد تلك الآيات ما يلي:

١- نبينا عليه الصلاة والسلام ما خرج لـمّا خرج برأيه واجتهاده، بل ربه تعالى هو الذي أخرجه من بيته، أي: أمره بالخروج.

٢- حينما خرج النبي عليه السلام لما خرج، كان فريق من المؤمنين كارهين لهذا الخروج.

٣- لم تكن هذه مجرد كراهية، بل كان يصحبها خوف شديد، فهم كانوا يشعرون وكأنهم يساقون إلى الموت.

٤- إن الله وعد المؤمنين قبل أن يخرجوا من المدينة، أنه سينصرهم على إحدى الطائفتين، ولفظ (إحدى الطائفتين) كان فيه إبهام، ولكن السياق وأسلوب الوعد سكب في قلوبهم برد الاطمئنان، ونفث في روعهم أن المراد بإحدى الطائفتين هي الطائفة ذات الشوكة، ففرحوا واستبشروا، وكان فريق منهم يودون أن تكون لهم غير ذات الشوكة، وهم الذين قالوا آمنا، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

٥- لم يكن من خطّة رسول الله وأصحابه إدراك العير، ونهب الأموال، وإحراز الغنائم.

٦- لم يكن لهذا الخروج أيّ هدف غير إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وذلك بقطع دابر الكافرين.

تلك حقائق واضحة ناصعة عن غزوة بدر، وأهدافها وخلفيّاتها في ضوء تلك الآيات، وهي تختلف تماماً عما تذكره الآثار والروايات.

والعجيب الغريب في الأمر أن فريقاً من المفسرين رحمهم الله فسروا هذه الآيات بتلك الآثار والروايات، فذكر - مثلاً - صاحب الدر المنثور في تفسير تلك الآيات ما يلي:

«أخرج ابن إسحاق، وَابن جَرِير، وَابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلكُموها، فانتدب الناس فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقى حرباً وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً عن أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً ﷺ قد استنفر لك أصحابه فحذر من ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فليستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً ﷺ قد عرض لها في أصحابه فخرج سريعاً إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له وجران فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عن عيرهم فاستشار النَّبِيّ ﷺ الناس فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسنَ، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الله الذي بعثك لئن سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له، وقال له سعد بن معاذ رضي

الله عنه: لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقى عدونا غدا إنا لصُبُر في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد رضي الله عنه ونشطه ذلك، وقال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

وأخرج ابن جرير، وَابن المنذر، وَابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٧] قال: أقبلت عير أهل مكة من الشام فبلغ أهلَ المدينة ذلك فخرجوا ومعهم رسول الله يريد العير فبلغ أهل مكة ذلك فخرجوا فأسرعوا السير إليها لكي لا يغلب عليها رسول الله ﷺ وأصحابه فسبقت العير رسول الله ﷺ وكان الله عز وجل وعدهم إحدى الطائفتين وكانوا أن يَلْقوا العير أحب إليهم وأيسر شوكة وأخصر نفراً ،فلما سبقت العير وفاتت رسول الله ﷺ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد القوم فكره القوم مسيرهم لشوكة القوم فنزل النَّبِيّ ﷺ والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة فأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم يُوَسْوِسُهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تُصَلُّون مُجنبين وأمطر الله عليهم مطرا شديدا فشرب المسلمون وتطهروا فأذهب الله عنهم رجز الشيطان وأشفَّ الرمل من إصابة المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وأمدَّ الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة عليهم السلام».[1]

مفاد الآثار والروايات:

تلك الآثار والروايات التي ذكرها الإمام السيوطي في تأويل تلك الآيات من سورة الأنفال، والنظرة السريعة فيها تؤدينا إلى النتائج التالية:

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٤/ ٢٤-٢٥.

١- عَلِم النبي عليه السلام بأن أباسفيان مقبل من الشام، ومعه أموال، فندب المسلمين إليهم، علّهم يغنمون تلك الأموال. فهذا الخروج لم يكن بأمر من الله، وإنما كان برأي واجتهاد من النبي عليه السلام.

٢- لم يكن في بال المسلمين أن رسول الله سيلقى الحرب، فخفّ بعضهم، وثقل بعضهم، أي: خرج بعضهم وقعد بعضهم.

٣- حينما خرج رسول الله من المدينة، ما خرج بنيّة القتال مع جيش الكفار، وإنما كان يريد عير أبي سفيان.

٤- ماخرجت قريش من مكة إلّابعد ما بلغهم أن محمداً عليه السلام وأصحابه خرجوا لعير أبي سفيان.

٥- لم يستطع المسلمون أن يدركوا العير لأنها سبقتهم، وجاءتهم قريش قضّها بقضيضها فسيقوا إلى الحرب، وهم لها كارهون.

٦- غُلب المسلمون ببدر على الماء، واستولى عليه المشركون، فبقي المسلمون بدون ماء، وصلّوا وهم مجنبون، حتى أنزل الله لهم من السماء ماء.

تلك النتائج الخطيرة، التي تؤدينا إليها تلك الآثار والروايات، فلننظر كيف تغير الاتجاه، وكيف تغير الوضع، وكيف تغير كل شيء!

والصورة الجميلة الرائعة المشرقة، التي رأيناها في الآيات وتمليناها، تحولت في الآثار والروايات إلى صورة مُشوَّهة منكرة!

الآيات في واد، والروايات في واد!

فهل نجد أيّ شبه، وأي قرابة بين تلك الآثار والروايات، وبين تلك الآيات؟ إن الآيات في واد، وتلك الآثار والروايات في واد!

ولكن مع ذلك نرى المفسرين رحمهم الله فسروا تلك الآيات بتلك الروايات.[١]

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: سورة الأنفال- وتفسير ابن كثير: سورة الأنفال- وفتح القدير: سورة الأنفال.

ومما يدعو إلى العجب أن الروايات والآثار كلها تبني غزوة بدر على إفلات العير، والقرآن صريح في أن العير لم تفلت، وهي كانت في متناول أيدي المؤمنين، ولكنهم لم يلتفتوا إليها؛ لأنهم لم يخرجوا لها.

قال تعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فالمؤمنون كانوا بالعدوة الدنيا، وكان الركب أسفل منهم، ولو أراد المؤمنون لتناولوهم بسهامهم، ولم يكونوا ليفلتوا منهم، ولكنهم قد ركلوا الدنيا بأقدامهم، وكانوا أجلّ وأعلى من أن تُلهيهم تلك الأموال، فانصرفوا باهتماماتهم، وطموحاتهم كلها إلى ما خرجوا له، ألا وهو إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقطع دابر الكفار.

وبالجملة فالروايات والآثار التي وردت في تفسير الآيات كلها لا تخلو من احتمال الخطأ، ولا تخلو من احتمال الوضع والتصحيف، وهي لا تصلح أبداً لأن يُبنى عليها تأويل الآيات، وإن فعلنا ذلك فهو أدنى أن يرمينا بعيداً عن معاني الآيات وأهدافها، كما رأينا في الأمثلة التي ذكرناها آنفا. وكم سبقت لها أشباه ونظائر فيما سبق!

فالطريقة المثلى في تفسير الآيات أن نفسرها في ضوء أشباهها ونظائرها، وفي ضوء سياقها وسباقها، وفي ضوء ألفاظها وأساليبها، مع الاستعانة بكلام العرب، وأساليب العرب فيما يتعلق بمعاني الكلمات، ويتعلق بدلالة الكلام.

وأما الآثار والروايات فهي لا تكون إلا للاستئناس، فلا يقبل منها إلا ما وافق ظاهر الآيات، وأما ما خالفه منها، فالانصراف عنه أولى وأجدى.

ولا يَهِمَنّ واهمٌ أن هذا انصراف، أو استغناء عن بيان الرسول عليه الصلاة والسلام، ونعوذ بالله من أن نجلب على أنفسنا هذا الشقاء، أو نوقع أنفسنا في هذا البلاء.

وإنما هو انصراف واستغناء عن أعداء القرآن، الذين أرادوا أن يتلاعبوا به باسم رسول الله وأصحابه، وأرادوا أن يحيدوا بأمة القرآن عن جادّة القرآن، والله مُوهنُ كيدهم، ومحبط أعمالهم.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل العاشر

تجنب الإسرائيليات، والحذر منها كما نحذر الأفعى!

ليعلم الباحث أن الإسرائيليات ما وُلدت إلا عداء للقرآن، وما وُلدت إلا إضلالاً للمسلمين عن معاني القرآن، ورسالة القرآن، وكان أولى بأئمة التفسير، وأئمة الحديث أن يحذروها كل الحذر، كان أولى بهم أن يحذروها كما يحذرون الأفعى!

ولكن العجب العجاب أنهم وقعوا في فِخاخ الإسرائيليات مع إدراكهم خطورة أمرها، ومع علمهم بأن إثمها أكبر من نفعها.

فهم قسموها إلى ما تجوز روايته، وما لا تجوز!

قال الإمام ابن كثير:

«غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال:

«بَلِّغوا عني ولو آية، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به

ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم».[1]

هكذا تسربت الإسرائيليات إلى تراثنا من كتب التفسير والحديث وتراكمت، والقسم الذي زعموه مباحاً، أو زعموه مسكوتاً عنه، جرّهم إلى مالم يكن مباحاً، ولا مسكوتاً عنه.

وهكذا التبس الحق بالباطل، واختلط الحابل بالنابل، وغشي تراثنا من الإسرائيليات ما غشيه! وطمس من معاني القرآن ما طمسه!

سؤال يختلج في النفس:

وهنا يختلج في نفس الباحث سؤال: هل يصح أن رسولنا عليه الصلاة والسلام أباح لنا رواية الإسرائيليات؟ وإن أباحها لنا، فلماذا أنكر على سيدنا عمر، حينما أراد ذلك؟

فقد روى البيهقي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنَ الْيَهُودِ تُعْجِبُنَا أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي».[2]

ولماذا أنكر سيدنا عبدالله بن عباس على الناس حينما أرادوا ذلك؟

فقد روى البخاري، قال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس قال:

يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضاً لم يشب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً! أوَ لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلاً منهم

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٩.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، باب ذكر حديث جمع القرآن: ١/ ٣٤٧.

يسألكم، عن الذي أنزل عليكم.[1]

وإذا كانت تلك الرواية، التي تمسكوا بها، واستندوا إليها تبيح الرواية عن بني إسرائيل، فهي جاءت مطلقة إطلاقاً، لا قيد فيها ولا تخصيص، فما بالهم يقيدونها بشروط، ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام؟ ولماذا لا يفتحون باب الرواية عن بني إسرائيل على مصراعيه؟

ويا حبذا لو أنهم تركوا تلك الرواية على إطلاقها، بدون قيد ولا تخصيص، ثم أنعموا النظر في ألفاظها وأسلوبها، وحاولوا أن يتوصلوا إلى معناها الصحيح.

ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا في نجوة من الإسرائيليات، وما وقعوا في فِخاخها الخبيثة الملعونة البتة!

ما معنى التحديث عن بني إسرائيل؟

فالرواية التي رواها الإمام البخاري هكذا:

حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، أخبرنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي كبشة، عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.[2]

فهناك ثلاثة أمور في تلك الرواية، جاءت تباعا:

١- بلغوا عني ولو آية.

٢- وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج.

٣- ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.

فلنقف عندها وقفة واعية متأنية، ولننظر، ما المناسبة بين تلك الأمور الثلاث؟

فقوله عليه السلام: (بلغوا عني ولو آية.) واضح معلوم، حيث أمر المؤمنين أن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: ٤/ ٥٧٢/ ٧٥٢٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: ٢/ ٥٠٠/ ٣٤٦١.

يبلغوا الناس هذا القرآن، ويبلغوهم دين الإسلام. وهي مسئولية في أعناق المسلمين، قائمة لازمة ولا شك.

ولكن ما معنى قوله عليه السلام: (وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج.)؟ وهل أمر المؤمنين أن يَرْوُوا عن بني إسرائيل أباطيلَهم وأقاويلهم، وتُرَّهاتهم البسابس، مثلما يبلغون عن نبيهم هذا القرآن العلي الحكيم؟

وما الصلة بين هذا القرآن العلي الحكيم، وبين ترّهات بني إسرائيل البسابس؟ حتى يأمر عليه السلام بتبليغ القرآن، ورواية ترهاتهم في وقت واحد، وبأسلوب واحد!

ألا يكون ذلك جمعاً بين النور والظلام؟ ألا يكون ذلك جمعاً بين الظل والحرور؟

لاشك أن الذين فسروا «التحديث عن بني إسرائيل» بمعنى الرواية عنهم أبعدوا النجعة، وأخطؤوا الغاية. فما كان رسول الله ليأمر المؤمنين بالرواية عن بني إسرائيل، وهم أشد الناس عداوة لدين الله، وأشد الناس عداوة لمن آمن بالله، وماذا يجني المؤمنون من الرواية عنهم غير الحسرة والندامة؟

ما معنى: لا تصدّقوا ولا تكذّبوا؟

ومما شجّع الناس على الرواية عن بني إسرائيل، أو على قبول الإسرائيليات ما رواه البخاري وغيره، عن أبي هريرة، قال:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، و﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية.[1]

وهذه الرواية، كأختها، لا تبيح لنا شيئاً من أقاويل بني إسرائيل،كما قيل، وكما ذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره، إذ قال:

«والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: ٤/ ٥٧٨/ ٧٥٤٢.

ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لما تقدم».

فتلك الرواية لا تبيح حكاية الإسرائيليات، بل تنهانا عن الاستماع إلى أهل الكتاب، والاهتمام بأحاديثهم أصلاً، وتأمرنا بالانصراف عنهم، والنفور منهم بتاتاً.

فالاستماع إليهم من غير تصديق ولا تكذيب، ليس فيه إلا تهتار وتضييع للوقت، وما كان رسول الله ليأمر المسلمين بشيء يضيع وقتهم، ويضيع عليهم جهدهم، ويفسد عليهم دينهم، ويشغلهم عن كتاب ربهم.

ورسولنا عليه الصلاة والسلام كان أحرص الناس على كل دقيقة من حياته، وكان يربي عليه أصحابه، وكان يعلّمهم أن يغتنموا الوقت، وينتهزوا الفرص. وكان يقول لهم: (إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(١)

الحكاية في حكم التصديق!

ثم حكاية الكلام، ولو كانت من غير تصديق ولا تكذيب، تكون في حكم التصديق، وتكون إسهاماً واضحاً في الترويج، وأيّ تصديق وأيّ ترويج يكون أقوى وأرقى من أن نقرن رواياتهم وترّهاتهم بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير والبيان؟

وهيهات أن يبيح لنا رسول الله حكاية الإسرائيليات، وحكاية ترّهاتهم البسابس، فقوله عليه الصلاة والسلام:

(لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، و(قولوا آمنا بالله وما أنزل) الآية.)

ليس إلا أمراً بالإعراض عنهم، والتعفف عن أباطيلهم وخرافاتهم حيث ورد في صفات المؤمنين:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وهل عند أهل الكتاب غير الأباطيل والخرافات؟ وهل عندهم غير اللغو

---

(١) مصنف عبدالرزاق، باب ترك المرء ما لا يعنيه: ١١/ ٣٠٧/ ٢٠٦١٧.

والتأثيم؟ وماذا يفعل المؤمن بسماعها، وماذا يستفيد منها؟

ولايعزبنّ عن بالنا أن لفظ بني إسرائيل لايطلق إلا على غير المسلمين من اليهود والنصارى، وليست الرواية عنهم إلا صورة من صور موالاتهم، وتكرمتهم، وقد نهينا عنهما أشد النهي، حيث قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

فمن أي جهة رأينا وجدنا مفهوم الرواية عن بني إسرائيل، أو مفهوم الحكاية عنهم مفهوماً سقيماً، يؤدينا إلى محظور، ويوقعنا في المحذور!

فلا بد أن يكون للتحديث عن بني إسرائيل معنى آخر، يكون سليماً من تلك الإشكالات، ويكون مستوياً على هؤلاء القوم، فنقول وبالله التوفيق:

معنى: التحديث عن شخص أو قوم:

المعنى الأصل للتحديث عن الشخص، أو التحديث عن القوم: هو ذكر ما فيه من خير أو شر، وذكر ما فيه من محامد أو مساوئ، وذكر ما يتصل به من أحوال وأخبار، فقالوا – مثلاً -: حَدِّثْ عَنْ مَعْنٍ وَلاَ حَرَج.

يَعْنُونَ مَعْنَ بن زائدة بن عبد الله الشيباني وكان من أَجْواد العرب.[1]

وقال ابن المعتز:

تَعاهَدَتــكَ العِهــادُ يا طَلَلُ   حَــدِّثْ عن الظّاعنينَ، ما فعَلوا

فقــالَ: لم أدرِ غيــرَ أنهــمُ   صاحَ غرابٌ بالبينِ، فاحتملوا[2]

وقال الآخر:

حدّث عــن الماضي وأعراسه   وعن صروف الزمن الغادره

---

(١) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري: ١/ ٢٠٧/ ١١٠٣.

(٢) ديوان ابن المعتز: ١/ ٤٥٦.

وعن جـــــدود فيك ميمونة وعن جدود بعدها عاثره[1]

هذا هو معنى التحديث عن الشيء، كما نجده في كلام العرب.

معنى: حدثوا عن بني إسرائيل:

فإذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام:

(حدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج) فالتحديث عن بني إسرائيل هو ذكر أحوالهم وأخبارهم، وذكر أعمالهم وأفعالهم، وذكر حاضرهم وغابرهم.

وماذا عند بني إسرائيل في تاريخهم الطويل؟ حتى يُذكر، غير المكر والخداع، وغير الشقاق والنفاق، وغير الفسق والفجور، وغير العكوف على السيئات والإغراق في الشهوات، وغير تكذيب الرسل والتبييت لقتل الأنبياء، وغير إشاعة المنكر والفحشاء، وغير الشحّ والشحناء!!

فالقرآن كشفهم كشفاً، وفضحهم فضحاً، وذكر سرّهم وجهرهم، وذكر حاضرهم وغابرهم، وحذّر المؤمنين تحذيراً ألا يتخذوهم أولياء، ويكونوا منهم دائماً على حذر، كما يكونون من العقارب، والحيات، والأفاعي على حذر!

ولعل نبينا عليه الصلاة والسلام أراد من أتباعه المؤمنين أن يفعلوا هكذا، أراد منهم أن يفعلوا بهم مثلما فعل القرآن، فيحذروا بني إسرائيل، ويحذّروا الناس منهم. ولا يخافُنّ أن كشف مساوئهم يكون من الإثم، أو يكون من الاغتياب، أو يكون من الاعتداء، فليس فيه أيّ حرج، بل هو برّ وإحسان إلى البشرية جمعاء، حتى لا يُخدعوا منهم، ولا يقعوا في فِخاخهم الخبيثة الملعونة لكونهم على غير علم.

فلننظر إلى علمائنا الأعلام، كيف قلبوا الأمر، وعكسوا الوضع، وفعلوا بهؤلاء الأعداء مالم يؤمروا به، حيث فتحوا لهم صدورهم، وأصغوا إليهم آذانهم، واقتبسوا منهم، وتلقفوا كل ما ألقوه إليهم، ثم أفسحوا المجال لتلك الإسرائيليات، في مجالس دروسهم، وأدخلوها في بطون كتبهم، فكانت الكارثة أية كارثة!!

---

(١) دواوين الشعر العربي على مر العصور: ٥٥/ ١٢٨.

روايات كاذبة عن الصحابة!

لا يقولنّ قائل: إن استمع إليهم علماؤنا، فقد استمع إليهم قبل ذلك أصحاب رسول الله، عليه وعليهم الصلاة والسلام، فكم جاءنا من تلك الإسرائيليات عن طريق أبي هريرة، وكم جاءنا منها عن طريق عبد الله بن عباس، وكم جاءنا منها عن طريق عبد الله بن عمرو بن العاص، وكم جاءنا منها عن طريق غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين!!

فما ذنب علمائنا المحدثين أو المفسرين، إن اقتفوا آثار سلفهم الصالحين من أصحاب رسول الله؟

لا يقولنّ قائلٌ هذا الكلام بعد ما مرّ معنا آنفاً من إنكار سيدنا عبدالله بن عباس على قوم كانوا يذهبون إلى أهل الكتاب ليسمعوا منهم رواياتهم وأقاويلهم؛ ففيه دليل واضح على أن ابن عباس كان يكرههم، وكان يكره رواياتهم، وترّهاتهم.

وعلى هذا، فنحن نملك الجزم بأن كل ما جاءنا من الإسرائيليات عن طريق سيدنا عبدالله بن عباس، هو منه بريء، والأعداء هم الذين وضعوا تلك الروايات الكاذبة وألصقوها به، ليروّجوا بضاعتهم الكاسدة في سوق المسلمين.

وإذا فعلوا ذلك مع سيدنا عبد الله بن عباس، فما الذي يمنعهم من أن يفعلوا ذلك مع سيدنا أبي هريرة، أو سيدنا عبدالله بن عمرو بن العاص أو غيرهما من أصحاب رسول الله؟

وإذاً، فلنعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لا يمتّون بأية صلة إلى تلك الإسرائيليات، وكذلك تلامذتهم الراشدون، أو التابعون لهم بإحسان، والأمر كله كذب وافتراء على هؤلاء.

فهؤلاء كانوا أعقل، وأفقه من أن يقعوا في تلك الفخاخ الخبيثة الملعونة، ونبيهم عليه الصلاة والسلام قد حذّرهم إياها تحذيراً، وخوّفهم إياها تخويفا.

دفع شبهة:

قد يقول قائل: احتمال أن تكون تلك الروايات الإسرائيلية مختلقة، وموضوعة على بعض الصحابة والتابعين، إنما يتجه في الروايات التي يكون في أسانيدها راو مجهول، أو ضعيف، أو وضاع، أو متهم بالكذب، أوسيئ الحفظ، يخلط بين الروايات ولا يميز، أو نحو ذلك، ولكن كم من تلك الروايات حكم عليها صيارفة الحديث بأنها صحيحة السند، أو حسنة السند، أو أسانيدها جيدة، أو ثابتة، فماذا يقال فيها؟!

نقول: لا منافاة بين كونها صحيحة السند، أو حسنة السند، أو قوية السند وبين كونها من موضوعات بني إسرائيل وأكاذيبهم.

والترهات، والخرافات، والأكاذيب إذا جاءت بأسانيد صحاح ومتان، فهي تكون أدعى إلى الشك والريبة في أمرها، وتكون حجة واضحة صارخة على كونها مكذوبة، ولا يخفى أمرها على من كان من نقّادها.

فإن الوضاعين حينما يضعون الروايات، ويريدون لها الرواج والانتشار بين الناس، لا يركّبون عليها إلا أسانيد قوية ومتينة حتى تطير تلك الأكاذيب بسرعة في الآفاق، وتكون مقبولة عند الناس على مافيها من علاّت وظلمات! ولو أراد شخص أن ينبذها، لما فيها من آفات وظلمات، فهو يفكر في أمرها قبل أن ينبذها ألف مرة، لقوة أسانيدها.

رواية قوية في سندها، منكرة في متنها!

نذكر على سبيل المثال، تلك الرواية التي أثبتها معظم المفسرين في أسفارهم، إن لم نقل كلهم، وفسروا بها قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قالوا في تأويل تلك الآية:

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن

عبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حَيِياً، وذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصرًا جدًا، وقد رواه في أحاديث «الأنبياء» بهذا السند بعينه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى، عليه السلام، كان رجلاً حَيِياً سِتِّيراً، لا يُرَى من جلده شَيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أُدْرَة وإما آفة، وإن الله عز وجل، أراد أن يُبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلمّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لَندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا -قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

وهذا سياق حسن مطول، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.(١)

نقد الرواية:

تلك رواية رواها الإمام البخاري، ورواها غيره من أئمة الحديث، وتلقاها أئمة التفسير قاطبة بالقبول، وقال عنه ابن كثير: هذا سياق حسن مطول!

ولكن هل يمنع ذلك كله من كونها من الإسرائيليات؟

إنا لا نشك في كونها من الإسرائيليات المقوتة، كما لا نشك في كون موسى من أنبياء الله المكرمين. ونتعجب كيف استساغها، من استساغها من المحدّثين والمفسرين!

ألا تمس تلك الرواية كرامة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام؟ وماذا بقي له

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٤٨٥.

من الكرامة بعد ما وقف في القوم عرياناً، ورآه الناس كلهم في حالة لا يرضاها؟!

وأين تلك الرواية من قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

فالله يستر على كل شخص، ويحب الإنسان إذا كان حَيِياً سِتِّيراً، والشيطان هو الذي ينزع عن بني آدم لباسهم، وهو الذي نزع عن أبوينا لباسهما، وأخرجهما من الجنة، وما استطاع أن ينزع عنهما لباسهما إلا بعد ما عصيا ربهما، وسيدنا موسى لم يعص ربه، حتى ينجح فيه الشيطان!

وأما ربه فأكرمه غاية الإكرام، وألبسه حلل النبوة والرسالة، وما كان ليعرّيه، أو يجرده من لباسه أمام الملأ، فتلك فضيحة لا يستحقها المرسلون!

وما كان الله ليعبأ بشبهة قوم عصاة طغاة أشقياء، إن كانت عندهم شبهة! فَشُبهتهم لا تنتهي، ولا يشفيهم إلا الكيّ بنار هي مصيرهم!

وسيدنا موسى لم يتعرّ، وإنما بنو إسرائيل هم الذين تعرّوا، وتجرّدوا من لباسهم، وأرادوا أن يجرّدوا نبيهم موسى عليه السلام كما تجردوا، وليس ذلك فحسب، فهم يريدون أن يجرّدوا بني آدم كلهم!! قاتلهم الله أنى يؤفكون!

رواية أخرى سندها قوي، ومتنها منكر!

قالوا في تفسير قصة موسى مع صاحبه:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. بذلك قال البخاري:

حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير

قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البِكَالِيّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عَدُوّ الله، حدثنا أُبيُّ بن كعب، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فَسُئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا، تجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ.

فأخذ حوتاً، فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يُوشع بن نون عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جِرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوَزَا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] قال: «فكان للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

قال: «فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخَضِر: وَأنّى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما عُلِّمت رشدا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، يا موسى إني على علم من علم الله عَلَّمنيه، لا تعلمه أنتَ، وأنتَ على علم من علم الله عَلَّمَكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوه، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقَدُّوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، فعمدتَ إلى سفينتهم

فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٢-٧٣] قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا». قال: وجاء عصفور فنزل على حرف السفينة فنقر في البحر نَقْرة، أو نقرتين فقال له الخضر: ما عِلْمي وعلمكَ في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥] قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٦-٧٧] قال: مائل.

فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨] فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدنا أن موسى كان صبرَ حتى يقص الله علينا من خبرهما».(١)

وجوه النكارة في الرواية:

تلك الرواية رواها الإمام البخاري وغيره من أئمة الحديث، وتلقاها أئمة التفسير بالقبول، واستندوا إليها في تأويل تلك الآيات، وإذا أنعمنا النظر فيها، تأكد لدينا أنها من الإسرائيليات الممقوتة، وذلك لما يلي:

الوجه الأول:

إن سئل موسى: أيّ الناس أعلم؟ فهذا السؤال لا يكون إلا للإحراج، وكم أُحرِجَ موسى، وكم أوذي في قومه، حيث قال تعالى:

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٥/ ١٧٥.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨].

فإن كان الردّ على هذا السؤال ب(أنا) في مثل هذا الموطن، فماذا فيه حتى يستوجب العتاب من الله؟ وما كان من قصد موسى أبداً أن يتبجّح بعلمه، أو يتعاظم على ربه، وإنما هو تخلّصٌ وهروب من إحراج القوم.

والرسول إذا أرسل إلى قوم ليعلّمهم، ويخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فهو أعلمهم يقيناً، ويكون فيهم بمنزلة الأستاذ من تلاميذه الصغار، فماذا على الأستاذ إن قال لتلاميذه: أنا أعلم منكم؟ وإذا لم يكن أعلم منهم فكيف يعلّمهم؟

الوجه الثاني:

يوجد في الرواية اختلاف واضح، حيث ورد فيها ما يلي:

«فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك».

وقال صاحب موسى: «يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلمه».

فالكلام الأول صريح في أن هذا العبد الموجود بمجمع البحرين، كان أعلم من موسى.

والكلام الآخر صريح في أنه لم يكن أعلم من موسى، وإنما هما يجولان في مجالين مختلفين، وكلٌّ في مجاله أعلمُ من غيره.

الوجه الثالث:

ذكر القرآن تلك القصة، وأسهب فيها، والقارئ حينما يقرؤها، لا يشعر من أيّ كلمة، أو من أي آية أن تلك الرحلة كانت عتاباً من الله، أو كانت تأديباً لموسى على ذنب ارتكبه، خلافاً لما جاء في الرواية، فإنه يُشعر ذلك.

الوجه الرابع:

تلك الرواية تذكر صاحب موسى، وكأنه من بني آدم، وكان معروفاً في القرية التي كان يسكن فيها، ومن هنا اختلف الناس في أمره، فذهب بعضهم إلى أنه نبي من الأنبياء، والبعض الآخرون إلى أنه ولي من الأولياء، واختلفوا في شأنه: أنه مات، أم ما زال على قيد الحياة؟

وأما سياق الآيات، فهو واضح في أنه كان من جنس الملائكة، فإن الأعمال التي تمّت على يديه،كلها تتصل بالعلم التكويني، والعلم التكويني لايُؤْتَاهُ إلا الملائكة المقربون. وأما النبي، أو الوليّ، فهذا ليس من اختصاصه، وإنما الذي يخصه هو علم الشرع.

الوجه الخامس:

تذكر الرواية أن سيدنا موسى وجد صاحبه مسجى بثوب، وكأنه كان نائماً، والآية توحي بأنه أدركه وهو على جناح السفر، أو كان يتأهب للخروج، فقال له:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

الوجه السادس:

جوّ القصة، وأسلوبها لا يحمل تنبيهاً لسيدنا موسى على أن هناك من هو أعلم منه، بل هو تثبيتٌ لفؤاده، وتدريب له على الصبر، ولذلك نرى السياق يركّز على فضيلة الصبر، فتلك سبع عشرة آية، تكرر فيها لفظ الصبر سبع مرات. وما تكرر لفظ الصبر في أيّ سياق أو في أية سورة، بقدر ما تكرر في تلك الآيات.

وسيدنا موسى كان في محنة شديدة، ومعاناة مرهقة من قومه، وقد كانوا قوماً لُدّا. ولعله أوذي أذى ما أُوذيها غيره، كما يظهر من تلك الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾

[الأحزاب: ٦٩].

فالظروف التي كان يعيشها سيدنا موسى، كانت في غاية الحرج، وكانت تحدياً صارخاً لصبره وحلمه، وكان عليه السلام، وهو في تلك المعاناة الشديدة المثبّطة للهمم، والمزلزلة للأقدام، كان فيها بحاجة إلى صبر كالجبال.

فأرسله الله إلى ذلك الملك الكريم، حتى يريه شيئاً من ملكوت الله، ويطلعه على طرف من أسرار الغيب، فإن الإنسان لا يصبح فؤاده فارغاً إلا لبعده عن أسرار الغيب، ولو عرف ما يخفيه الغيب من خير وحكمة، لهان عليه الأمر، مهما عظم، ومهما اشتد.

وموسى لم يستطع أن يصبر على تصرفات صاحبه، لأنه ما كان يعرف ماذا وراءها، فلما عرف الحكمة وعرف السبب، سكن واطمأنّ.

أمارات الوضع بادية عليها!

وبالجملة، فالقصة التي ذكرها القرآن تختلف اختلافاً كبيراً مما تذكره الروايات، تختلف منها في تفاصيلها، وتختلف في روحها وأهدافها.

ولو كانت تلك القصة من رسول الله لما اختلفت هذا الاختلاف.

والقصة قصة سيدنا موسى، ولها صلة ببني إسرائيل وتاريخهم، ومعلوم أن بني إسرائيل آذوا موسى في حياته، وأساؤوا إليه بعد مماته،كما نرى في تلك القصة نفسها، حيث حرفوها عن حقيقتها، وصرفوها عن أهدافها، وجعلوها قصة عتاب وملام، في حين أنها قصة تَثبيتٍ وتمكين، وقصة عزاء وتسلية، وهي تدل على وجاهته عند الله.

وهم بصنيعهم هذا، أساؤوا إلى نبيهم موسى، حيث أوقفوه في موقف العتاب من ربه، وأساؤوا إلى كتاب الله القرآن، حيث تلاعبوا بآياته، وحرفوا الكلم عن مواضعه.

وأساؤوا إلى الناس جميعاً حيث شغلوهم عن روح القصة وأهدافها، وهم بأمسّ حاجة إلى أن يستوعبوها، حتى لا يضلّوا في تأويل الأحداث ونتائجها، ويكونوا دائماً على ثقة بالله وحكمته ورحمته، ولو كانت الظروف توحي إليهم باليأس، وكانت الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

وإذا كانت الرواية تحمل تلك المخالفات، وتشتمل على تلك المناقضات، فما الذي يمنعنا من أن نشك في صحتها، ولو كانت قد رويت عن طريق سيدنا عبدالله بن عباس؟ وماذا علينا إن اعتبرناها من الإسرائيليات الممقوتة؟ فالقرائن كلها تشهد بأنها أُلصقت به إلصاقاً، وهو منها بريء!

فكم من الإسرائيليات رويت بأسماء الصحابة، وركّبت عليها أسانيد صحاح مِتَان، حتى يستسيغها الناس، ويقبلوها، ولو على مضض وامتعاض!

رواية أخرى ثالثة سندها قوي، ومتنها منكر!

روى الإمام البخاري في صحيحه، فقال:

حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات ثِنْتين منهن في ذات الله عز وجل قوله (إني سقيم) وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا) وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها، فقال من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذَ، فقال ادعي الله لي، ولا أضرك فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال ادعي الله لي، ولا أضرك فدعت فأطلق، فدعا بعض حَجَبتِهِ فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان! فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيا؟ قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر - في نحره وأخدم هاجر، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.(١)

وروى نفس الرواية الإمام مسلم في صحيحه، مع فرق يسير في بعض العبارات، قال:

وحدثني أبو الطاهر أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني جرير بن حازم عن أيوب

(١) صحيح البخاري: ٢/٤٥٨/٣٣٥٨.

السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال « لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله (إنى سقيم). وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إنْ يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لكَ. فأرسل إليها فأُتي بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك. ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأولين فقال ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك. ففعلت وأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها مهيم قالت خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً. قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء.»[1]

فتلك رواية رواها الشيخان، ورواها الآخرون من أصحاب الجوامع والسنن، وذلك دليل على أنها جاءت بسند صحيح، ولذلك نرى جماعة من المفسرين رحمهم الله تلقوها بالقبول، وفسروا بها الآيات، ولكن الرواية تحتوي على معضلات يصعب على الباحث أن يغمض عنها، وهي كما يلي:

المعضلة الأولى:

لقد ذكر الله سيدنا إبراهيم بلقب الصديق، حيث قال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

---

(١) صحيح مسلم- باب من فضائل إبراهيم الخليل: ٧/ ٩٨/ ٦٢٩٤.

فما معنى الصدّيق؟ الصدّيق من الصدق، وليس من التصديق كما وهِم العلامة الزمخشري.(1)

وهو على وزن فِعّيل، وهو من أبنية المبالغة، فالصدّيق هو الذي لا يعرف غير الصدق، فعمله كله صدق، وقوله كله صدق، وتفكيره كله صدق.

فالصدّيق لا يعرف الكذب، ولا يكذب أبداً، وإذا كذب الرجل كذبة واحدة لا يكون صادقاً، فكيف يكون صدّيقاً، ثم إن كذب ثلاث كذبات فهو أبعد من أن يكون صادقاً، وأبعد مائة مرة من أن يكون صدّيقاً!

المعضلة الثانية:

سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: (بل فعله كبيرهم هذا) لم يكن ذلك من الكذب في شيء، بل كان أسلوباً حكيماً من أساليب الدعوة، وهذا الأسلوب عمل عمله في قلوب القوم، حيث رجعوا إلى أنفسهم وتلاوموا على ما كانوا فيه من عبادة الأصنام، ولو لوقتٍ قصير، قال تعالى:

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

ثم لوسكت إبراهيم على قوله: (بل فعله كبيرهم هذا)، ولم يزد عليه شيئاً، لكان لقائلٍ أن يقول ما قيل، ولكنه زاد عليه: ﴿ فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ثم عاد عليهم كرّة أخرى يعاتبهم، ويُهَزهِز عقولهم وقلوبهم:

﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [٦٦-٦٧].

فالنظر في سياق الكلام لا يدع لنا مجالاً للقول بأن قول إبراهيم: (بل فعله كبيرهم هذا) كان من الكذب، أو كان من التورية كما قيل، بل هو كلام كلّه صدق، وكلّه حكمة، وكلّه شجاعة.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٣/ ١٨.

المعضلة الثالثة:

وقول سيدنا إبراهيم: (إني سقيم) أيضاً ليس من الكذب في شيء، فلفظ السقيم يُستعمل للمهموم المحزون، كما يستعمل لمن أصابه مرض في جسده، بل استعماله في معنى المهموم المحزون أكثر من استعماله في معنى مريض الجسم. ولا بأس بأن نمرّ على بعض الأمثلة:

لفظ: «سقيم» في كلام العرب:

قال لبيد بن ربيعة العامري:

أضحَتْ معطلةً وأصبحَ أهلُها   ظعنُوا، ولكنَّ الفُؤادَ سقيمُ[1]

وقال كثير عزة:

أفي الدِّينِ هذا إنَّ قلبكِ سالمٌ   صَحِيحٌ وقلبي مِنْ هَوَاكِ سقيمُ[2]

وقال ابن دريد:

شفّهُ الهمُّ فهوَ نضوٌ سقيمٌ   أَيُّ نَفْسٍ مَعَ الهُمُومِ تَعِيشُ[3]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَبَاكِرَةٌ في الظَّاعِنينَ رَمِيمُ   ولم يشفَ متبولُ الفؤادِ، سقيمُ؟[4]

وقال جرير:

يرمينَ منْ خللِ الستورِ بأعينٍ   فيها السقامُ وبرءُ كلِّ سقيمِ[5]

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١/ ٩٩.

(٢) ديوان كثير عزة: ١/ ٢٠١.

(٣) ديوان ابن دريد: ١/ ١٣٥.

(٤) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ١/ ٣٤٠.

(٥) ديوان جرير: ١/ ٥٨٥.

وقال ذو الرمة:

أَلَمَّا بمحزونٍ سقيمٍ وأسعفا هواهُ بميٍّ قبلَ أنْ تتكلَّما[1]

وقال ابن المعتزّ:

أقول وقد طال ليل الهموم وقاسيت حزن فؤادٍ سقيم[2]

أيّ كذب يا ترى؟!

وسيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: (إني سقيم) كان في حزن شديد على إصرار قومه على الكفر والشرك، شأن كل نبيّ على استكبار قومه، ونفورهم من رسالته.

والقرآن صريح في أن الرسل والأنبياء كانوا يذوبون همّاً وحزناً على قومهم، حينما كانوا يرون منهم الإباء والإنكار، مثلما قال تعالى يخاطب نبينا عليه الصلاة والسلام:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

فأي كذب يا ترى، إذا قال إبراهيم لقومه: (إني سقيم)؟ وإبراهيم هو إبراهيم في رقّة قلبه، وحرصه على هداية قومه، وحزنه على عُتوِّهم واستكبارهم عن عبادة الله!

وأما ما قيل من أنهم كانوا يريدون الخروج لعيدٍ من أعيادهم، واستصحبوا إبراهيم في خَرْجَتهم هذه، وإبراهيم لم يكن راغباً في صحبتهم، فاعتلّ بذلك القول، فهو قول سقيم، والقصة لا أصل لها.

والذي فعله إبراهيم، ما فعله في غياب قومه من القرية، ولم تكن تلك مفاجأة

---

(١) ديوان ذي الرمة: ١/ ٧٥٧.

(٢) ديوان ابن المعتز: ١/ ٣٩٦– وأبو منصور الثعالبي–أحسن ما سمعت: ١/ ٢١.

خالصة، بل قد أنذرهم مسبقاً بما يريد أن يفعل بأصنامهم، حيث قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٧].

فصادف منهم غفلة، ووجد فرصة سانحة، فسجّل عليهم تلك البطولة المؤمنة الرائعة قبل أن تفوته تلك الفرصة السانحة، وكان أحقَّ بها وأهلها.

المعضلة الرابعة:

تلك حقيقة ما سمّوه (الكذبة الأولى) و(الكذبة الثانية)، فإنهما ليستا من الكذب في شيء.

وأما (الكذبة الثالثة) فلم يرد لها ذكر في القرآن، وهي لا تصمد للتحقيق، وقبل هذا وذاك فإن رائحة الإسرائيليات فيه تزكم الأنوف، فهي - ولا مرية فيه- قصة إسرائيلية وضعها من وضعها، حقداً على سيدنا إسماعيل، وبني إسماعيل!

فبنو إسرائيل يحملون الحقد القديم على سيدنا إسماعيل وبني إسماعيل، ويحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، ويزعمون أن سيدنا إسماعيل وُلد من بطن أَمَةٍ كان وهبها ملك مصر لأم إسحاق، وهي هاجر أم إسماعيل، وبذلك يرون سيدنا إسماعيل وبني إسماعيل، كما يرون الرسول الذي بُعثَ فيهم، بعين الاحتقار، ويَصِمُونهم بأنهم أبناء الجارية، أبناء خدّامةٍ لأم إسحاق، ويرون أنفسهم أشرف منهم حسباً، وأكرم نسباً!

كلمة فيها سخرية واستهزاء!

وهذا الذي تشير إليه خاتمة تلك الرواية، وهي قول الراوي:

(فتلك أمكم يا بني ماء السماء!)

وتلك كلمة فيها سخرية واستهزاء أيّ استهزاء ببني إسماعيل، وهي بيت القصيد في تلك الرواية، كأن الرواية ما وضعت إلا لتلبّس على بني إسماعيل تاريخهم، وتلقي في روعهم أنهم ليسوا كريم المَحْتِد!

والحقد الذي كانت تغلي به صدورهم، هو الذي حملهم على أن يصرّحوا بتلك النتيجة التي كانت تهمّهم، فإنهم لو لم يصرّحوا بتلك النتيجة، ربما يسمع السامع تلك الرواية، ويمرّ بها سريعاً من غير أن ينتبه لما يقصدون!

ومما لا شك فيه أن سيدنا أباهريرة رضي الله عنه لم ينطق بتلك الكلمة العوراء، ولم يرو تلك الرواية الكاذبة أصلاً، وإنما هي فرية عليه، لا مرية فيها.

والسيدة هاجر لم تكن أمة أو خدّامة ليوم من الأيام، ولم تكن هديّة من ملك مصر إلى أم إسحاق، حتى تخدمها.

لفتات قيمة للفراهي:

وللإمام الفراهي رحمه الله بحث نفيس قيّم باللغة الأردية، وهوبحث تاريخي يتحدث عن نسب كامل للنبي عليه الصلاة والسلام بدءاً من أبيه، وانتهاء إلى أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام.

والبحث يشتمل على تحقيقات نادرة تتعلق بتاريخ إبراهيم وذرية إبراهيم، وينقّب عن حلقات مذهولة من تلك السلسلة المباركة، ويكشف ما فعل اليهود من تحريفات في كتبهم حتى يشوّهوا صورة سيدنا إسماعيل والسيدة أم إسماعيل، ويكتموا أمر الكعبة وماحولها، ويضلّلوا الناس عن رسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وبيّن الفراهي في ذلك البحث أن هاجَر أم إسماعيل لم تكن أمة ولا خدّامة، بل كانت سيدة كريمة شريفة من أسرة كريمة شريفة من جُرهُم، وهي قبيلة كبيرة مشهورة من قبائل بني قحطان. وهم العرب العاربة، وكانوا يقطنون في جزيرة العرب، وكانت مملكتهم تمتد من اليمن إلى شمال الشام، ومن نهر دجلة إلى نهر النيل، وهم حكموا تلك البلاد قروناً متطاولة، وكان منهم الملك العادل الصالح المذكور في القرآن، ألا وهو ذو القرنين.

وجُرهُم كانوا يحكمون الحجاز، وكان من ملوكهم (أبو ملِك)، المذكور في التوراة، وهو الذي استقبل سيدنا إبراهيم، حينما هاجر من بابِل إلى كنعان، ومكث إبراهيم هناك فترة، ثم توجه من كنعان إلى أرض الحجاز، وألقى هناك عصا الترحال.

توجّه إبراهيم إلى أرض الكعبة:

ولقد جاء ذكر رحلة إبراهيم في كتاب التكوين في الباب: (١٢-١٣) وهو واضح في أن إبراهيم لم يتوجه تلقاء بيت المقدس، بل توجه تلقاء الحجاز، ونزل هناك. وهو ما نصّ عليه القرآن، قال تعالى في سورة الأنبياء:

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٦٨-٧١].

قال ابن الجوزي:

فأما قوله تعالى ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ ففيها قولان:

أحدهما: أنها أرض الشام، وهذا قول الأكثرين. وبَركتها: أن الله عزّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار.

والثاني: أنها مكة، رواه العوفي عن ابن عباس. والأول أصح.[١]

نقول: الأمر على العكس، فالأصح هو القول الثاني دون الأول على قلة قائليه؛ فإن القرآن بأسلوبه يرشدنا إليه، فلنمعن النظر في تلك الآيات:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير- سورة الأنبياء آية: ٧١.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿ ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

أرض الكعبة هي الأرض المباركة للعالمين:

فمما لا يخفى أن الآية الأولى ناظرة إلى المسجد الأقصى، والأخرى ناظرة إلى أرض الشام، بينما الآيتان الأخيرتان ناظرتان إلى المسجد الحرام، والملاحظ في تلك الآيات أنها حينما كانت ناظرة إلى المسجد الأقصى، أو أرض الشام قيل: (باركنا حوله) أو (باركنا فيها)، ولكن حينما كانت ناظرة إلى المسجد الحرام، قيل: (مباركاً للعالمين) وقيل: (قياماً للناس).

فالمسجد الأقصى تنزل البركات حوله، وأرض الشام، وأرض فلسطين جُعلت فيها البركات، وأما الكعبة أو المسجد الحرام فله شأن آخر، حيث تكون بركاته غير محدودة، فهو مباركٌ وهدى للعالمين جميعاً، وهو قيام وعمود الحياة لجميع الناس في أرجاء المعمورة.

فحينما قيل عن سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط عليهما السلام:

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [٧١].

علمنا أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام حينما خرجا من العراق لم يتوجها تلقاء بيت المقدس، ولم يتوجها تلقاء أيّ بلد آخر، بل توجها إلى أرض الكعبة المقدسة، أرض الحجاز، فإنها هي التي بارك الله فيها للعلمين.

وكنعان في تلك الأيام كان جزءاً من جزيرة العرب، وكان يطلق هذا الإسم على الضفة الشمالية والضفة الغربية من العرب. ثم تكاثر أهل كنعان وتوسعوا وانتشروا، وامتدت مساكنهم إلى حدود الشام، فطفقوا يطلقون لفظ كنعان على سواحل الشام.

السيدة هاجر من أسرة شريفة من جُرهم:

المهمّ أنه استقبل (أبو ملِك) سيدنا إبراهيم في كنعان استقبالاً حسناً، وأكرم

مثواه، وزوّجه كريمته هاجر، فأنجبت إسماعيل، ولما شبّ إسماعيل، وبلغ مبلغ الرجال، تزوج في أخواله من جُرهم. فهاجَرُ وحليلةُ ابنها إسماعيل، كلتاهما كانتا من جُرهُم، وكانتا من أسرة عالية كريمة شريفة ذات حسب ونسب.

ومن هنا قال زهير بن أبي سلمى المزني، وهو شاعر جاهلي:

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ ... رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ[١]

فبنى البيت سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل، ولهما قرابة قريبة وصلة وثيقة بقبيلة جرهم، وإذا كان بناء البيت ورفع قواعده بيد إبراهيم وإسماعيل، فلا يتصور أن يكون جرهم بعيدين من الأمر، ولم يقوموا بواجبهم في مساعدتهما، وجاء بعدهم قريش، فهم كانوا يُعنون بخدمته وترميمه كلما عَدَا عليه الزمان.

الحق أبلج والباطل لجلج!

تلك خلاصة ما توصل إليه الفراهي في بحثه القيم، مع زيادات وإضافات إلى ما كتبه الفراهي، والحديث ذوشجون، وتحريفات اليهود جعلته أعقدَ من ذَنَبِ الضبّ، ولكن الحق أبلج، والباطل لجلج، والنظرة الفاحصة النافذة تعرف الباطل، وتكشفه ولو جاء في ثياب برّاقة خلّابة!

فكم حاول اليهود أن يجعلوا السيدة سارة أم إسحاق هي التي تحظى بصحبة إبراهيم دون السيدة هاجر!

وكم حاولوا أن يخرجوا السيدة هاجر أم إسماعيل من حياة سيدنا إبراهيم!

وكم حاولوا أن يقطعوا صلة إسماعيل وبني إسماعيل من سيدنا إبراهيم!

وكم حاولوا أن يُسكنوا إبراهيم بعد عودته من بابل، في أرض فلسطين، بعيداً عن أرض الحجاز!

وكم حاولوا أن يقطعوا صلة الكعبة وما حولها من الصفا والمروة، من سيدنا إبراهيم!

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني: ص: ١١٢، ديوان زهير بن ابي سلمى: ص: ٧٨.

وكم حاولوا أن يجعلوا إسحاق مرافقاً لإبراهيم في بناء بيت الله دون إسماعيل!

وكم حاولوا أن يصرفوا الناس عن الكعبة، وأرادوا أن يوهموهم أن البيت الذي بناه إبراهيم هو في فلسطين، وليس في مكة؛ فإن إسحاق الذي ساعده في بناء البيت كان في فلسطين، دون مكة!

وكم حاولوا أن يجعلوا الذبيح إسحاق دون إسماعيل!

ولكنهم خابوا وفشلوا في كل ما خطّطوا وبيّتوا، وافتضحوا فضيحة لا يغطّيها الليل، ولا يسترها الذيل!

وبالجملة، فليس هناك مجال للشك في أن حديث (ثلاث كذبات) ليس من حديث رسول الله، وإنما هو من الإسرائيليات الكاذبة الخادعة، وخفي أمره على من خفي،والتبس على من التبس؛ لأنه جاء بسند قوي، وكم من الإسرائيليات جاءت بأسناد قوية، وتسرّبت إلى تراثنا الكريم على غفلة منا! نسأل الله العفو والعافية.

كلمة حكيمة للإمام الرازي:

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله، ونِعْمَ ما قال:

«واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال:

«ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات»

فقلت: الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار!

فقال على طريق الاستنكار: فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة. فقلت له:

يا مسكين! إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام! وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة، ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب، أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.[1]

---

(١) مفاتيح الغيب- سورة يوسف: ١٨/ ٤٤٣.

قصة الزاملتين:

وأما قصة الزاملتين من كتب أهل الكتاب، التي يذكرونها، وينسبونها إلى سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص، فهي قصة باطلة، قصة ليس لها أصل ولا سوق. قصة جاءت من طرق غير موثوقة، وأمارات الوضع بادية عليها.

ولذلك نرى المحققين من المفسرين والمحدثين أعرضوا عنها إعراضاً، ولم يلقوا إليها بالاً، فلا ترى لها ذكراً إلا في بعض كتب القوم، وهي ليست من كتب الأقدمين.

الإسرائيليات كلها شرّ وبلاء!

ولنعلم كذلك أن الإسرائيليات كلها شر وبلاء، وأي نوع منها لا يخلو من ضرر، ولا يخلو من خطر، ولا مبرر للتساهل في أمرها، فلنجتنبها كل الاجتناب، ولنحذرها مثلما نحذر الكلب العقور.

فهي أفسدت الأذهان، وأفسدت الأذواق، وأمرضت القلوب، كما شوّهت وجه تراثنا الإسلامي، وتراثنا التفسيري، وكدرت صفاءه، وأذهبت بهاءه بشكل فظيع، وهيأت الفرصة لأعداء القرآن، حتى يهاجموه، ويسدّدوا إليه سهام الطعن والشتم.

وفي عصرنا الحديث أجريت دراسات، وأعدّت أبحاث حول الإسرائيليات، وهي كلها متفقة على أضرارها وويلاتها بحرف واحد.

وهي كانت تفرض على أصحابها بطبيعة الحال، أن يتبرؤوا منها، وينصرفوا عنها انصرافاً باتّاً، ويدعوا الناس إلى الانصراف عنها.

ولكن كم يستغرب الباحث حينما يراهم يستسيغونها، ويلاينونها، بل يميلون إليها، ويهوّنون من خطرها، فقال - مثلاً - الدكتور حسين الذهبي:

«إن ما جاء موافقاً لما في شرعنا صدقناه، وجازت روايته، وما جاء مخالفاً لما في شرعنا كذبناه، وحرمت روايته إلا لبيان بطلانه، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه، فلا نحكم عليه بصدق ولا بكذب، وتجوز روايته؛ لأن غالب ما يروى من ذلك راجع إلى

القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام، وروايته ليست إلا مجرد حكاية له، كما هو في كتبهم، أو كما يحدثون به، بصرف النظر عن كونه حقاً أو غير حق»[1].

ما أشبه الليلة بالبارحة!

هذا هو موقف حسين الذهبي من تلك الإسرائيليات، وهو يمثل موقف الباحثين في العصر الحديث، وهو نفس الموقف الذي وقفه الإمام ابن كثير، كما رأيناه قبل قليل، والذي درج عليه المفسرون والمحدّثون الأقدمون، فما أشبه الليلة بالبارحة!

ومن المؤسف المبكي أنه لم تجن الأمة الإسلامية، عبر تاريخها الطويل، من هذا الموقف الخاطئ إلا ثماراً مرّة خبيثة.

وهذا الأمر من الوضوح بحيث يكاد يلمس بالراح، ولا يحتاج منا إلى إيضاح أو إثبات، فكل عالم غيور فاهم يتصدّع قلبه اليوم لما مُنيت به الأمة في غابرها وحاضرها، من جراء تلك الإسرائيليات.

فلماذا يصرّ هؤلاء العلماء على الموقف القديم الخاطئ من الإسرائيليات، مع علمهم بعُجَرها وبُجَرها، واعترافهم بأضرارها وويلاتها؟!

إنْ تعثّر الإنسان في ظلام الليل، فهو معذور ولا ملام عليه، ولكن ما عُذره إن تعثّر في وضح النهار؟ إن المتقدمين لم يقدّروا خطورة الموقف، ولم يشاهدوا تلك الأضرار الفادحة التي أصيبت بها الأمة بعدهم من جراء تلك الإسرائيليات، ولكن ما عذر المتأخرين، الذين ذاقوا مرارتها، وشاهدوا نكباتها؟ ما عذرهم إن أخذوا في أمرها بالهوينى، ولم يشنوا عليها غارة شعواء قاضية؟

قد يكون السبب في ذلك أنهم لم يصيبوا في تفسير الأحاديث التي وردت في شأن بني إسرائيل ورواياتهم، فذلك المفهوم الخاطئ هو الذي أوقعهم في هذا المأزِق، كما أوقع من قبلهم، وجرّهم إلى التساهل في قبول الإسرائيليات، والتسامح في التعلق بها، كما جرّ من قبلهم.

---

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث: ١/ ٦٨.

وعلى أية حال، فالتخلص من الخطأ أولى من التمادي فيه، والإصرار عليه. ومن أراد أن يفهم القرآن فهماً سليماً جميلاً، وأحبّ أن يملأ كفيه من علومه ومعارفه، فلا بد أن يتبرأ من الإسرائيليات براءة كاملة صارمة.

لا بد أن ينصرف عنها انصرافاً لا رجعة بعده، ويحاربها حرباً لا هوادة فيها.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل الحادي عشر
تصحيح الرؤية في أسباب النزول

لا بد من تصحيح رؤيتنا وترشيد موقفنا من أسباب النزول.

قال الواحدي، وهو ينوّه بأهمية أسباب النزول في تأويل الآيات:

«هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار».(١)

روايات ضررها أقرب من نفعها:

فأسباب النزول لها أهميتها، ولها دورها في توضيح مفاهيم الآيات، ولكن لا بد من التريث والتحري في رواياتها؛ فإنها جُمعت جمعاً من غير تحقيق ولا تنقيح، فهي تشمل الرطب واليابس، وتضمُّ الغثَّ والسمين، وتحتوي النافع وغيره مما يكون ضرره أقرب من نفعه!

قال بعض الباحثين:

«وحقيقة الأمر أن الواحدي كان قليل البضاعة من الحديث كأستاذه الثعلبي، وقد نقم عليهما العلماء إخراجهما أشياء قد رويت عن «سلسلة الكذب» وهي رواية السدي الصغير. ويقتضينا الإنصاف أن نقول: إن الواحدي والثعلبي لم ينفردا برواية الأحاديث الغريبة المريبة، فقد شاركهما جمهرة المفسرين، وانفرد السيوطي بالإمامة في ذلك، وأتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر، وكم من آلاف الأحاديث الضعيفة والموضوعة شحن بها كتبه، وحسبه أنه مؤلف الجامع الكبير، والدر المنثور، وإن في

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: ص ٤.

أشهر كتبه، وهو «الإتقان»، أحاديث كثيرة استغلها أعداء الإسلام في الطعن على القرآن»[1]

فالغالب فيما رواه الواحدي وغيره من أسباب النزول ما يصرف الآيات عن سَمْتِها، ويذهب بها إلى غير مذهبها، ويكون حجاباً دون ما يبغيه الباحث من حسن التأويل.

وها نحن نذكر هنا بعض الأمثلة مما ذكره الواحدي في كتابه:

مثالان مما ذكره الواحدي في سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. الآية.

قال المفسرون: إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم.

قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله -﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] - الآية: وأنزل أيضاً - ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾- الآية.[2]

ملاحظات على كتاب الواحدي:

ذانك مثالان مما ذكره الواحدي في كتابه في أسباب النزول، والذي نلاحظه فيهما أنه لم يذكرهما ممن شاهدوا التنزيل، وإنما ذكر ما قاله المفسرون المتأخرون.

وهذا هو لونه الغالب على كتابه، حيث يذكر آراء المتأخرين الذين لم يشاهدوا

---

(١) السيد أحمد صقر: في تحقيقه لكتاب أسباب النزول للواحدي: ص: ٣١-٣٢ (في الهامش).

(٢) الواحدي، أسباب النزول، ص: ٢١.

التنزيل، ويأتي في أحيان كثيرة بآراء مختلفة متضاربة حول آية واحدة، ويذكر تلك الآراء بدون سند يساندها، وبدون دليل يقترنها، وبدون ترجيح مدعوم بالأدلة فيما بينها.

وكم تكون تلك الآراء مخالفة لسياق الآيات، وغريبة عن لفظها، وغريبة عن أسلوبها، فهي تفسر الآيات تفسيراً يقطعها عن سياقها، ويبعدها عن لفظها وأسلوبها، ويجردها من روعتها وبلاغتها، وينزع عنها سموّها وعلوّها، ويطمس عنها جمالها ورونقها.

وهذا الذي نراه في هذين المثالين، فالذي ذكره عن المفسرين لا ينسجم مع سياق الآيات، بل يفسد نظم الآيات، ويبدده تبديداً، حيث لا تبقى أية علاقة بين هاتين الآيتين، وتصبح الآيتان وكأنهما جارتان غريبتان!

ثم لا تبقى أية صلة، وأية مناسبة لهاتين الآيتين مع ما بين أيديهما وما خلفهما من الآيات، ويبدو وكأنهما لم تصادفا مكانهما اللائق بهما!

وذكر آية سورة النحل، وآية سورة البقرة وكأنهما نزلتا معاً، مع ما يوجد من البعد الشاسع بين عهد نزول السورتين، فإحداهما مكية، والأخرى مدنية.

وإحداهما تذكر نسخ خرافات المشركين الوثنيين، وعاداتهم الجاهلية وتقاليدهم الباطلة، والأخرى تذكر ما تورط فيه أهل الكتاب من المبتدعات السخيفة، والأباطيل المضلة، والتحريفات المخجلة.

ولقد بينا ذلك وفصلناه في الأصل السابع من أصول التفسير، حينما تحدثنا عن موضوع (النسخ في القرآن) وتحدثنا عن هاتين الآيتين، وأشبعناهما بحثاً، فيحسن استحضاره.

سبب نزول آية الحول:

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ [البقرة: ٢٤٠] الآية.

قال الواحدي، والسيوطي، واللفظ للواحدي:

أخبرنا أبو عمر محمد بن عبد العزيز المروزي في كتابه، أخبرنا أبو الفضل الحدادي،أخبرنا محمد بن يحيى بن خالد، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الحتلى قال: حدث عن ابن حيان في هذه الآية، أن رجلاً من أهل الطائف قدم المدينة وله أولاد رجال ونساء، ومعه أبواه وامرأته، فمات بالمدينة، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فأعطى الوالدين وأعطى أولاده بالمعروف ولم يعط امرأته شيئاً، غير أنه أمرهم، أن ينفقوا عليها من تركة زوجها إلى الحول[1].

هذا ما ذكره الواحدي والسيوطي في سبب نزول تلك الآية، ثم حينما وصل إليها الواحدي في تفسيره: (الوجيز)، فسرها بما يلي:

تأويل الآية وما فيه من إشكالات:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً ﴾ فعليهم وصية ﴿ لِّأَزْوَاجِهِم ﴾ لنسائهم وهذا كان في ابتداء الإسلام لم يكن للمرأة ميراث من زوجها وكان على الزوج أن يوصي لها بنفقة حولٍ، فكان الورثة ينفقون عليها حولاً وكان الحول عزيمة عليها في الصبر عن التزوج، وكانت مخيرة في أن تعتد إن شاءت في بيت الزوج، وإن شاءت خرجت قبل الحول وتسقط نفقتها فذلك قوله: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ ﴾ أي: متعوهن متاعاً يعني: النفقة ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ أي: من غير إخراج الورثة إياها ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾ يا أولياء الميت في قطع النفقة عنهن وترك منعها عن التشوف للنكاح والتصنع للأزواج وذلك قوله: ﴿ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ وهذا كله منسوخ بآية المواريث وعدة المتوفى عنها زوجها.[2]

وهنا يأتي سؤال، تلو سؤال:

ما يدرينا أن الأمر كان هكذا في أول الإسلام، وأنه لم يكن حينئذ للمرأة ميراث من زوجها؟

وما يدرينا أن هذا منسوخ بآية المواريث، وعدة المتوفى عنها زوجها؟

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: ١/ ٥٢، السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول: ١/ ٤٨.

(٢) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ١٧٦-١٧٧.

وما يدرينا أن آية المواريث نزلت بعد هذه الآية؟

وما يدرينا أن آية عدة المتوفى عنها زوجها نزلت بعد هذه الآية، فإنها متقدمة عليها في ترتيبها؟

وما يدرينا أن الحول كان عدة للمتوفى عنها زوجها، فإنه لا يوجد في الآية لفظ يدل على كون الحول عدّة لها؟

قد يقال: قد وردت بتلك الأمور آثار وروايات، ونقول: إنها كلها ضعيفة واهية، وهي لا تصلح أبداً لأن يُبنى عليها تفسير آية.

أساليب لبيان العدّة:

والقرآن كلما تناول موضوع العدة، استخدم عبارة: (التربص بالنفس) أو عبارة: (بلوغ الأجل)، أو جاء بلفظ (العدّة) صريحاً، كما نرى في الآيات التالية:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

وتلك الآية لا يوجد فيها شيء من تلك العبارات، ولا يوجد فيها شيء يدل على اعتبار الحول عدّة، قبل نزول آية: (٢٣٤)، ولا يوجد فيها أيّ شيء مما ذكره الواحدي في تفسيرها، بل موقع الآية وأسلوبها يقودنا إلى ما توصل إليه صاحب الظلال، وهو قوله:

تأويل آية الحول:

«والآية الأولى - أي: الآية ٢٤٠ - تقرر حق المتوفى عنها زوجها في وصية منه

تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، مدة حول كامل، لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها إلى البقاء . . وذلك مع حريتها في أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذي قررته آية سابقة. فالعدة فريضة عليها. والبقاء حولاً حق لها . . وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتلك. ولا ضرورة لافتراض النسخ، لاختلاف الجهة كما رأينا. فهذه تقرر حقاً لها إن شاءت استعملته. وتلك تقرر حقاً عليها لا مفر لها منه».[1]

وإذا ثبت أن هذه الآية لا صلة لها بالعدّة، فلا يصح أن تحسب مدّة العدّة، وهي: (أربعة أشهر وعشرا) في مدّة المتاع.

فالمرأة تقضي العدة أولاً في بيت زوجها المتوفى، ثم يكون لها الخيار، فإن شاءت خرجت من بيته، وإلّا بقيت فيه حولا كاملاً، بعد قضائها عدة الوفاة، وليس لأحد من الورثة أن يرغمها على الخروج قبل استيفاء هذه المدة.

وهذه الفترة التي تقضيها المرأة في بيت زوجها المتوفى، بعد فترة العدة، ليست للحداد على الزوج، وإنما جعلت لها هذه الفترة، وهو حول كامل، مراعاة لظروفها، ومساعدة لها في حلّ مشاكلها، حتى تدبّر لنفسها، وتنظر في أمرها، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، وهي في بيت زوجها، ولها أن تتلقى خطبة الخطّاب، ولها أن تزوج نفسها ممن ترتضي. وذلك قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

فالذي ذكره الواحدي، والسيوطي في سبب نزول الآية (٢٤٠) من سورة البقرة، لا يساعد في فهم الآية، بل يقذف الطالب بعيداً عن مراميها وأهدافها، ويقذفه في حيرة لا يجد عنها مصدراً!

فكم تحيّر الناس في تأويل تلك الآية، وكم تحيّر الفقهاء في مسائل المتوفى عنها زوجها بسبب ذهولهم عن مفهومها!

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ١/ ٢٥٩.

ولعلّه لم يكن ذلك التحير في فهم الآية، وفي استنباط المسائل الفقهية منها إلا نتيجة لما قيل في سبب نزولها.

التساهل في أسباب النزول:

ولقد نبّه عبد الحميد الفراهي على أضرار التساهل في قبول أسباب النزول، فقال:

١- السبب الباطل ربما يغير المعنى، ويبطله، وقد حفظ الله كتابه، وآيس المبطلين من تحريفه، فلم يجدوا سبيلاً إلى الإضلال إلا باختلاق القصص، وضمّها إلى مواقع نزول الآيات، ولذلك أمثلة كثيرة، والقرآن نفسه يبطلها؛ فإنه آخر الوحي.

٢- السبب الباطل حجاب دون نظم القرآن؛ فإن القصص الباطلة كثيراً ما تخالف نظم القرآن. كأن القرآن نفسه يكذب الكاذبين، ولعل الله تعالى صرفهم عن قول يلتئم بالقرآن، وبذلك نبّه الراسخين في العلم على ما يلقيه الشياطين من زخرف القول، فالذي يتشبث بمحكم القرآن وبنظمه، لا تزعزعه القصص الباطلة، التي سمّوها أسباب النزول تسمية باطلة.

٣- الأسباب الباطلة سدّ دون فهم القرآن؛ فإن ضعفاء العقول زعموا أن الروايات الضعيفة أوثق من مجرد الرأي، فتركوا ما يفهم من ظاهر القرآن، وقبلوا ما هو أضعف رواية ودراية، فاتخذوا القرآن مهجوراً، وأصغوا إلى ما يلقيه الشياطين غروراً، وزعموا أنه لا حاجة إلى التشدد فيما لا يخالف صريح العقائد، أو يعاضده، ولم يعلموا أن معظم الحق في قدر الأمور، وموازينها، والله تعالى أنزل كتابه ميزاناً، وجعل دينه قيماً غير ذي عوج، وأكثر الضلالات مبدؤها الخبط في مقادير الحسن والقبح، وأكبر بركات هذا القرآن بيان حدود الأمور، وتفصيل كل شيء.(١)

هذا ما قاله الفراهي، ولعله قولٌ صدقٌ حقٌّ، ليس فيه إجحاف ولا شطط، فأضرار التساهل في قبول روايات أسباب النزول واضحة ظاهرة تكاد تُلمس بالراح!

ولقد أسلفنا بعض النماذج للأسباب الخاطئة التي عمّ بلاؤها، واستشرى داؤها،

---

(١) إحكام الأصول للفراهي، باب أسباب النزول- مخطوط.

فهي لم تساعدنا في فهم الآيات، بل حادت بنا عن سواء السبيل، حتى أصبحنا في واد، والآيات في واد!

ولا خلاف في أهمية أسباب النزول، ولكن لا بد من مَيْز الخبيث من الطيب، ولا بد من مَيْز السقيم من الصحيح، حتى نستعين بالصحيح الطيب في فهم كتاب الله، ونحذر السقيم الخبيث الذي لا يزداد قاصده إلا بعداً، فهيهات أن نجني من الخبيث غير الخبيث، وهيهات أن نجني من العلقم العنب!

معالم وحقائق:

ثم هناك معالم، وحقائق، نبّه إليها فطاحل العلماء لفهم أسباب النزول، والاستعانة بها في فهم الآيات، وأجْمِلْ بالطالب أن يُلمّ بها ويستوعبها، حتى يستفيد بها، وهي كما يلي:

قال العلامة بدر الدين الزركشي:

«وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند، كما في قول ابن عمر في قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند، وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع».[1]

كلمة نيّرة رائعة:

وللإمام الدهلوي أيضاً كلمة نيّرة رائعة في هذا الباب، حيث وطئ موضع قدم الزركشي، ونسج على منواله، وزاد عليه، وأكمل ما فاته، فقال:

«والذي يستفاد من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم لا يقولون: «نزلت في كذا» لمجرد بيان الحادث الذي وقع في عهد النبي عليه السلام، وكان سبباً لنزول تلك

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣١-٣٢.

الآية، بل إنهم يستخدمون هذا التعبير أحياناً لبيان ما تنطبق عليه الآية، وتصدق عليه مما حدث في عهد النبي عليه السلام، أو بعده، فهو بيان لصورة من الصور التي تصدق عليها الآية، فيقولون عند ذاك: «نزلت في كذا».

وتارة يكون قد أورد بعض الصحابة في حضرته عليه السلام سؤالاً، أو يقع حادث في عهد النبي عليه السلام، ويكون هو قد استنبط حكمه من آية من الآيات، وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيحكون هذا الحادث، ويقولون: «نزلت الآية في كذا»، وتارة يقولون:

«فأنزل الله تعالى قوله كذا» أو «فنزلت كذا».

ويورد المحدثون في هذا الباب أشياء كثيرة ضمن الآيات القرآنية، لا علاقة لها بأسباب النزول، مثل: استشهاد الصحابة رضي الله عنهم بآية من الآيات القرآنية في مناظراتهم، أو تَمَثُّلهم بآية، أو تلاوة النبي عليه السلام آية من الآيات للاستشهاد على كلامه، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل غرضها وفحواها، أو في تعيين موضع نزولها، أو تحديد أسماء المذكورين فيها بصورة مبهمة، أو بيان طريقة التلفظ بكلمة قرآنية، أو في فضل الآيات والسور، أو بيان طريق امتثال النبي عليه السلام لأمر من أوامر القرآن الكريم.

كل ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، وليس من شروط التفسير استيعابه، والإحاطة به».[1]

هذا ما قاله الإمام الدهلوي، وكان موفقاً فيما قال، ثم جاء بعده الإمام الفراهي، فأضاف إلى ما قاله الدهلوي إضافات، ووضع في أيدينا مفتاحاً مارداً عجيباً، نفتح به كل ما ما استغلق علينا من أسباب النزول، فقال:

مفتاح يفتح المغاليق كلها!

«ليس سبب النزول، كما قيل تسامحاً، سبباً لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس

---

(١) ولي الله الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير: ٦١-٦٢.

وأمرهم الذي كان محلاً للكلام. فما من سورة إلا ولها أمر، أو أمور تهدف إليها، وتدور حولها، وذلك تحت عمود السورة.

فعليك أن تلتمس سبب النزول من نفس السورة فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه كما أن الطبيب الحاذق - مثلاً - يتوسم من وصفة العلاج داء من كُتبت له تلك الوصفة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تَناسَب هذا الكلام والموضوع، كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض.

وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجوداً في حين نزول السورة ، لكي يعلم أن الآيات كانت لها دواع ومواقع.

وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [٥٤] حيث قال في ضمن الكلام حول هذه الآية:

«ولي ههنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه».

فإن الأمر عندي، كما علمت، أن الله تعالى حينما أنزل سورة، ما كان إلا ليبين الأمور التي اقتضت البيان بكلام لم يلتبس نظامه، كما يفعل الخطيب الحكيم؛ فإنه ينزل كلامه، ويسوقه على حسب دواع خاصة بين يديه، فكثيراً ما لا يذكر أمراً خاصاً، ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات، وقليلاً ما يسمي أمراً خاصاً أو شخصاً معيّناً، فيأتي بكلام علىّ سابغ كغيث مطبق.

وكان نزول القرآن هكذا، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] فكان القرآن يأتي بجوابهم حين نزوله، جارياً على رَسْله ومنهجه، فإذا بلغت سورة حد الكلام، وقضت شأنها، وأوفت لدواعي الكلام بيانها سكنت، وألقت جِرانها، فما جاوزت، ولا قصرت،

ولكن ربما ظلّ الأمر بحاجة إلى زيادة بيان، فأنزل الله سورة أخرى، ولكن بدّل الأسلوب الأول، لكيلا يملّوا، وسبب النزول لم يتبدّل.

ولذلك ترى في أول النبوة سوراً كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم به، ولكن بتبديل الأسلوب وتصريف القول.

وكذلك ربما عرضت حاجة لتوضيح أمر، فنزل بعض الكلام، ووضع في مكان يناسبه، إنجازاً لما وعد: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩]. فلم يراع زمان النزول، بل نظام القول.

ثم ربما نبه أن هذا بيان لبعض الآيات فإنك ترى بعد أكثر آيات أُلحقت بأخواتها للبيان مثل قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] كما مرّ في ديباجة الكتاب. فإن أردتَ الحق الصريح، واليقين المريح، فلا يُبعدكَ طلبُ سبب النزول عن أصل نظم القرآن، فيبهم عليك الأمر، ويغادرك في متفرق السبل، لا تدري أيها تسلك، بل تحسس من سبب النزول في القرآن، ثم خذ من الروايات ما يؤيد القرآن، لا ما يبدّد نظامه.

ثم العبرة بسبب النزول الذي تبيّن من النظم أولُ أمر تراعيه، فإن الحكم العام الذي نزل في أمر وحالة خاصة جعل لهذه الحالة شأناً يهدي إلى حكمة الحكم ووجهته، كما ترى في تعدد الأزواج وإفرادها. فالأول للقسط إلى اليتامى، والآخر للقسط إلى الأزواج، فالقسط إلى الضعفاء هو المطلوب، والفضيلة للحق السابق. وكذلك ترى في أمر الرهن، فإن رهن مال المسلم أمر دنيّ منافٍ للمروءة، فأحلّه للضرورة، وأمر بردّه عند الخروج من حالة الضرورة. وبسط الكلام تحت آية: (٢٨٣) من سورة البقرة».[1]

ذلك ما قاله الفراهي فيما يتعلق بأسباب النزول، وهو كلام رصين محكم في بابه، وحريّ بأن يكون موضع اهتمام، وموضع دراسة عند الباحثين النابهين.

---

(١) الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن: ٢٥-٢٧.

نقاط أساسيّة في البحث:

ويمكن أن نوجز النقاط الأساسية التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث، فيما يلي:

- روايات سبب النزول، فيها غثّ وسمين، فلا بد من دراستها دراسة جادّة واعية، ولا بد من تقويمها، وتنقيحها، ومَيْزِ غثّها من سمينها.

- أسباب النزول لها دور كبير في فهم معاني الآيات، وأهدافها، فلا بد من الجدّ والتشديد في أمرها، والتسامح أو التساهل في شأن رواياتها يؤدي إلى أضرار كبيرة فادحة، فكم يقع الدارس بعيداً عن الآيات من جراء الخطأ في أسباب نزولها، وهو يظنّ أنه متمسك بها!

- الأصل في أسباب النزول أن تروى ممن شاهدوا التنزيل، وعايشوه، فإن رويت من غيرهم، فلا حجة فيها.

- للصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، أساليب في بيان أسباب النزول، كما فصّلها الزركشي والدهلوي، فلا بد من فهمها، واستيعابها، وحسن مراعاتها.

- معظم أسباب النزول من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع، كما نصّ عليه جهابذة العلماء، فليس من المعقول أن نحكّم تلك الروايات على الآيات، ونجعلها هي الأصل في تأويل الآيات.

- أسباب النزول لها أهميتها في فهم القرآن، ولكن لا نقول كما قال الواحدي في مقدمة كتابه، حيث قال: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الاسباب». فأكثر القرآن لم تُرو له أسباب؟ والقليل الذي رويت له أسباب، ما رويت كلها ممن شاهدوا التنزيل، بل معظمها من أناس ليسوا من الثقات الأثبات، وهم بحاجة إلى دعم، وتوثيق! فإن كان الأمر كما قال الواحدي، فماذا نفعل في الآيات التي لم تُروَ لها أسباب؟ أو رويت ولكنها لا تخلو من علّات، بل لا تخلو من آفات!

- إذا جاز التدبر والتأمل والاجتهاد في آيات لم تُرو لها أسباب، فما المانع منه في

آيات رويت لها أسباب، ولكنها لا تنسجم مع لفظ الآيات، ونظمها، وسياقها، وأساليبها، وترمي بالدارس بعيداً عن مراميها وأهدافها؟

• الأصل في أسباب النزول، أن تفهم، وتستنبط من لفظ الآيات وسياقها، ولا يتمّ ذلك إلا من خلال التأمل الطويل المباشر في لفظ الآيات ونظمها وأسلوبها وسياقها، فالسبب الذي يستنبط من لفظ الآيات ونظمها، وأسلوبها وسياقها حقيق بأن يكون أقرب إلى الصحة، وأسلم من الخطأ، وأهدى إلى مطالب الآيات وأسرارها.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل الثاني عشر
إتقان لغة القرآن

لا بد من إتقان لغة القرآن، والتثبت في معاني مفرداتها، والتأكد من دلالات حروفها وكلماتها؛ فإنه لا يمكن فهم القرآن بدونه.

روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: إِن من الشِّعْر لَحِكمَةً، فإِذا أَلْبَسَ عليكم شَيْءٌ من القرآن فالْتَمِسُوهُ في الشعر؛ فإِنه عَرَبِيٌّ.(١)

وقال عمر رضي الله عنه لأصحابه: «عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، هو شعر العرب، فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم».(٢)

وفي رواية أخرى عنه، رضي الله عنه، قال:

«عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم».(٣)

وروي عن ابن عباس، قال: إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب.(٤)

وأخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب الوقف عن طريق عكْرمة عن ابن عباس قال: إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب.(٥)

---

(١) لسان العرب: شعر.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، المقدمة الثانية: ١/ ٢٠.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ناصر الدين الأسد، والرازي في تفسيره ٢٠ / ٢١٣.

(٤) صبح الأعشى، القلقشندي: ١/ ٩٠.

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، ت: فؤاد علي منصور.

التثبّت في معاني المفردات:

قال جلال الدين السيوطي:

وينبغي الاعتناء به (أي: بغريب القرآن). فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أعربوا القرآن» .... والمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة.

وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن فهذه الصحابة، وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً.

فاخرج أبو عبيد في الفضائل عن إبراهيم التميمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله (وفاكهة وأبا) فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر.

وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال: أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣] فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً.

وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لا والله ما أدري ما (حنانا).

وأخرج الفرياني: حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، وأواه، والرقيم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق - حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تعال أفاتحك، تريد:

أخاصمك.

وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين، ولكني أظنه الزقوم.[1]

لفتات بارعة للفراهي:

وهناك لفتات بارعة للفراهي بخصوص هذا الموضوع، ونرى من حق الباحثين في القرآن وعلومه، أن نسجلها لهم. قال الفراهي:

قد أفصح القرآن بكونه عربياً مبيناً، وقد وجدناه كذلك. فإن من مارس لغة العرب، ونظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم وجد القرآن أسهلها كلماً، وأقومها نظماً، وأبينها مقالة، وأوضحها دلالة، وأجمعها سلاسة وجزالة، قد أخلص عن الوحشي الغريب، كما أخلص عن التعقيد في التركيب، ثم يشهد بذلك صريح المعقول؛ فإن الغرض منه التبليغ، والصدع بالحق، والترغيب والترهيب، وهذا يقتضي كلاما واضحا، ولكن ربما يظنون خلاف ذلك، وذلك لأسباب آتية:

١- رأوا العلماء صنّفوا في غريب الحديث والقرآن.

٢- ذكروا اختلافا كثيرا في تأويل بعض الألفاظ.

٣- أوّلوا بعض كلمات القرآن إلى لغة من الحبش، أو الحمير، أو الأنباط، نحو كلمة «مشكاة» و«معاذير».

٤- نقلوا من الأخبار ما تدل على أن من جلّة الصحابة من لم يعلم بعض كلمات القرآن، مثل كلمة «أبّ» و«تخوّف».

فتلك أربعة أسباب لذلك الوهم، وندلّك على ما يزيل هذا الوهم إن شاءالله تعالى: فأما التسمية بالغريب، فلعلها كانت بالنسبة إلى العجم، وإلى من قلّ علمه بالعربية.

وأما الاختلاف في التأويل، فلقلة العلم بمواقع النزول، وأحوال من نزل فيهم،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه: ٢/ ٣-٥.

وقلة التدبر في نظم القرآن، وأسباب أخر، كما نذكرها فيما يأتي.

وأما كون بعض الألفاظ من غير لغة قريش، فإن صحّت الرواية، حملناها على بيان أصل الكلمة؛ فإنه لا شك أن غير واحد من الألفاظ العربية مجلوبة من لسان آخر، مثل كلمة «سجيل» و«قسطاس» و«قنطار»، وهذا لا يجعل الكلمة غريبة، ولا مجهولة.

وأما الرواية بجهل جلة الصحابة رضي الله عنهم بمعنى بعض الألفاظ، فلا نصدّقها لكونها خلاف صريح العقل، وخلاف صريح القرآن، حيث قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ معناه ههنا: وضّحت، فإن هذا كان اعتراضهم، وأما كونها تفصيلاً لإجمال فذلك لا قدح فيه. قال تعالى:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١].

وقوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] أي: بعيد عن العقل أن يأتي الرسول بكلام لا يفهمه قومه، فأي فائدة لهذا الكلام؟ ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤].

هل خفي معنى كلمة؟

وقال رحمه الله: «لا يصح أن كلمة من القرآن خفي معناها على علماء الصحابة، لا سيما القرشيون».

وقال رحمه الله: «رووا أن أبابكر رضي الله تعالى عنه لم يعلم معنى: «أَبًّا»! فهل أظهر عدم علمه بعد وفاة النبي ﷺ؟

ورووا أن عمر رضي الله عنه بقي في زمان النبي ﷺ غير عالم بمعنى: «تخوّف».

هيهات! كانت السورتان تقرآن كثيراً، وهم مع النبي عليه السلام، ملازمون له مثل ظلّه! ولم يسألوه، ولا سمعوا أحداً يسأله!

وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ١-٣].

فبين أن المقصود أن تعقلوا، فلذلك جعله عربياً، وكتاباً واضحاً. ولم ينقل إلينا أن الصحابة، خاصّتهم، ولا عامّتهم رضي الله عنهم سألوا النبي ﷺ معنى كلمة من القرآن، ولا حرج في السؤال عن معنى الكلمة، إذا لم يعرفوه، بل لا بد منه.

وقريش حكّام في عكاظ، يذعن لحكمهم شعراء العرب وخطباؤهم، أَفهُم لا يعرفون بعض كلمات القرآن، مع كونه على غاية السهولة والعذوبة بالنسبة إلى عامة كلام ذلك العصر؟ فمن كان من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، هُدِي إن شاء الله تعالى، وأما المتعسّف فلا يُسكته شيء عن المراء، والله يهدي من يشاء».[1]

هذا ما دبجته يراعة الفراهي، ولعل رؤية الفراهي للموضوع أقرب للواقع من رؤية السيوطي، فجلة الصحابة الذين رضعوا لبان ثدي لغة القرآن، ونشؤوا وتربوا في أحضانها، وكانوا من أنجب أبنائها، وكانوا يعرفون وهادها ونجادها، وكانوا يمشون على أرضها، ويحلقون في سمائها، لا يجيز العقل أبداً أن يكون هؤلاء الصحابة غافلين عن كلمات هي من أبسط كلمات اللغة.

تحقيق معنى (الأبّ):

نأخذ - مثلا - كلمة «أبّ» وهي كلمة ذكر السيوطي أنها ما كان يعرفها أبوبكر ولا عمر، يتحدث عنها الفراهي، شارحا لمعناها:

«الأب: العشب والمرعى، من أبّ يؤبّ أبّا، وأبابا، وأبابة: نشأ وطلع. وهي مادة قديمة جرى فيها تصرف اللسان، فتجدها في صور متشابهة، مثلا: أمّ وهمّ، وهبّ وتأهّب، فأبّ صورة أخرى لهبّ، وله نظائر: مثل هزّ وأزّ، وأراق وهراق. قال الأعشى:

«أخ قد طوى كشحاً وأبّ ليذهبا» أي: هبّ وهمّ.

وإنما سمي المرعى «أبّاً» لنشئه أولا بعد المطر. ومنه: إبان النبات: لأول خروجه.

---

(١) عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ت: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ص: ١٠٨-١١٢.

ثم كان فيه توسع فقيل: إبان الشباب، لمناسبة ظاهرة. ثم إبّان كل شيء: أول وقته، يقال: كل الفواكه في إبانها.

وتوهّم الجوهري وغيره، فجعل الإبان فِعّالا من مادة «أبن» ولا مناسبة بينهما؛ فإن أبنه بشيء، معناه: اتهمه به، من الأبنة، وهي العقدة في العود. وإنما هو فِعلان من «أبّ» للمناسبة التي توجد بينهما».

ويزيد الفراهي، فيقول:

«ومما ذكرنا تبين أن هذه المادة مما عرفته العرب، وإنما قلّ استعمالها في أشعارهم لخفة مرادفاتها، ولكن إذا أريد استعمال كلمة جامعة، وحسن موقعها لم تترك، بل تكون أحسن من غيرها، وحسن موقعها هنا واضح غير خفيّ».

الرواية من وضع الأعداء:

هذا، فلا يصح ما يروى من أن أبابكر وعمر رضي الله عنهما اعترفا بجهلهما به؛ فأول الخبرين، فيه انقطاع، والآخر فيه اضطراب، وهناك أمور أخر تؤكد ضعف الروايتين:

الأول: هذه السورة مكية، والصحابة كان شغلهم الشاغل في مكة تلاوة القرآن، فكيف لم يسألوا النبي عليه السلام عن معنى كلمة لم يعرفوها مع طول مدة الصحبة، وكيف لم يعلّمهم النبي عليه السلام إياها؟ هل كان القرآن مذهولاً عنه، حتى إذا توفي النبي عليه السلام، وقرؤوه، اطلعوا على عدم علمهم بهذه الكلمة، وانتبهوا، فاعترفوا بجهلهم بها؟

الثاني: نحن نجد القرآن أسهل بياناً، وأبين لساناً من عامة أشعارهم، وخطبهم، وكانت قريش هم الحكام في عكاظ، يحكمون على الشعراء، وكان أبوبكر من رؤسائهم وخطبائهم، وكان عمر لسان قريش وسفيرهم، فلا بد أن يكونا أملك الناس لناصية اللغة، ويكونا أعلمهم بتصاريف الكلام، وقد علمنا كثيراً من انتقادات عمر، ما يدل على علو كعبه في علم اللسان.

الثالث: الوضاعون لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم، ونحن نعلم

شدة حنق مبغضيهم، ونعلم ضراوتهم بالطعن فيهما، والنيل من كرامتهما».[1]

التخوّف وما ورد في معناه:

وقصّة «التخوّف» لا تختلف عن قصّة «الأبّ»، فلفظ «التخوف» أيضاً كان معروفاً عند العرب كما كان لفظ «الأبّ،» سواء بسواء، والتخوف من الخوف، والخوف هو الخوف والحذر، المعروف في لسان العرب. يقول ابن كثير في تأويل الآية:

«وقوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧] أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف، شديد».[2]

وقال الشوكاني:

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي: حال تخوّف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب، حذرين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥].[3]

وأما تأويله إلى معنى التنقص، فهو معنى شاذّ، وغريب في السياق، وفيه تكلف شديد، وكثير من المفسرين جنحوا لمعنى التنقص بسبب الرواية، من غير أن يتأكدوا من صحتها، فوقعوا في حيرة لم يجدوا منها مخرجا!

والشعر الذي تعتمد عليه الرواية في معنى التنقص، وهو قوله:

تَخَوَّفَ السَّيرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً   كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

ذاك شعر غير معروف النسب، فهو متنازع فيه بين عدة شعراء، فمنهم من عزاه إلى ذي الرمة، ومنهم من عزاه إلى ابن مقبل، ومنهم من عزاه إلى ابن مزاحم الثمالي،

---

(١) عبد الحميد الفراهي، تفسير نظام القرآن: ص ٢٩٤-٢٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٧٥.

(٣) فتح القدير: ٣/ ٢٠٨.

ومنهم من عزاه لعبدالله بن العجلان النهدي، ومنهم من عزاه إلى أبي كبير الهذلي.[1]

زد إلى ذلك أن التخوف بمعنى التنقص قليل شاذّ، وإن صح هذا المعنى، فهو على المجاز، وليس على الحقيقة.

فالذين أرادوا أن يفسروا الآية بمعنى التنقص، لم يأتوا بشيء، ووقعوا في حيرة شديدة، كانوا في غنى عنها.

وعلى أية حال، فالقرائن كلها تجرّنا إلى القول بأن رواية التخوف رواية موضوعة. والروايات التي جاءت عن الصحابة بهذا الصدد، كلها موضوعة، وهي ما جاءت من جهات مأمونة.

تشويه الصورة وتثبيط الهمم!

وبالتالي ما وضعت تلك الروايات إلا لتشويه صورة ذلك الجيل القرآني الفريد، الذين رباهم رسول الله، واصطنعهم لعمل كبير، فكانوا كالبدر المنير في الليلة الظلماء، وكانوا كمثل النجوم التي يسري بها الساري.

فالذي يسمع تلك الروايات ويصدّقها، تسقط عنده مكانة هؤلاء الصحابة بطبيعة الحال، ويظن فيهم الغفلة، وقلة الاهتمام بكتاب الله، ويظن أنهم ما كانت لهم ميزة تميزهم عن غيرهم، وما كانوا يختلفون عنه وعن إخوانه اختلافاً كبيراً. وإنما كانوا بشراً مثلهم!

والرزيّة كل الرزيّة أن تلك الروايات وأشباهها ثبّطت همم الناس، وقعدت بهم عن تدبر كتاب الله، والتفقه في دين الله، وألقت في روعهم أن هذا القرآن لا يتعلمه كل إنسان، وإذا لم يستوعبه أمثال أبي بكر وعمر، وأمثال أبيّ وابن مسعود وابن عباس، فماذا يصل إلى غيرهم!

وإذاً فيكفينا أن نعرف معاني الكلمات، ونعرف أسباب النزول لبعض الآيات، ونسمع من علمائنا وخطبائنا بعض الأحكام، التي تساعدنا في أداء العبادات، ونحفظ

---

(١) تاج العروس، مرتضى الزبيدي: خوف.

من قرآننا بعض الأجزاء حتى نقيم بها الصلاة!

وليس من المعقول أن نحرص على ما في كتاب الله من كنوز العلم، وخزائن المعرفة، فالذين كانوا يعرفون أسباب نزول الآيات، وكانوا يملكون مفاتيح الكتاب، كلهم ذهبوا وانقرضوا، وليس لنا اليوم إلى تلك المفاتيح من سبيل!

هكذا يئست الأمة من كتاب ربها، وبعدت عنه في حياتها، وبعدت عن عدّتها وعتادها، وبعدت عن زادها وسلاحها، وبعدت عن سرّ قوتها وحياتها، وبعدت عن نور ربها، فهي تتيه اليوم في ظلمات بعضها فوق بعض، فإلى الله المشتكى!

بعد هذا التقديم الهامّ المستفيض نعود إلى حديثنا الأول، فنقول:

لابد من إتقان لغة القرآن، والتثبت في معاني مفرداتها، والتأكد من دلالات حروفها وكلماتها؛ فإنه لا يمكن فهم القرآن بدونه. وهذاإجمال يحتاج إلى بيان، فنبيّنه، ونضرب له أمثلة، فإ ن المثال هو الذي يشخص الحال.

آية من سورة الأنفال:

لقد تحيّر الناس تحيرا في تأويل قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٦٧-٦٨].

ومن أسباب الحيرة في تأويل الآيتين عدم تثبّتهم في معنى (الإثخان في الأرض)، ولو أنهم تثبتوا في معناه، واهتدوا إلى معناه الصحيح الدقيق كان أدنى أن يتغلبوا على الموانع الأخر، التي حالت دونهم ودون التأويل الصحيح للآية، فنفصل القول هنا في معنى (الإثخان في الأرض) ومن أحب الاطلاع على القول المفصل في تأويل الآية، فليرجع إلى كتابنا: (إمعان في مشكل القرآن) في الفصل المتعلق بتلك الآيات.

تحقيق معنى الإثخان:

جاء لفظ الإثخان في آيتين اثنتين من القرآن، جاء مرة متعديا إلى مفعول، وهو في

قوله تعالى في سورة محمد:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤].

وجاء أخرى بدون ذكر المفعول، مع صلة: (في الأرض) حيث قال تعالى في سورة الأنفال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فهل الأمر في الموضعين واحد، أم يختلف المعنى باختلاف اللفظ واختلاف الأسلوب؟

وبعبارة أخرى: هل يكون (أثخن العدو) و(أثخن في الأرض) مترادفين في المعنى، أم يختلف المعنى باختلاف المبنى؟

حينما نرجع إلى المفسرين رحمهم الله نجدهم لم يفرّقوا بين دلالة العبارتين، فهم يفسرون الإثخان تفسيراً واحداً في الموضعين.

فيقول - مثلاً - الإمام ابن جرير في تفسير آية الأنفال:

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسرا.[1]

ويقول في تفسير آية سورة محمد:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم فساروا في أيديكم أسرى فشدوهم في الوثاق)[2]

وهكذا فعل الزمخشري في تفسير الموضعين، حيث قال في تفسير آية الأنفال:

«ومعنى الإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات، إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة، وأثخنه المرض: إذا أثقله، من الثخانة التي هى الغلظ والكثافة،

---

(١) تفسير الطبري: ١٤/ ٥٩.

(٢) نفس المصدر: ٢٢/ ١٥٣.

يعني: حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر ثم الأسر بعد ذلك».[1]

وقال في تفسير آية سورة محمد: (أثخنتموهم) أكثرتم قتلهم وأغلظتموه، من الشيء الثخين، وهو الغليظ، أو أثقلتموهم با لقتل وا لجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض.[2]

هكذا نرى عامّة المفسرين رحمهم الله درجوا على معنى واحد، ونسجوا على منوال واحد، ولم يفرقوا بين الأسلوبين أيّ تفريق.

ثم إذا رجعنا إلى أئمة اللغة في كتبهم وجدنا الأمر كما هو، ووجدناهم يواكبون المفسرين، ويحاكونهم في عدم التفريق بين الكلمتين، وبين الأسلوبين.

فهل الأمر هكذا؟ إن الذي عهدناه في القرآن من دقة الأسلوب وشدة التحري في اختيار الكلمات وتصريف الألفاظ لا يدعنا نستريح لما قيل! فلا بد أن يكون هناك فرق بين الأسلوبين، وليكن من همّ الباحث أن يتبين ذلك الفرق. والذي توصلنا إليه من الفرق كما يلي:

الفرق بين الأسلوبين:

الفرق بين الأسلوبين – كما يظهر بعد التأمل فيهما – أن إثخان العدو معناه: أن تضرب العدو حتى تضعف قوته، وتوهن أمره، حتى لا يجد أمامه طريقاً غير الفرار أو الاستسلام.

وهذا هو المطلوب من المؤمنين في ساحة القتال، وهذا الذي فعله النبي عليه السلام وأصحابه في غزوة بدر.

وليس المراد بالإثخان التقتيل وشدة التقتيل - كما قيل - أو الإ كثار من القتل والمبالغة فيه، فالأصل في الإثخان هو التوهين والتخضيع والإقران ليس إلاّ. وعلامة

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل: ٢/ ٢٣٥.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل: ٤/ ٣١٦.

الإثخان هي فرار العدو من الزحف، أو استسلامه لجيش الإسلام.

وأما الإثخان في الأرض فهو شهر السلاح بدون هدف معين. فالمثخن في الأرض يقتل البريء ويقتل الجاني ويقتل كل من صادفه، فهو يخلط البريء بذي الذنب ولا ينفع الخليّ الخلاء. وهذا هو السر في أنه لا يذ كر له مفعول.

وهذا بخلاف (إثخان العدو) فإن المفعول فيه مذ كور، والهدف فيه معين، وهو العدو.

ثم الصلة: (في الأرض) تشير إلى معنى التضمين، فيكون تأويل (حتى يثخن في الأرض) حتى يثخن مفسدا في الأرض. ويكون معنى ا لكلام: حتى يسفك سفكا، ويخبط خبطا على غير هدى، ويفسد في الأرض.

فهناك فرق كبير بين (إثخان العدو) وبين (الإثخان في الأرض)، والأول مطلوب، والآخر محظور، والرسول عليه الصلاة والسلام، وأصحابه أثخنوا الكفار في غزوة بدر، ولم يثخنوا في الأرض، وحاشاهم أن يثخنوا في الأرض.

وما وردت الآيتان في عتاب رسول الله وأصحابه، كما قيل، وإنما هي تبرئة لساحتهم، وتبرير لموقفهم، حيث فعلوا ما أمرهم الله به، ولم يكن منهم أيّ تقصير في تنفيذ إرادة الله.

وفي نفس الوقت هي تقريع لأعدائهم حيث لجؤوا إلى حرب الإشاعات والافتراءات الكاذبة ضد رسول الله وأصحابه بعد ما تجللوا الخزي والهزيمة في ساحة الوغى، وكانوا هم أظلم وأطغى!

مثال آخر:

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٨٩].

لقد تحير الناس في تأويل هذه الآية أيضاً تحيراً كبيراً، وحيرتهم تعود إلى عدم تثبتهم في معنى الأهلة، فما معنى الأهلّة؟

معنى الأهلّة في أقوال المفسرين:

قال ابن عطية، وهو يفسر معنى الآية:

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟ وجمع (الأهلّة) وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في الآخر، فإنما جمع أحواله من الهلالية، والهلال ليلتان بلا خلاف ثم يقمر، وقيل ثلاث. وقال الأصمعي: هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالخيط الرقيق، وقيل هو هلال حتى يبهر بضوئه السماء وذلك ليلة سبع.(١)

وقال القرطبي:

ويطلق لفظ الهلال لليلتين من آخر الشهر، وليلتين من أوله. وقيل: لثلاث من أوله. وقال الأصمعي: هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالخيط الرقيق. وقيل: بل هو هلال حتى يبهر بضوئه السماء، وذلك ليلة سبع.(٢)

وهكذا نرى المفسرين رحمهم الله يحومون حول مفهوم واحد، ويفسرون الآية تفسيرا واحدا، مع أنه مفهوم غير معروف عند أصحاب اللغة.

تحقيق معنى الأهلّة:

فالمعروف عند أهل اللغة أن القمر لا يسمى هلالا إلا إذا كان ابن ليلة واحدة، وهو لا يسمى هلالاً إلا بسبب أن الناس يهلّون عند رؤيته، أي يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه، وفي بعض الأحيان يقومون له قياماً، وينتظرونه بلهفة، ويهلّون عند رؤيته إهلالاً، ويرفعون أصواتهم بالتهاني، يهنّئ بعضهم بعضاً. وذلك كما قال الأعشى:

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٤٥٨-٤٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٤١.

أَرْيَحِيٌّ، صَلْتٌ، يَظَلُّ لَهُ القَوْ ... مُ وُقُوفاً قِيَامَهُمْ لِلهِلاَلِ[1]

هذا هو الهلال، مشتقّ من الإهلال، والإهلال لا يكون إلا لابن الليلة الأولى، فابن الليلة الأولى هو الهلال دون غيره، وبذلك لا يكون في الشهر إلا هلال واحد.

ونذكر هنا بعض الاستعمالات، التي تؤيد رأينا، وتبيّن أن الهلال لا يكون إلا ابن الليلة الأولى، وذلك مثلما روى البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأُوَيْسِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ فَقُلْتُ يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ قَالَتِ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا.[2]

فتلك الرواية واضحة في أن الهلال هو ابن الليلة الأولى، وأنه لا يكون في الشهر إلا هلال واحد، حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ)

ويشبه تلك الرواية ما رواه الدارقطني عن سيدنا عمر بن الخطاب، قال:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ وَسَعْدَانُ بْنُ نَصْرٍ، قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ شَقِيقٍ قَالَ جَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ، وَنَحْنُ بِخَانِقِينَ وَقَالَ فِي كِتَابِهِ: إِنَّ الأَهِلَّةَ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْهِلاَلَ نَهَارًا، فَلاَ تُفْطِرُوا حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ.[3]

فقول سيدنا عمر: (إن الأهلة بعضها أكبر من بعض) يفيد نفس المعنى، فقد يكون هلال شهر أكبر من هلال شهر آخر، والهلال هنا لا يمكن أن يراد به إلا ابن

---

(١) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، معلقة الأعشى:١/ ١٢٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: ٢/ ١٨٠/ ٢٥٦٧، وصحيح مسلم:٨/ ٢١٨/ ٧٦٤٢.

(٣) سنن الدارقطني: ٣/ ١٢١/ ٢١٩٦.

الليلة الأولى.

وقال جرير يجيب الفرزدق، ويرد عليه:

من كلِّ أبيضَ يستضاءُ بوجههِ نظرَ الحجيجِ إلى خروجِ هلالِ[1]

والحجيج لا ينظرون إلا إلى ابن الليلة الأولى.

لعل هذه الأمثلة تكفي لردّ ما قاله الأصمعي في تفسير الهلال، وهوقوله: (هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالخيط الرقيق، وقيل: هو هلال حتى يبهر بضوئه السماء وذلك ليلة سبع)، كما تكفي لردّ ما أشبهه من أقوال أُخر، فالهلال لا يكون إلا ابن الليلة الأولى.

قد يطلق الهلال على الشهر:

وبما أنه لا يكون في الشهر إلا هلال واحد، فقد يطلق الهلال على الشهر، ويطلق الشهر على الهلال، ومنه ما رواه الإمام أحمد عن سيدنا عبدالله بن مسعود، قال:

حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، وَحَسَنٌ، قَالاَ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ، يَصُومُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ غُرَّةِ كُلِّ هِلاَلٍ، وَقَلَّمَا كَانَ يُفْطِرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.[2]

ومنه قول زرعة بن عمرو، وكان من الفرسان المذكورين، وقد أدرك الجاهلية والإسلام:

وأفْنتْنِي الَّليالي أُمَّ عَمـرٍو وَحِلِّي في التَّنائِـفِ وارْتَحالي

وتَربِيَتي الصَّغيرَ إلى مَدَاهُ وتَأمِيلي هِلاَلاً عَنْ هِلاَلِ[3]

أي: تأميلي وانتظاري دخول شهر بعد انسلاخ شهر.

---

(١) منتهى الطلب من أشعارالعرب: ١/ ١٥٨.

(٢) مسند أحمد، مسند عبدالله بن مسعود، رقم الحديث: ٣٨٦٠.

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٢/ ٣٤٥.

ويشبهه قول المجاج بن خالد، حيث قال:

لقد طوفت في الآفاق حتى بليت وقد أنى لي لو أبيد
وأفناني ولا يفنى نهار وليل كلما يمضي يعود
وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد[1]

الأهلة هي الأشهر الحرم:

وإذاً، فليس هناك مانع من القول بأن المراد بالأهلة هنا هي الأشهر، والأشهر هي الأشهر الحرم بدليل السياق، حيث جاء بعد أربع آيات قوله تعالى:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [١٩٤].

واللام على الأهلة هي لام العهد. ولفظ الأهلة كان أنسب للتعبير عن الأشهر الحرم، حيث كانوا يفرحون ويستبشرون، ويهلون لأهلّة الأشهر الحرم ما لا يهلّون لغيرها.

ثم الأشهر الحرم هي مواقيت للحج، ومواقيت للعمرة، وهي الحج الأصغر، كما هي مواقيت للناس، حيث يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم، ويتحركون لما يصلح حياتهم، ويصلح معاشهم.

وأما القول بأنها نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟ فالصحابة رضي الله عنهم كانوا أفقه من ذلك وأعقل، وما عهدناهم يوجهون إلى رسول الله مثل هذه الأسئلة الصبيانيّة، ولا ينسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما إلا من لا يعرفه.

مثال ثالث:

قال تعالى في سورة البقرة، في سياق فرضيّة الصيام:

---

(١) المعمرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني: ١/ ٣٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [١٨٣-١٨٤].

معنى (على سفر):

فما معنى (على سفر) في هذه الآية؟ قال ابن كثير، وهو يفسر الآية:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدةِ ذلك من أيام أُخر.(١)

فالإمام ابن كثير لا يفرق بين «المسافر»، وبين «من كان على سفر»، حينما يشرح هذه الآية، ويجعلهما شيئاً واحداً، والأمر ليس مقصوراً على ابن كثير، حيث لم نطّلع على أحد من المفسرين، قد فرّق بين «المسافر»، وبين «من كان على سفر» اللهم إلا ما قاله العلامة ابن عاشور، حيث قال:

وقوله: ﴿ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ ﴾ أي: أو كان بحالة السفر وأصل «على» الدلالة على الاستعلاء ثم استعملت مجازاً في التمكن كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ [البقرة: ٥] ثم شاع في كلام العرب أن يقولوا فلان على سفر أي مسافر ليكون نصاً في المتلبس، لأن اسم الفاعل يحتمل الاستقبال فلا يقولون (على سفر) للعازم عليه وأما قول:

ماذا على البدر المحجب لو سفر إن المعــذب في هواه على سفر

أراد أنه على وشك الممات فخطأ من أخطاء المولدين في العربية، فنبه الله تعالى بهذا اللفظ المستعمل على التلبس بالفعل، على أن المسافر لا يفطر حتى يأخذ في السير في

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٩٨.

السفر دون مجرد النية.[1]

هذا ما قاله العلامة ابن عاشور في الفرق بين اللفظين، وهو قول تنقصه الوجاهة، فإن المسافر هو الذي أخذ في السفر، وتلبس به، وأما العازم على السفر، فلا يسمى مسافراً، ولا تكون له أحكام المسافر.

ولقد استخدم القرآن هذا اللفظ في آيات متعددة، غير تلك الآية، مثل قوله تعالى:

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/ ١٦١.

وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

ففي تلك الآيات كلها جاء الوحي بلفظ «على سفر»، ولم يأت بلفظ: «إن كنتم مسافرين» فهل هناك فرق بين اللفظين في المعنى، أم هوفرق في اللفظ فقط، والمعنى واحد؟

كل من درس القرآن دراسة جادّة واعية، واطلع على دقّة تعبيره، وحسن انتقائه للكلمات، لا يمكن أن يميل إلى الوجه الثاني، دون الأول، فلا بد أن يكون هناك فرق بين العبارتين في المعنى، وهذا الفرق يمكن أن ندركه بسهولة إذا أنعمنا النظر في نظائر هذا الاستعمال في كلام العرب.

نظائر هذا الاستعمال في كلام العرب:

قال أعرابي من بني حنيفة وهو يمزح:

مر الجراد على زرعي فقلت له   الزم طريقك لا تولع بإفساد

فقـام منهم خطيب فوق سنبلة   إنـا على سفر لابد من زاد[1]

أي: معذرةً على ما فعلنا، فنحن ما زلنا في سفر، وسفرنا طويل مرهق، لا يمكن أن نواصله بدون زاد.

وقال ابن مقبل:

إني أقيّدُ بالمأثورِ راحلتي   ولا أبالي ولو كنا على سفرِ[2]

أي: إني أعقر راحلتي لأصحابي، ولا أبالي وإن كنا على متن السفر، والسفر طويل مستمرّ، والمأثور: السيف ذو الأثر وهو الفرند.

وقال الآخر:

رأيت أخا الدنيا وإن كان خافضا   على سفر يسري به وهـــو لا يدري

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: باب مايجب على الآباء للأبناء: ٢/ ١٤٩.

(٢) المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري -باب السيوف:١ / ١٠٧٩.

مقيمين في دار نروح ونغتـــدي   بلا أهبة الثاوي المقيم ولا السفر[1]

أي: الإنسان في سفر دائب مستمرّ، يحسب نفسه مقيما في دار، مع أنه يروح ويغتدي، ويُسرى به وهو لا يدري!

وقال أبو تمام:

أنت المقيم فما تعدو رواحله   وعزمه أبداً منه على سفر[2]

أي: أنت مقيم في مكان (ثم التفت الشاعر إلى الحضور، وقال) لا تعدو رواحله، ولكن عزمه لا يقرّ له قرار، ولا يهدأ له بال، فهو في سفر دائب متواصل!

الفرق في دلالة اللفظين:

هذا غيض من فيض، وإلا فالأمثلة كثيرة، وهي كلها تفيد معنى تواصل السفر واستمراره، فالإنسان إذا كان على متن الراحلة، أو الحافلة، أو الطائرة، أو السفينة، أو القطار فهو (على سفر) ولكن إذا بلغ قصده، وألقى رحله، ونزل في مكان آمن يستقر فيه ويرتاح، وعادت أموره وأحواله طبيعية كالعادة، فهو ليس على سفر، وإن كان يصدق عليه أنه مسافر.

ولا يختلف الأمر سواء كانت مدة النزول قصيرة، أم طويلة، حتى ولو كانت ليوم، أو ليومين.

فهناك فرق واضح بَيِّن بين كون الإنسان مسافراً، وبين كونه على سفر، والرُّخَص التي ذُكرت في الآيات ليست للمسافر الذي بلغ قصده، وألقى رحله، ونزل في مكان لمدة قد تطول إلى أيام وأسابيع، وإنما هي لمن كان على جناح السفر، ولم يحطّ رحله عن راحلته. وإذا نزل في مكان، نزل لساعات ثم ارتحل.

فلننظر كيف وقع الناس في الخُلَّيْطى، وكيف اختلط الخاثر بالزباد، لعدم تثبّتهم في معاني المفردات، ولعدم تأكدهم من دلالات الحروف والكلمات.

---

(١) نور الدين اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم :١/ ٣١٤.

(٢) الموازنة، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي:١/ ٧٣.

إذاً، فلا بد من إتقان لغة القرآن، لمن كان حريصاً على فهم القرآن، ولا بد له من فقه حروفها ومفرداتها، ومن ذهب إلى الهيجا بدون سلاح، فهو أولى بالهزيمة والفشل، ومن باء بالهزيمة والفشل فلا يلومنّ إلا نفسه!

أوثق مرجع في لغة العرب:

وهنا يحلو لنا أن نقول إن القرآن هو أوثق وأوسع مرجع في لغة العرب، فقد تكون هناك كلمة عربية استعملها العرب في معنى، واستعملها القرآن في ذلك المعنى، وفي معنى آخر، لا يُعثر له على شاهد في كلام العرب. ولكن تلك الكلمة تكون واضحة في مدلولها بحكم موقعها وسياقها.

إذا كان الوضع هكذا، فلا يترك ذلك المعنى الذي يقتضيه السياق، وتدل القرينة على صحته، والكلمة تتسع لذلك المعنى من غير تكلف، لا يترك ذلك المعنى بحجة أنه لم يُعثر له على شاهد في كلام العرب.

فإن القرآن كلام محفوظ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، بخلاف كلام العرب، فإنه ليس كله محفوظاً، بل جزء كبير منه قد تلاعبت به الأيام، وعبثت به يد الحدثان، والذي وصل إلينا أقلّ مما ذهب عنا من غير شك.

نضرب لذلك مثلاً قوله تعالى في سورة يوسف:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣٠].

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [٣١].

فما معنى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾؟

ما قيل في معنى: (قطّعن أيديهن):

قال القرطبي، وهو يفسر تلك الآيات:

«قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد: قطعنها حتى ألقينها. وقيل: خدشنها.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حزاً بالسكين، قال النحاس: يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تَبِينُ منه اليد، إنما هو خدش وحز، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده. وقال عكرمة: «أَيْدِيَهُنَّ» أكمامهن، وفيه بعد. وقيل: أناملهن، أي ما وجدن ألماً في القطع والجرح، أي لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهن».[1]

وقال أبو حيان الأندلسي:

«وقطعن أيديهن أي جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي. والتضعيف للتكثير إما بالنسبة لكثرة القاطعات، وإما بالنسبة لتكثير الحز في يد كل واحدة منهن. فالجرح كأنه وقع مراراً في اليد الواحدة، وصاحبتها لا تشعر لما ذهلت بما راعها من جمال يوسف، فكأنها غابت عن حسها. والظاهر أن الأيدي هي الجوارح المسماة بهذا الاسم».[2]

وهكذا نرى المفسرين، رحمهم الله، سلكوا مسلكاً واحداً في تأويل (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ). والباحث حينما ينظر في هذا التأويل لا يرتاح إليه لإشكالات آتية:

الإشكال الأول:

لقد استعمل القرآن لفظ (تقطيع الأيدي) مرات، مثل قوله تعالى:

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٨٠.

(٢) أبو حيان- البحر المحيط: ٥/ ٢٥٠.

فالقرآن لا يستعمل (تقطيع الأيدي) بمعنى: الخدش، والحزّ، والجرح البسيط في اليد، كما زعموا عن تلك النسوة، بل يستعمله بمعنى: المبالغة في القطع المتقطّع بشكل مؤلم فظيع حتى تنفصل اليد، أو الرجل من الجسم، كما فعل فرعون مصر بالسحرة الذين آمنوا بسيدنا موسى وسيدنا هارون. وكما ينبغي أن يُفعل بالذين يحاربون الله ورسوله، ويفسدون في الأرض.

الإشكال الثاني:

حينما قالت النسوة بحرف واحد عن سيدنا يوسف:

﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فهن لم يقصدن بكلامهنّ، تلك الوسامة والقسامة، وذلك الحسن والجمال الذي كان يكسو وجه سيدنا يوسف، وإنما قصدن بكلامهنّ ذلك السموّ النفسي، والعلوّ الروحي، والطهر والعفاف الذي كان يتحلى به سيدنا يوسف عليه السلام على الوجه الأكمل - على الوجه الذي لا يتصور من أيّ بشر! وإنما هو من شأن الملائكة المكرمين.

والملائكة المكرمون يُضرب بهم المثل في الخير والصلاح والبر والتقوى، لا في الحسن والجمال وقسامة الوجه.

الإشكال الثالث:

حينما أرسل الملك إلى سيدنا يوسف، وقد أعجب بتأويل رؤياه، قال سيدنا يوسف لرسول الملك:

﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

فإن كان الأمر كما قيل، وهو أن تلك النسوة حينما رأين سيدنا يوسف عليه السلام بُهتنَ لطلعته، ودهشن وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة. أو حَزَزْنها بالسَّكاكين، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهنَّ بيوسف، إن كان الأمر كذلك فهذا يعني أن تلك النسوة ليس لهن ذنب، وما عليهن غبار.

إنهن ما أتين بشيء منكر يستوجب اللوم أو المؤاخذة أو المحاكمة، وإنما حدث ما حدث بصورة طبيعية خالصة، ولم يكن هناك كيد ولا تدبير ولا تعاون على الإثم، أو مجاهرة بالسوء.

وإذاً، فلماذا تَذكّرهن سيدنا يوسف بعد مدة طويلة لا تقل عن عشر حجج؟ ولماذا تذكر تقطيعهنّ أيديهن بصفة خاصة؟ وما علاقته بالفحص عما حصل بينه وبين امرأة العزيز؟ ولماذا قال بعد ذكر تقطيع الأيدي:

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾؟

تلك أمور لا تدعنا نستريح أو نطمئن إلى ما قيل في تأويل الآية.

وهنا يأتي سؤال: فما تأويل الآية إذاً؟

قبل أن نقبل إلى تأويل الآية بإذن الله، نودّ أن ننبّه إلى أمرين كانا مزلّة الأقدام، وكانا زلقاً للناس في تأويل الآية:

معنى السكّين:

ما المراد بالسكين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١]؟

فقد يراد بالسكين تلك الأداة التي تقشر بها الفواكه والخضار، أو يقطع بها اللحم. وهو المعنى المعروف للّفظ.

ويراد به أحياناً على سبيل الاستعارة، أدوات الزينة والتجمل من الحُليّ والحُلل، وأصناف الطيب التي تستخدمها المرأة، وتتزين بها، وتستعين بها على اقتناص من تريده من الرجال.

ويراد به أحياناً ذلك الجمال الساحر، الذي تملكه المرأة بطبيعتها، وتقتنص به الرجال.

وهناك كلمات أخرى غير السكين، تستعار لذكر فتنة المرأة واستحواذها على الرجال، مثل: النبل، والسلاح، والسهام.

قال امرؤ القيس:

وَما ذَرَفَتْ عَيناكِ إلا لتَضْرِبِي بسَهمَيك في أعشار قَلبٍ مُقَتَّلِ

يقول الزوزني في شرح هذا البيت:

للأئمة في البيت قولان، قال الأكثرون: استعار لِلَحْظِ عينيها ودمعهما اسم السهم لتأثيرهما في القلوب، وجرحهما إياها كما أن السهام تجرح الأجسام وتؤثر فيها.

وتلخيص المعنى على هذا القول: وما دمعت عيناك وما بكيت إلا لتصيدي قلبي بسهمي دمع عينيك وتجرحي قطع قلبي الذي ذللته بعشقك غاية التذليل، أي نكايتهما في قلبي نكاية السهم في المرمى.[1]

وقال بشار بن برد:

لقد شط المزار فبتُّ صبا يطالعني الهوى من كل باب

وعهدي بالفراع وأم بكر ثقـــال الردف طيبة الرضاب

من المُتصيِّدات بكُلِّ نَبْلٍ تسيلُ إِذَا مشتْ سَيْلَ الحُباب

مصورة يحار الطرف فيها كأنَّ حديثها سُكْرُ الشَّراب[2]

وقال أبودهبل الجمحي:

جنّية أو لها جنّ يعلمهـــــا رمى القلوب بقوس ما لها وتر[3]

وقال آخر:

تعرَّضْنَ مَرْمَى الصَّيْدِ ثُمَّ رَمَيْنَنا مِنَ النَّبْلِ لاَ بالطَّائِشاتِ الخَوَاطِفِ

ضَعائِفُ يَقْتُلْنَ الرِّجالَ بِلاَ دَمٍ فَيا عَجباً لِلقاتِلاَتِ الضَّعائفِ[4]

وقال أبو علي القالي:

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني- معلقةامرئ القيس: ١/ ٢٣-٢٤.

(٢) ديوان بشاربن برد: ١/ ١٤٦-١٤٧.

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام-باب النسيب: ٢/ ١٣٢.

(٤) نفس المصدر- باب النسيب: ٢/ ١٠٤.

وزادني بعض أصحابنا عن أبي الحسن الأخفش:

إذا سمعت آذانها صوت سائل   أصاخت فلم تأخذ سلاحاً ولا نبلا

قال أبو علي: السلاح ههنا جمالها.[1]

ثم هذه الاستعارة ليست خاصة بالنساء وسحرهنّ، وسبيهنّ قلوب الرجال، بل استخدموها للنوق كذلك.

ومنه قول المساور بن هند بن قيس بن زهير:

إذا قلت عودوا عاد كل شمردل   أشم من الفتيان جزل مواهبه

إذا أخذت بزل المخاض سلاحها   تجرد فيها متلف المال كاسبه

قال المرزوقي في شرحه:

يقول: إذا عرض على كل واحد من بني غالب معاودة الحروب والكرور فيها عاد منهم كل رجل تام الخلقة ممتد القامة، كريم النفس، كثير العطية.

وقوله: إذا أخذت بزل المخاض سلاحها فالمراد بسلاحها محاسنها وأمارات عتقها وكرمها، كأنها تتحلى بتلك المحاسن في عين أربابها حتى تحلى، فيصير ذلك سبباً للضن بها.

يريد أن تحسنها بسلاحها في عينه لا يجدي عليها نفعاً، ولا يدفع عنها مكروهاً، لما به من إكرام الضيوف، ويوجب على نفسه من قضاء الحقوق.[2]

ولا نريد أن نكثر، ففي تلك الأمثلة كفاية، والجدير بالذكر أن الشعراء حينما يذكرون تلك المعاني، يكثرون من ذكر السهام، والنبال، والقسيّ، والسلاح؛ فإن النضال عندهم من بعيد.

وأما القرآن، فإنه عدل عن تلك الكلمات إلى لفظ (السكين)؛ فإن الصيد في

---

(١) الأمالي في لغة العرب- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي: ٢/ ٤.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، باب الأضياف، وقال المساور بن هند بن قيس بن زهير.

متناول اليد، وليس عن النسوة ببعيد. فالمراد بالسكين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١] أدوات الزينة والتجمّل التي تزيد في فتنة تلك النسوة، وتزيد من سحر جمالهن، وتساعدهنّ في تدلية يوسف واستهوائه والاستحواذ عليه.(١)

وأما السكين بمعنى: المدية، أو آلة القطع والذبح والتقشير، فهذا ليس مكانه، وأسلوب الكلام وموقعه لا يقبله، والمدية لا تقدّم للضيف في يده، ولاسيما إذا كانت ضيافة النسوة.

وإنما تكون المدية -إذا كانت- مع الطعام والفواكه في ضمن أدوات الأكل والتفكّه، ولو قدم إنسان لضيفه مدية من غير مستلزماتها لأوحشه، وربما عاد الضيف على أدراجه!

معنى: (قطّعن أيديهن)

سبق أن قلنا إن لفظ: التقطيع يفيد معنى المبالغة في القطع، فإذا قيل مثلاً: قطّع القاضي أو الحاكم أيدي المجرمين وأرجلهم، فلا يفيد ذلك إلا أنه قطعها شر قِطعة، ودكّها دكّاً، ورضرضها رضرضة. والقرآن لم يذكر تقطيع الأيدي والأرجل إلا في هذا المعنى.

ولا يفيد اللفظ هذا المعنى إلا إذا تولى شخص تقطيع أيدي الآخرين. ولكن إذا كان أصحاب الأيدي هم الذين يقطّعون أيديهم فحينئذ يتحوّل اللفظ من الحقيقة إلى المجاز، لاستحالة أن يقطّع أصحاب الأيدي أيديهم حقيقة، فاللفظ يكون إذاً استعارة لبذل أقصى الجهد، واستنفاد الطاقة.

---

(١) ومما أفادني بعض الإخوة المتخصصين في الفنون الإسلامية، وهو الأخ منذر صبحي غنام الحسيني من فلسطين، أنه كان يُستخدم السكين في الآثار المصرية كأداة خاصة للزينة، وكان كمثل ما يسمى اليوم المكياج وما أشبهه.

فإن صحّ أن السكين كان أداة خاصة من أدوات الزينة، وكان يشبه المكياج، فهذا لا ينافي أن يُستعار هذا اللفظ لمعنى أوسع وأشمل وأجمل كأخواته من السهام، والسلاح، والنبال، والقسيّ، كما قدّمنا.

فحينما جاء عن هؤلاء النسوة أنهن قطّعن أيديهن، فهذا يوحي أنهن بذلن أقصى جهدهن، وأقصى كيدهنّ وأبلغ مكرهنّ لاستهواء يوسف، وإزلاقه من قمّة الطهر والعفاف إلى مهواة الفجور والفاحشة!

ويدل عليه أيضاً دعاء يوسف واستجابة ربه له، بعد ما انتهت تلك المهزلة المخزية بفشل تلك النسوة:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٣٣-٣٤].

كما يدلّ عليه قول يوسف لرسول الملك حينما جاءه في السجن، حيث قال:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [٥٠].

وهذا التركيز على لفظ الكيد إن دل على شيء فإنما يدل على ضخامة ذلك الكيد والمكر الذي ابتلي به سيدنا يوسف من تلك النسوة الفاتنات الماكرات، ولكنه خرج بفضل الله وتوفيقه، من تلك الفتنة الحالقة، مرفوع الرأس حيث لم يمسسه سوء، واعترفت تلك النسوة بكل صراحة بنزاهته وطهارته وشموخه:

﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [٣١].

تأويل الآيات كما يمليه علينا السياق:

والآن بعد هذا التقديم المهمّ نتوجه إلى تأويل تلك الآيات، فنقول:

حينما راودت امرأة العزيز سيدنا يوسف عن نفسه، وبذلت كل ما استطاعت من صنوف الكيد والحيل لاستهوائه، وفشلت فشلاً مخزياً فيما بذلت وفيما حاولت، افتضحت بين جاراتها وصديقاتها فضيحة لم تتصورها، وأصبحت حديث النسوة في كل بيت، وكلما اجتمعت صديقاتها وزميلاتها في صباحهن ومسائهن، تحدثن عنها، وسخرن منها، وقلن:

تلك امرأة خرقاء ذات نيقة، لا تعرف كيف تستبي فتاها! ليس فيها مكر ودهاء!

لو كنّا مكانها، لفعلنا كذا وكذا! وما كان لفتاها إلا أن يستسلم لنا، ويركع أمامنا!

فذلك قوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣٠].

فالنسوة حينما قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لم يقصدن أنها ليست عفيفة راشدة، وإنما قصدن أنها امرأة خرقاء، لا تعرف كيف تُنجز أمرها، وكيف تنال مبتغاها!

وأوضح دليل على ذلك أنهن فعلن كل ما فعلته امرأة العزيز، حينما سنحت لهن الفرصة، فالأمر ما كان أمر خلق وفضيلة، وإنما كان أمر المهارة واللباقة في إنجاز الرذيلة!

فلما وصل حديثهن إلى أذن امرأة العزيز، أخذتها العِزَّة بالإثم، وقررت أن تجمعهن جميعاً في قصرها، وتفسح لهن المجال مع فتاها، حتى يجربن ما يتبجحن به من مكرهنّ ودهاءهن، وهي على يقين بأنهن لن ينجحن فيما فشلت فيه، وإنما كانت تريد أن تكمّم أفواههنّ، وتقيم الحجة على أنها إن فشلت في مبتغاها، فليس ذلك بسبب عجزها وخُرقها، وضعفٍ في مكرها ودهائها، وإنما فشلت لأنها أدخلت يدها في أمر مستحيل!

فكان أن أرسلت إليهن، وأعتدت لهن غرفاً مريحة فارهة تناسب مهمّتهنّ، وهيأت لهن جميع أدوات الزينة وأسباب الفتنة، حتى لا يبقى عندهن عذر في فشلهن مع يوسف، إذا فشلن كفشلها.

فأقبلت إليه النسوة كاسيات عاريات مائسات، ومكرن مكراً، وألقين حبالاً، ورَمَيْنه بكل سهم، وتعرضن له بكل سكين، وأظهرن لافتتانه كل مهارة ولباقة، وكانت نهاية كيدهن ومكرهن أنهن اعترفن اعترافاً:

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [٣١].

جملة القول أن المعاجم والقواميس لا تساعدنا في معنى (آتت كل واحدة منهن سكيناً) كما لا تساعدنا في معنى (قطّعن أيديهن) ولكن القرآن - بجوّه وسياقه - واضح

في معنى اللفظين، فلا مبرر للعدول عن ظاهر القرآن إلى معان لا يقرّها اللسان، ولا يقترن بها برهان.

مثال آخر:

ومن هذا النوع قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [٥١].

فما معنى الجبت؟

ما قيل في معنى الجبت:

قال ابن الجوزي: في «الجبت» سبعة أقوال:

أحدها: أنه السّحر، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي.

والثاني: الأصنام، رواه عطية، عن ابن عباس. وقال عكرمة: الجبت: صنم.

والثالث: حيي بن أخطب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والفراء.

والرابع: كعب بن الأشرف، رواه الضحاك، عن ابن عباس، وليث عن مجاهد.

والخامس: الكاهن، روي عن ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، ومكحول.

والسادس: الشيطان، قاله سعيد بن جبير في رواية، وقتادة، والسدي.

والسابع: الساحر، قاله أبو العالية، وابن زيد. وروى أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: الجبت: الساحرُ بلسان الحبشة.(١)

ذلك ما نجده في معنى الجبت عند المفسرين، وهي نفس المعاني التي توجد عند أئمة اللغة، وتلك المعاني التي ذكروها لا تستند إلى دليل، وهي نسبت إلى بعض الصحابة من غير إسناد، فلا حجة فيها.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير - سورة النساء، الآية: ٥١.

معنى الجبت في ضوء الآيات:

وإذا رجعنا إلى القرآن، وأنعمنا النظر في آية الجبت، وجدنا أن القرآن لم يذكر الجبت إلا مرة واحدة، ولم يذكره إلا مقروناً بالطاغوت، وأما الطاغوت فقد ورد ذكره في القرآن ثماني مرات.

وكلما ذكر الطاغوت ذكر في مقابل لفظ الجلالة، وهذا يذهب بنا إلى القول بأن كل قوة معادية لله، وكل دولة محاربة لدينه تدخل في مسمى (الطاغوت).

والطاغوت ليس واحداً، فلكل قوم طاغوت، ولكل قُطر طاغوت، ولكل عصر طاغوت، وقد يكون الطاغوت في صورة شيطان واحد، وقد يكون في صورة عصابة من الشياطين.

وإذا كانت القوة الحاكمة المحاربة لله ولدينه هي الطاغوت، فالجبت هو القانون، أو النظام، أو الشريعة التي يحكم بها الطاغوت.

ولذلك كان التحاكم إلى الطاغوت، لا إلى الجبت، حيث قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

والجبت لا يكون واحداً، كما أن الطاغوت لا يكون واحداً.

فالشرائع الجاهلية، التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي تقوم عليها المجتمعات الجاهلية، والأنظمة الجاهلية، والحكومات الجاهلية، يطلق عليها لفظ (الجبت).

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا في حرب مع شريعة الله؛ لأنهم كانوا يؤمنون بالطاغوت، وكانوا يؤمنون بالجبت، وهي شريعة الطاغوت، فكانوا يؤيدون الكفار ضد المؤمنين، وكانوا يشجعونهم على شركهم، وكانوا ينوّهون بشأنهم، ويقولون حسداً وبغياً: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [٥١].

والسورة التي ورد فيها ذكر الجبت هي سورة النساء، وهي عبارة عن مجموعة

كبيرة من شرائع الله، وهي أقضّت على أهل الكتاب مضاجعهم، لأنها كانت رداً وإبطالاً لجبتهم، ونسخت كثيراً من بدعهم وأهوائهم.

ويمكن أن نستأنس هنا لمعنى الجبت بما روي عن نبينا عليه الصلاة والسلام، أنه قال: العيافة والطيرة والطرق من الجبت.[1]

فذكر عليه السلام ثلاثة أمور، وهي من أمور الجاهلية، أو من شرائع الجاهلية، وقال إنها من الجبت، وشرائع الجاهلية كلها من الجبت.

فهذا ما توصلنا إليه في معنى (الجبت) من خلال التأمل في نظم الآيات وجوّ السورة، وهو واضح ساطع لا لبس فيه ولا غموض، ولا يضرنا إن كانت المعاجم والقواميس ساكتة عن هذا المعنى، ما دام أن الآيات هي التي أرشدتنا إليه.

زبدة القول أن القرآن هو أوثق وأوسع مرجع للغة العرب، ويحدث أحياناً أن المحفوظ من كلام العرب لا يساعدنا في فهم كلمة من كلمات القرآن، فإذا رجعنا إلى القرآن نفسه، وأنعمنا النظر في آياته، وجدناه يبين معنى تلك الكلمة بأسلوبه، وسياقه، ونظم كلماته، بحيث يطمئن إليه القلب، وتسكن إليه النفس، فلله الحمد.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

---

(١) صحيح ابن حبان-كتاب النجوم والأنواء: ١٣/ ٥٠٢/ ٦١٣١.

الأصل الثالث عشر
التضلع في أساليب العرب

لا بد لفهم القرآن من تذوق لسان العرب، وامتلاك ناصيته، والتضلع في أساليبه؛ فإن قلة الإلمام بأساليب اللسان، وتصاريف الكلام تجعل الباحث يتيه في الظلام، ولا تدعه يتوصل إلى التأويل الصحيح لآي القرآن.

ولذلك نرى أعلام المفسرين رحمهم الله كانوا ينوّهون بهذا الأصل، وما كانوا يرضون تأويلاً، إذا كان على خلاف المعهود من أساليب الكلام.

ومن شواهده ما قاله ابن كثير - مثلاً - في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [آل عمران: ٤٨].

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نَجيح عن مجاهد؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر.

وبالجملة فالصحيح الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا من صفة ما كان «المصدق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه». يعني من غير عطف.[1]

ومن هذا النوع ما ذكره الإمام ابن الجوزي في تأويل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٨.

«قوله تعالى: (لا أقسم) اتفقوا على أن المعنى «أقسم» واختلفوا في «لا» فجعلها بعضهم زائدة، كقوله تعالى: (لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب) وجعلها بعضهم رداً على منكري البعث. ويدل عليه أنه «أقسم» على كون البعث. قال ابن قتيبة: زيدت «لا» على نية الرد على المكذبين، كما تقول: لا والله ما ذاك، ولو حذفت جاز، ولكنه أبلغ في الرد. وقرأ ابن كثير إلا ابن فليح «لأقسم» بغير ألف بعد اللام، فجعلت لاماً دخلت على «أقسم»، وهي قراءة ابن عباس، وأبي عبد الرحمن، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وابن محيصن، قال الزجاج: من قرأ «لأقسم» فاللام لام القسم والتوكيد. وهذه القراءة بعيدة في العربية، لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النون، تقول: لأَضربنَّ زيداً. ولا يجوز: لأَضْربُ زيداً.[1]

وهذا أصل مهمّ جداً، وعلى الرغم من أهميته البالغة، فإنه لم يُعطَ من العناية والاهتمام ما يستحقه، فكم من الآيات حصل الخطأ في تأويلها بسبب الذهول عن أساليبها.

نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

آية البرّ وتأويلها:

قال الشوكاني وهو يذكر التقديرات المحتملة في الآية:

«وقوله: (ولكن البر) هو: اسم جامع للخير، وخبره محذوف تقديره: برّ من آمن. قاله الفراء وقطرب والزجاج. وقيل: إن التقدير: ولكن ذو البر من آمن، ووجه هذا التقدير: الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى، ويجوز أن يكون البرّ بمعنى

(١) زاد المسير في علم التفسير: سورة القيامة، الآية: ١.

البار، ويطلق المصدر على اسم الفاعل كثيراً، ومنه في التنزيل: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] أي: غائراً، وهذا اختيار أبي عبيدة».[١]

تلك التقديرات التي ذكرها الشوكاني، وهي التي يدندن حولها أهل التفسير، وهي تقديرات لاتبرز شيئاً من بلاغة أسلوب القرآن، وإنما تعالج وهم القارئ، إن كان يتوهم أن الآية جاءت على خلاف قواعد النحو، فتلك التقديرات لا تزيد على أن تنفي هذا الوهم، وتجعل الآية موافقة لقواعد النحو.

ولعل صاحب تفسير المنار أدرك هذا الخلل الموجود في كتابات الناس، فلم يسلك سبيلهم، ولم يذهب مذهبهم في تأويل الآية، بل صرف همته إلى أن يتوصل إلى بلاغة هذا الأسلوب، دون تطويعه لما درج عليه النحاة، فقال:

(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) قرأ الجمهور (لكن) بالتشديد، ونافع وابن عامر بالتخفيف؛ أي: ولكن جملة البر هو من آمن بالله إلخ، وفيه الإخبار عن المعنى بالذات، وهو معهود في الكلام العربي الفصيح، والقرآن جار على الأساليب العربية الفصحى لا على فلسفة النحاة وقوانينهم الصناعية.

بلاغة الأسلوب في الآية:

وبلاغة هذه الأساليب إنما هي في إيصال المعاني المقصودة إلى الذهن على أجلى وجه يريده المتكلم وأحسن تأثير يقصده، ومثل هذا التعبير لا يزال مألوفاً عند أهل العربية على فساد ألسنتهم في اللغة، يقولون: ليس الكرم أن تدعو الأغنياء والأصدقاء إلى طعامك ولكن الكرم من يعطي الفقراء العاجزين عن الكسب، فالكلام مفهوم بدون أن نقول إن معناه: ولكن ذا الكرم من يعطي، أو لكن الكرم عطاء من يعطي.

وإنما نحن في حاجة إلى بيان النكتة في اختيار ذلك على قول: ولكن البر هو الإيمان بالله إلخ، وهذه النكتة مفهومة من العبارة؛ فإنها تمثل لك المعنى في نفس الموصوف به فتفيدك أن البر هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتحادهما، وتلبس المؤمن البار بهما معاً، من حيث إن الإيمان باعث على الأعمال، وهي منبعثة عنه وأثر له تستمد منه وتمده

---

(١) فتح القدير: ١/ ٢١٩.

وتغذيه، أي: إنها تمثل لك المعنى في الشخص، أو الشخص عاملاً بالبر، وهذا أبلغ في النفس هنا من إسناد المعنى إلى المعنى، ومن إسناد الذات إلى الذات كما هو مذوق ومفهوم».[1]

هذا ما ذهب إليه صاحب تفسير المنار، وهو كلام رائع جميل، ولكنه ما زال بحاجة إلى زيادة بيان، فنقول وبالله التوفيق:

سرّ البلاغة في هذا الأسلوب:

إن هذا الأسلوب، الذي وردت عليه الآية، أسلوب فيه قوة، وفيه بلاغة، وسرّ القوة، والبلاغة فيه أنه صار فيه إدماج جملتين في جملة، فهي في ظاهرها جملة واحدة، ولكنها في الواقع جملتان. وتحمل معنى جملتين، وهو أسلوب كان مألوفاً عند العرب.

فمنه قول الحارث بن حلزة اليشكري:

والعيشُ خيرٌ في ظِلا   لِ النوكِ ممنْ عَاش كدًّا[2]

أي: العيش الرغيد الناعم في ظلال النوك خير من المعيشة الضنك في ظلال العقل. ومن عاش عيشاً رغيداً ناعماً في ظلال النوك خير ممن عاش معيشة ضنكاً ذات مَنْصَبةٍ في ظلال العقل.

فنرى الشاعر هنا أدمج جملتين في جملة، فهي في ظاهرها جملة واحدة، ولكنها في الواقع جملتان.

ومنه ما أنشده الكسائي لبعض العرب:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى   ولكنما الفتيان كل فتى ندي[3]

أي: ليست الفتوّة أن تنبت اللحى، ولكن الفتوة هي الندى، وليست الفتيان من نبتت لهم اللحى، ولكنما الفتيان من طُبِعوا على الندى.

---

(١) تفسير المنار: ٢/ ٩٠.

(٢) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، ص: ٢٠٤.

(٣) معاني القرآن للفراء، سورة براءة، ١/ ٤٢٧، ومغني اللبيب، الباب الثامن: ٢/ ٣١١.

فهنا أيضاً صار إدماج أربع جمل في جملتين، وذلك عن طريق حذف ما يستغنى عن ذكره، والدليل على الإدماج ما نراه في الشطر الأول من عدم المطابقة بين المبتدإ والخبر.

وعلى هذا تكون الآية، إذا فصلناها كما يلي:

(ليس البِرّ (بكسر الباء) أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البِرّ (بكسر الباء) الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.....

وليس البَرّ (بفتح الباء) من ولّى وجهه قبل المشرق والمغرب، ولكن البَرّ (بفتح الباء) من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .....)

فهاتان جملتان أدمجتا في جملة واحدة، وهذا الإدماج أقرّ الآية على إيجازها، وشحنها بقوة آيتين.

ومن بلاغة هذا الأسلوب أنه لا يفصّل لنا أبواب البر فحسب، بل يمثّل لنا خلال البر في أنفس الموصوفين به، ويشخّص لنا القوم الذين تأزّروا بالبر، وارتدوا به من أصحاب رسول الله، حتى وكأننا نراهم رأي العين.

وهذا الأسلوب، الذي وردت عليه تلك الآية، أسلوب شائع في القرآن، وشائع في كلام العرب.

مثال آخر لهذا الأسلوب:

ولنضرب مثالاً آخر لهذا الأسلوب، قال تعالى في سورة المائدة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [٥٩].

فقد أشكل على الناس إعراب هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

إعراب الآية عند الزمخشري:

فنرى العلامة الزمخشري، مع طول باعه وعلوّ كعبه في علوم اللغة، والبلاغة، والأدب، لا يهتدي إلى تأويل يحل هذه المشكلة، قال رحمه الله:

«قرأ الحسن: هل تنقمون بفتح القاف. والفصيح كسرها. والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ. فإن قلت: علام عطف قوله وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ؟ قلت: فيه وجوه:

منها أن يعطف على أن آمنا، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه.

ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي واعتقاد أنكم فاسقون.

ومنها أن يعطف على المجرور، أي وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأنّ أكثركم فاسقون.

ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أنّ أكثركم فاسقون.

ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف، كأنه قيل: وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن: بفسقكم نقمتم ذلك علينا».(1)

ونرى صاحب تفسير البحر المحيط أيضاً، وهو من أقران الزمخشري في مجال النحو، والبلاغة، والإعراب، قد تنفس في إعراب قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، ولكنه ما ضرب إلا في حديد بارد، وكلما أراد أن يحل المشكلة، زادها تعقيداً.(2)

فقد جمع كل منهما ما بدا لهما من احتمالات، وهي احتمالات لا تبدي شيئاً من روعة الكلام، وبلاغة الأسلوب. وإنما هي تفيد فقط أن الآية موافقة لقواعد النحو، ويمكن إعرابها من وجوه مختلفة.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/ ٦٥١.

(٢) أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، سورة المائدة، آية: ٥٩.

والآخرون أيضاً لم يزيدوا على أن يحوموا حول تلك الاحتمالات، يختارون منها ما يختارون، ويتركون منها ما يتركون، والذي يختارونه ليس خيراً مما يتركون.

أسلوب الآية:

والتأمل في الآية وسياقها يرشدنا إلى أنها ما جاءت إلا كأختها في سورة البقرة على أسلوب إدماج جملتين في جملة واحدة، ويكون تقدير الآية على نحوٍ مما يلي:

(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل؟ فنحن ننقم منكم أنكم كفرتم بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون)

والدليل على هذا الحذف هو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

فإعرابه لايستقيم إلا إذا قدّرنا تلك الجملة، التي أدمجت في الجملة الأولى والتي عطف عليها: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: ونحن ننقم منكم أن أكثركم فاسقون.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى بيان الفرق بين هذا التأويل وبين تلك الاحتمالات التي ذكروها، فالفرق كبير، وهو واضح بيّن، ولله الحمد على ما هدانا إليه.

مثال ثالث لهذا الأسلوب

قال تعالى في آخر سورة الحديد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [٢٨-٢٩].

لقد تحير الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تحيراً كبيراً، فلننظر في بعض النماذج من كلامهم.

تأويل الآية عند المفسرين:

قال الواحدي في تأويل هذه الآية:

(لئلا يعلم) أي: ليعلم، و«لا» زائدة (أهل الكتاب) اليهود والنَّصارى (ألا يقدرون على شيء) أنَّهم لا يقدرون على شيءٍ (من فضل الله) يعني: إِنْ لم يؤمنوا لم يُؤتهم الله شيئاً ممَّا ذُكر (وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).(١)

وقال أبو حيان الأندلسي:

وقرأ الجمهور: (لِّئَلا يَعْلَمَ)، ولا زائدة كهي في قوله: (مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ)، وفي قوله: (أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) في بعض التأويلات.(٢)

وكم يتعجب المرء حينما يرى أهل التفسير يردّدون كلاماً واحداً ليس له أصل، وليس له عقل! فهل من المعقول أن نقول عن حرف من وحي الله إنه زائد؟ وهل ورد في حديث صحيح مرفوع أنه نزل في كتاب الله حرف زائد؟

أسلوب الآية:

ولعل الذين قالوا مثل هذا الكلام ما قالوه إلا على مضض، فإنهم لم يهتدوا إلى غير هذا التأويل، والذي حال دونهم ودون التأويل الصحيح هو عدم انتباههم لأساليب الكلام، وتصاريف البيان، وإلا فقد كان النبع منهم على ضربة معول.

فالتأمل اليسير في الآية يرشدنا إلى أنها أيضاً جاءت كأختيها، على أسلوب إدماج جملتين في جملة واحدة، ويكون تقدير الكلام على نحو مما يلي:

﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أنهم يقدرون على شيء من فضل الله، وليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله﴾.

فأدمجت الجملتان في جملة واحدة، حيث حذفت منهما المكررات. فهي الآن في ظاهرها جملة واحدة، ولكنها تحمل قوة جملتين.

و(لا) التي قالوا عنها إنها زائدة، هي التي بقيت علامة على الجملة المحذوفة، ولو لم تكن هذه لكانت تلك جملة واحدة. ولم تكن فيها تلك القوة التي توجد فيها الآن.

---

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢/ ١٠٧٢.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٨/ ١٧٤.

القول بالزيادة ليس قولاً مأموناً:

والقول بزيادة حرف في كتاب الله ليس قولاً مأموناً، ولا تحمد عقباه، وهو يفتح الباب على مصراعيه للتَّقَوُّلِ على الله، ومثل هذه الأحكام التي يطلقونها في شأن كتاب الله لا يُعتمد فيها على أفهام الناس، بل هي تحتاج إلى دليل واضح ساطع كالشمس.

والمواضع التي قيل فيها هذا الكلام،كلها جاءت على مثل هذا الأسلوب. فالآية التي استند إليها أبوحيان، وهو قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [١٢].

تلك الآية أيضاً جاءت على نفس الأسلوب، ويكون تقدير الكلام:

(قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وما حملك على ألا تسجد إذ أمرتك)

فأدمجت الجملتان بعضهما في بعض، فجاءت الآية على ما هي عليه الآن.

وهكذا قوله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [٩٥].

فتقدير الكلام فيها:

(وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا، حتم عليها أنهم لا يرجعون)

فأدمجت الجملتان بعضهما في بعض، والد ليل على الإدماج حرف (لا) التي قيل عنها إنها زائدة.

وجاء على هذا الأسلوب ماقالته الخنساء، وهي ترثي أخاها صخراً:

وإن حراماً لا أرى الدهـــر باكياً   على شَجْوِهِ إلا بكيتُ على صخر[١]

أي: حرام عليّ أن أُمسكَ عن البكاء، حتم عليّ أن أبكي على صخر كلما رأيت باكياً يبكي على شجوه.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأنبياء: ١١/ ٣٤٠، وفتح القدير للشوكاني، سورة الأنبياء، ٣/ ٥٣٣.

حرف «لا» قبل القسم:

ومن الأساليب الشائعة في القرآن وفي كلام العرب ورود حرف «لا» قبل القسم، ومنه قوله تعالى في سورة الواقعة:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [٧٥-٧٦].

وقوله تعالى في مطلع سورة القيامة:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [١-٣].

وهذا الأسلوب أيضاً كان موضع حيرة عند جماعة المفسرين، حيث قال الشوكاني في مطلع سورة القيامة:

موقف فريق من المفسرين:

قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قال أبو عبيد، وجماعة المفسرين: إن «لا» زائدة، والتقدير: أقسم. قال السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى (لا أقسم): أقسم، واختلفوا في تفسير «لا»، فقال بعضهم: هي زائدة، وزيادتها جارية في كلام العرب، كما في قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، يعني: أن تسجد، و: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] ومن هذا قول الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة   وكاد صميم القلب لا يتقطع

وقال بعضهم: هي ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفرّاء، وكثير من النحويين، كقول القائل: لا والله، فلا ردٌّ لكلام قد تقدّمها، ومنه قول الشاعر:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدّعي القوم أني أفر

وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبىء عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك.

وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر، وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير قوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥].

وقرأ الحسن، وابن كثير في رواية عنه، والزهري، وابن هرمز: «لأقسم» بدون ألف على أن اللام لام الابتداء.

والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوّته، ولا يفتّ في عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.[1]

فيزعم الإمام الشوكاني، فيمن يزعم، أن «لا» قبل القسم تكون زائدة، ويرى هذا القول أرجح الأقوال، بينما نرى الإمام ابن الجوزي يميل إلى ما مال إليه الفراء وكثير من النحويين، حيث يقول في تأويل «لا» في سورة الحاقة:

«قوله تعالى: (فلا أقسم) «لا» ردٌّ لكلام المشركين، كأنه قيل: ليس الأمر كما يقول المشركون (أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) وقال قوم: «لا» زائدة مؤكدة».[2]

موقف الفراهي في الموضوع:

ونرى الفراهي قد تناول هذا الموضوع بدقة وعمق أكثر، حيث يقول:

«لا» في قوله تعالى: (لا أقسم) منفصلة، وليست متصلة، أي: باطل ما يحسب الإنسان. والقول بزيادة «لا» سخيف جداً. والقول بأنها متصلة قول سقيم لضعف المعنى، ولتصريح القرآن بخلافه، حيث قال:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

و«لا» قبل القسم تكون منفصلة، مثل «كلا» قبل القسم، قال تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾ [المدثر: ٣٢].

---

(١) الشوكاني- فتح القدير، ٥/ ٤١٠-٤١١.

(٢) زاد المسير في علم التفسير- سورة الحاقة، آية: ٣٨.

وهي تتكرر مثلما تتكرر «كلا»، قال تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن خاطئ وقع فيه المخاطب، لأن في تقديم «لا» دلالة على أن الكلام جوابٌ وردٌّ لما سبق أن قيل، ودلالة على أن إنكاره لا يحتمل التأجيل؛ فإن القسم عادته الابتداء، وإنما قدّمت عليه كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به، والقسم يأتي على الأكثر تأكيداً للإثبات، فإذا كان الإنكار، استوجب أن يصدر الكلام بالنفي، ولذلك قالوا: لا والله، وإن قيل: والله لا،كان فيه ضعف، فعلى هذا جاء قوله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ومنه قول النابغة الذبياني:

فـلا لعمرُ الذي مسحتُ كعبتـهُ، وماهريقَ على الأنصابِ من جسدِ
والمـؤمنِ العائذاتِ الطّيرَ تمسَحُها ركبـانُ مكة بينَ الغيلِ والسعدِ
ما قلتُ من سيّءٍ مما أتيـتَ به إذاً فـلا رفعتْ سوطي إليّ يدي(١)

وأيضاً قوله:

فلا لعمرُ الـذي أثني عليـهِ ومـا رفَـعَ الحَجيجُ إلى إلالِ
لما أغفلتُ شكـركَ فانتصحني وكيفَ ومـنْ عطائكَ جلُّ مالي(٢)

وقول امرئ القيس:

لا وأبيـك ابنةَ العامر يّ لا يدّعي القومُ أني أفرّ(٣)

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ٣٧.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ٩٣.

(٣) ديوان امرئ القيس: ١/ ١٠٥.

وفي تلك الشواهد من القرآن ومن كلام العرب كان القسم على الإنكار، فجيء بذكر ما يتعلق به الإنكار.(1)

جملة القول أن القرآن جاء على غاية الروعة وغاية الإيجاز، وهو خِلْوٌ من أي نوع من الحشو، والقول بزيادة أيّ حرف في القرآن ليس عليه دليل، سوى أنه لم يظهر لنا فيه وجه التأويل، وإذا لم يظهر لنا معنى أيّ حرف، أو كلمة في القرآن، فالطريقة المثلى أن نحمله على قلة علمنا، وقصور فهمنا، ولا نقول: إنه زائد.

فالقول بزيادة حرف من الحروف في كتاب الله أفسد علينا معاني كثير من الآيات، وقد سبقت له أمثلة، نسأل الله السداد والتوفيق، ونسأله أن يرزقنا حسن التأويل.

أسلوب آخر من أساليب القرآن:

ومن الأساليب الشائعة في القرآن وفي كلام العرب قولهم: «ما كان له أن يفعل» مثلما قال سيدنا أبوبكر رضي الله عنه، حينما سأله رسول الله ﷺ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ لِابْنِ أَبِى قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ.(2)

معنى النهي:

وهو يستعمل بمعانٍ، فأحياناً يكون بمعنى النهي، مثل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [براءة: ١١٣].

قال السمرقندي:

يعني : ما ينبغي وما جاز للنبي والذين آمنوا (أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ) روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال : ألم يستغفر إبراهيم لأبويه وهما

---

(١) الفراهي، تفسير نظام القرآن، سورة القيامة: ٢١٨-٢١٩.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٠٨/ ٦٨٤.

مشركان؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (١)

معنى العتاب:

وأحياناً يكون بمعنى العتاب، مثل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [براءة: ١٢٠].

قال ابن كثير، وهو يشرح هذه الآية :

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة.(٢)

معنى الاستحالة:

وأحياناً يكون بمعنى الاستحالة، مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

قال أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غاية لحياته وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه الله له، وأذن له بالموت، فحينئذ يموت. فأما قبل ذلك، فلن يموت بكيدِ كائدٍ ولا بحيلة محتال.(٣)

ومنه قوله تعالى:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ

---

(١) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، سورة براءة، الآية: ١١٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٣٤.

(٣) تفسير الطبري: ٧/ ٢٦٠.

﴿ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

قال ابن عطية في شرح الآية:

الآية نزلت بسبب خوضٍ كان للكفار في معنى تكليم الله موسى ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مبينة صورة تكليم الله عباده كيف هو، فبين الله أنه لا يكون لأحد من الأنبياء، ولا ينبغي له، ولا يمكن فيه أن يكلمه الله، إلا بأن يوحي إليه.. الخ.(١)

ومنه قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

قال ابن عطية في شرح معنى الآية:

وقوله تعالى: (ما كان لبشر) معناه: لأحدٍ من الناس، والبشر اسم جنس يقع للكثير والواحد ولا مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ، وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ ﴾ [النمل: ٦٠]، فهذا مُنْتفٍ عقلاً، وأما آيتنا هذه فإن النفي على الكمال لأنّا نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوة للكذبة والمدعين.(٢)

معنى تنزيه الساحة:

وأحياناً يكون بمعنى تنزيه الساحة، مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٧/ ٥٢٩.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢/ ٢٦٥-٢٦٦.

لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال أبو السعود: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ) أي وما صح لنبي من الأنبياء ولا استقام له (أَنْ يَغُلَّ) أي يخونَ في المغنم فإن النبوةَ تنافيه منافاةً بيِّنة، والمرادُ إما تنزيهُ ساحةِ رسولِ الله ﷺ عما ظن به الرماةُ يومَ أُحُدٍ حين تركوا المركزَ وأفاضوا في الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقولَ رسولُ الله ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسِمَ الغنائمَ كما لم يقسِمْها يوم بدرٍ، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ألم أعهدْ إليكم أن لا تترُكوا المركزَ حتى يأتيَكم أمري؟ «فقالوا: تركنا بقيةَ إخوانِنا وقوفاً، فقال عليه السلام: «بل ظننتم أنا نغُلّ ولا نقسِمُ بينكم».

وإما المبالغةُ في النهي لرسول الله ﷺ على ما رُوي أنه بعث طلائعَ فغنِم النبيُّ ﷺ بعدهم غنائِمَ فقسمها بين الحاضرين ولم يترك للطلائع شيئاً فنزلت.[1]

هذا ما كتبه أبو السعود في تأويل الآية، وكان مصيباً في المعنى الأول دون الآخر، حيث نزلت الآية لتنزيه ساحة رسول الله، ولا لشيء آخر.

لفتة هامّة لصاحب المنار:

وإليه نبّه صاحب تفسير المنار، وكان موفقاً فيما نبّه، قال:

والمعنى: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سيرته أن يغل؛ لأن الله قد عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم. وهذا التعبير أحسن من قولهم: ما صح ولا استقام لنبي أن يغل؛ أي يخون في المغنم.

وقد تقدم بيان ما يفيده هذا التعبير من نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل - لأنه عبارة عن دعوى بدليل، كأنه يقول هنا: إن النبي لا يمكن أن يقع منه ذلك؛ لأنه ليس من شأن الأنبياء ولا مما يقع منهم أو يجوز عليهم.

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب: «أن يغل» بالبناء للمفعول وهو من أغللته بمعنى وجدته غالاً؛ أي ما كان من شأن النبي أن يوجد غالاً، أو بمعنى نسبته إلى الغلول؛ أي ما كان لنبي أن يكون متهماً بالغلول، أو من غل أي ما كان لنبي

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي، سورة آل عمران.

أن يكون بحيث يسرق من غنيمته السارقون ويخونه العاملون، وهذا أضعف مما قبله.[1]

وكما تحير الناس في تأويل تلك الآية، تحيروا في تأويل قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٦٧-٦٨].

فتلك الآية أيضاً جاءت في تنزيه ساحة رسول الله، وليست من العتاب في شيء، ولكن الناس حملوها محمل العتاب، وذلك لأنهم لم يمعنوا النظر في أسلوبها.

الفرق في الأسلوب:

فالآية إذا كانت للعتاب، أو النهي يختلف أسلوبها عما إذا كانت لتنزيه الساحة، فهناك فرق واضح بين قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وبين قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ حيث دخل «ما كان» في الآيتين الأوليين، اللتين جاءت إحداهما للعتاب والأخرى للنهي، دخل فيهما على المعرفة، بينما دخل في الآيتين الأخريين على النكرة، فقيل فيهما: (ما كان لنبيّ)

فالكلام في الآيتين الأخريين ليس موجهاً إلى رسول الله، عليه صلوات الله وسلامه، وإنما هو كلام عامّ شامل، يتعلق بجماعة الأنبياء عن آخرهم، ويذكر شأنهم جميعاً، أي: ليس لنبيّ، أيّ نبيّ أن يكون له أسرى. وليس لنبيّ، أيّ نبيّ أن يغلّ.

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٤/ ١٧٧.

إذاً، فلا يسعنا أن نحمل هاتين الآيتين محمل العتاب، وإنما هما في تنزيه ساحة رسول الله عما وُجّه إليه من أعدائه، أعداء الله من مطاعن كاذبة فاجرة. ولقد أشبعنا الحديث حول هاتين الآيتين في كتابنا: (إمعان في مشكل القرآن) فيحسن الرجوع إليه.

أسلوب الحذف:

ومن الأساليب الشائعة في القرآن أسلوب الحذف، فقد كثر ذلك في القرآن، وهو من وجوه إعجازه، والعرب كانوا مولعين بالإيجاز، والكلام الموجز هو الذي كان ينال إعجابهم، وإذا كان الكلام يحتوي على الحشو وفضول القول سقط في أعينهم، ومجّه سمعهم.

قال الفراهي:

الكلام الذي لا حذف فيه لا محل فيه للفكر والنظر، وهو كدبيب النمل، والعرب لا تستجيده، ولا تتأثر به لذكائهم وسرعة فهمهم، ونفورهم من الفضول.[1]

من فوائد الحذف:

ومن فوائد الحذف أنه يملأ الكلام قوة وتأثيراً، وإذا كان الكلام فيه إطناب وتطويل من غير لزوم، أتى بالملل، ونقص طوله من قوّته ورصانته.

ومن ميزة القرآن أنه بعيد من الحشو، وبعيد من الإسهاب، وهو يحذف من الكلام كل ما يُفهم بدون ذكر، وإذا كان الأمر يحتاج إلى قرينة تدل على المحذوف، ترك هناك قرينة تدل عليه، نحو قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فهذه الآية حذف فيها مثل ما ذكر فيها، ويكون تقدير الكلام نحوا مما يلي:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلمِ (بكسر الميم) الله الذين جاهدوا منكم ويعلمِ (بكسر الميم) الصابرين. لن تدخلوا الجنة حتى يعلمَ (بفتح الميم) الله الذين

(١) الفراهي- دلائل النظام :١/ ٦٨ .

جاهدوا منكم ويعلمَ (بفتح الميم) الصابرين)

فحُذف من الآية مثلُ ما ذكر فيها، والقرينة على هذا الحذف: يعلمَ (بفتح الميم) ولو لم تكن هذه القرينة ما فُهم ما في الآية من حذف.

ومثله قوله تعالى:

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

فتلك الآية أيضاً حُذف من آخرها مثلُ ما ذكر فيها، ويكون تقدير الكلام نحواً مما يلي:

(ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدّقَ وأكونَ من الصالحين. ربِّ إن تؤخرني إلى أجل قريب أصّدّقْ وأكنْ من الصالحين)

فحُذف من آخر الآية مثل ما ذكر فيها، والقرينة على هذا الحذف هو المضارع المجزوم: (أكن)، معطوفاً على المضارع المنصوب: (فأصّدّقَ) ولو لم تكن هذه القرينة لما اهتدينا إلى ما في الآية من حذف.

فهذا الحذف في الآيتين ملأ الآيتين قوة وروعة وتأثيراً، ولو لم يكن هذا الحذف لاختلف الوضع.

ومن أمثلة الحذف قوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

قال الشوكاني:

«روي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي - إمام اللغة والأدب - هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمداً ما كان نبياً! أما كان عربياً؟ كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع، أو

فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي.

وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشيَ الإنسانَ من بعض الحوادث كالجوع والخوف، لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له، وهو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجرّدة. ولو قال: فكساها كانت مرشحة. قيل: وترشيح الاستعارة، وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة، إلاّ أن للتجريد ترجيحاً من حيث أنه روعي جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحاً». (١)

والتأمل في سياق الآية وأسلوبها يذهب بنا إلى القول بأن هذا ليس من تجريد الاستعارة ولا ترشيحها، وإنما هو الحذف، ويكون تقدير الكلام على نحو مما يلي:

(فأذاقها الله طعم الجوع والخوف، وألبسها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)

وإذا كان تقدير الكلام على هذا النحو،كانت للكلام قوة لا تقاس، وكانت أبلغ صورة معبّرة عن بؤس القوم وشقائهم، وكان رداً مفحماً لابن الراوندي وأمثاله.

وماذا بقي من البؤس والشقاء إذالم يكن لهم طعام يطعمونه غير الجوع والخوف، ولم يكن لهم لباس يلبسونه غير الجوع والخوف؟ فهم أكلوا الجوع والخوف، ولبسوا الجوع والخوف!

فائدة أخرى:

ومن فوائد الحذف أنه ينبئ عن شدة الأمر وفظاعته كما لا ينبئ عنها الذكر، ومن أمثلته قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٢٥١.

[الأحقاف: ٢٤-٢٥].

فقوله تعالى: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) فيه ما فيه من القوة والشدة والغضب! ولو أتمّ هذا الكلام بإظهار المحذوف، وقيل- مثلاً -: (هذه ريح فيها عذاب أليم) لذهبت منه شدته، وكان خبراً عن ذلك العارض فقط.

والقوة والشدة والغضب الذي يملأ الجملة: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) لا يمكن إدراكه إلا إذا قرأت تلك الجملة مفصولة عما قبلها، وعما بعدها.

ومنه قوله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الشاهد في الآية: (بلاغ) وهو يُقرأ مفصولاً عما قبله وعما بعده، فهو لفظ واحد ينوب عن جملة تامة، وفيه ما فيه من شدة الإنذار! ولو ضُمّ إليه ما حُذف منه، لذهبت منه تلك الشدة، وبقي الإنذار فقط.

ومن أراد أن يبلو صدق ما نقول، فلينظر فيما كتبه الزمخشري وابن الجوزي في شرح هذا الإنذار، قال الزمخشري:

«أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة. أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الخارجون عن الاتعاظ به، والعمل بموجبه. ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ: بلغ فهل يهلك: وقرئ: بلاغاً، أى بلغوا بلاغاً».[1]

وقال ابن الجوزي:

«قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ لأن ما مضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً.

وقيل: لأن مقدار مَكْثهم في الدُّنيا قليلٌ في جَنْبِ مَكْثهم في عذاب الآخرة. وهاهنا تم الكلام.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- سورةالأحقاف: ٤/ ٣١٤.

ثم قال: (بلاغٌ) أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغٌ عن الله إليكم»[1]

ولا يخفى أن هذه التقديرات ذهبت بما كان في الكلام من ميزة، وذهبت بما كان فيه من قوة وبلاغة.

فائدة ثالثة:

ومن فوائد الحذف أنه يجعل المشهد البعيد القديم حاضراً شاخصاً، ويجعل الحدث الذي مرت عليه آلاف السنين، وكأنه يحدث الآن بمرأى ومسمع من القارئ أو السامع!

ومن أمثلته الرائعة قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١٢٧-١٢٩].

فالتالي أو السامع لتلك الآيات يشعر حينما يتلو تلك الآيات، أو يسمعها، وكأنه يرى بعينيه سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت، ويسمع بأذنيه نداءهما الخفيّ الندي، وهما يناديان ربهما بتلك الدعوات الضارعة الخاشعة! وذلك كله بفضل حذف لفظة واحدة، وهي: (يقولان).

قال الإمام سيد قطب، وهو يتحدث عما في تلك الآيات من روعة وجمال:

«هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد، وردّته حاضراً، فالخبر: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم

---

(١) زاد المسير في علم التفسير- سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا ...الخ. إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة. وهذا هو الفارق الكبير. إن الحياة في النص لَتثِبُ متحركةً حاضرة. وسرّ الحركة كله في حذف لفظة واحدة..وذلك هو الإعجاز.(١)

فائدة رابعة:

ومن فوائد الحذف أنه يملك مشاعر القارئ الواعي، ويجعله مدفوعاً إلى أن ينضم إلى ركب الخاشعين المخبتين، من غير قصد منه ولا إرادة. ومن هذا النوع قوله تعالى في سورةآل عمران:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [١٩٠-١٩٤].

فالتالي لتلك الآيات أو السامع لا يشعر حينما يتلو تلك الآيات، أو يسمعها، أنها حكايةُ أناسٍ آخرين، بل يشعر وكأن تلك الصيحات الحارّة، المبلّلة بالدموع، تنبعث من أعماق قلبه هو، ولسانه هو الذي انطلق بذلك الدعاء الطويل الخاشع، الواجف الراجف المنيب، ذي النغم العذب، والإيقاع المنساب، والحرارة البادية في المقاطع والأنغام!

وذلك كله بفضل حذف لفظة واحدة قبل قوله تعالى: (ربنا ما خلقت هذا باطلا) وهي: (ويصيحون)

والآيات التي سبقت تلك الآيات من سورة البقرة، وهي دعوات سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، في حين بناء الكعبة أيضاً تحمل نفس الروح.

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١/ ٥٧ .

فالقارئ حينما يتلو تلك الآيات، ويتذوقها، ويجد حرارتها وحلاوتها في نفسه، ينسى أنها من دعوات أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويشعر وكأنه هو الداعي، وكأن تلك الدعوات من صدى نفسه، ودقّات قلبه.

وللحذف دلالات أخر، ليس هذا محل تفصيلها، وتعرف تلك الدلالات بمعايشة تلك الآيات، والإقامة عليها إقامة واعية جادّة، فالحذف في القرآن لا يكون لتقليل مساحة الكلام، وإنما هو أسلوب من أساليب البيان، وتكون له دلالات وإيحاءات ذات ألوان.

فلا يكن من همّ الباحث في مثل تلك المواطن أن يملأ الفراغ الذي جاء بسبب الحذف، وأن يتم الكلام حسب قواعد النحو، ثم يرى أنه أدّى ما عليه، بل ليكن من همّه أن يدرك تلك المعاني الكبيرة، وتلك الدلالات الواسعة التي ينطوي عليها ذلك الحذف، فهو الأصل في باب الحذف.

وإذا اهتدى الباحث إلى تلك المعاني وتلك الدلالات كان حقيقاً بأن يكون مصيباً في تقدير المحذوفات، وإلا فالخطأ في تقدير المحذوفات كثير شائع، وهو يبعد القارئ عن مقاصد الكلام وأهدافه، وفيما قدمنا من الأمثلة غنية وكفاية بإذن الله.

أسلوب العطف:

والعطف في القرآن يكون أحياناً بذكر الواو، وأخرى بحذف الواو، مثل قوله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وقال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ

بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢]؟

وقال تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

فنرى الصفات في المجموعة الأولى جاءت كلها معطوفة بالواو.

ونراها في المجموعة الثانية جاءت أوائلها بغير واو، والصفات الثلاث الأخيرة جاءت بالواو.

ونراها في آية سورة التحريم كذلك، حيث جاءت أوائلها بغير واو، وجاءت الصفتان الأخيرتان: (ثيبات وأبكارا) بالواو.

فالباحث ليس من شأنه أن يمرّ بتلك الآيات، من غير أن يستوقفه هذا الفرق في ذكر الصفات، فالعطف بالواو لا يكون مثل العطف بغير واو، ولا بد أن يختلف أحد الأسلوبين من الآخر في معناه وفي دلالته، فما دلالة العطف بالواو، وما دلالته بغير واو؟

التأمل في الأسلوبين يفتح أعيننا على عدة حقائق قيّمة، وهي كما يلي:

الحقيقة الأولى:

إذا جاءت الصفات معطوفة بعضها على بعض بغير واو، دل ذلك على تفاعل تلك الصفات وعلى تعاضدها وتلاحمها وتشابكها من غير فرق أو انفصال، فتتمثل لنا تلك الصفات في أصحابها شاخصة حاضرة متكاملة، وكأنها طاقة أزهار جميلة جذّابة متنوعة في ظرف واحد جميل.

والزهرة الواحدة الفرد مهما كانت جميلة جذابة لا يكون لها ذلك الجمال الساحر، الذي يكون لها حينما تكون تلك الزهرة في مجموعة من الأزهار الناضرة

المتفتحة المتنوعة.

وكذلك إذا ذكرت الصفات بدون واو، وكأنها متشابكة متلاحمة بعضها في بعض، كان لها من الجمال والجاذبيّة ما يطرب له القلب، وتهتزّ له النفس. ومنه قوله تعالى:

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٢].

الحقيقة الثانية:

وأما إذا جاءت تلك الصفات معطوفة بالواو، دل ذلك على رسوخ تلك الصفات، وعلى تكاملها واستقامتها واستقلاليّتها، أي: إن تلك الصفات كلها توجد في أصحابها على الوجه المطلوب، ففيها توازن وفيها اعتدال، وفيها تكامل وفيها جمال، صفات مستقلة متكاملة لا يطغى بعضها على بعض، ولا يضمحلّ بعضها أمام بعض، فذلك قوله تعالى:

﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

ومنه قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فتلك الصفات كلها صفات مستقلة متكاملة لا يضمحلّ بعضها أمام بعض، وإن كان يخدم بعضها بعضاً، ويؤدي بعضها إلى بعض.

الحقيقة الثالثة:

وقد يجتمع الأسلوبان في مكان واحد، وفي آية واحدة، فبعض الصفات تأتي معطوفة بالواو، وبعضها بغير واو مثل قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

حيث جاءت ستّ صفات معطوفة بغير واو، وجاءت الصفتان الأخيرتان معطوفة إحداهما على الأخرى بالواو: (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا).

ومثله قوله تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

حيث جاءت سبع صفات معطوفة بعضها على بعض بغير واو، وجاءت ثلاث صفات أخيرة معطوفة بالواو، ولعل السرّ في هذا الفرق أن الصفات الثلاث الأخيرة تختلف مما قبلها من الصفات في أنها ليست مستقلة في نفسها، وإنما يعتمد بعضها على بعض، ويكتمل بعضها ببعض؛ فإن الأمر بالمعروف لا يتمّ ولا يتحقق إلا بالنهي عن المنكر، وكذا الحفظ لحدود الله لا يتمّ ولا يتحقق إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بخلاف الصفات الأولى، فإن كل صفة منها قائمة بنفسها، ولا تفتقر إلى غيرها لتحققها.

وأما في سورة التحريم فالصفات التي وردت معطوفة بدون واو، هي كلها صفات مستقلة متلاحمة بعضها في بعض، وأما الصفتان الأخيرتان: (ثيبات وأبكارا) فهما وإن كانتا مستقلتين، فهما لا تجتمعان ولا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فالمرأة إما أن تكون بكراً، أو تكون ثيباً. فواو العطف دل على ما بينهما من مغايرة.

نوع آخر من العطف:

وهناك نوع من العطف يشتبه على كثير من الناس أمره، وذلك كقوله تعالى في سورة والصافات:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٠٢-١٠٥].

قال الزمخشري، وهو يتحدث عن تلك الآيات:

فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف تقديره: فلما أسلما وتله للجبين وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب.(١)

فالذي قاله الزمخشري لم يزد على أن ملأ ما يُتوهم فيه من فراغ، وجعل الكلام تاما حسب قواعد النحو، حيث قدّر فيه جواب الشرط، ولكن هذا التقدير طمس ما في الآية من روعة وجمال، وجرّد ها مما تتميز به من بلاغة عالية سامقة، فالواقع أنه ليس هناك حذف جواب الشرط، وإنما دخل واو العطف على جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الصافات: ١٠٤].

فالمعروف في الشرط وجوابه أن الشرط يسبق جواب الشرط، حيث يتحقق الشرط أولا، ثم يتبعه جوابه، ولكن قد ينتقض هذا العرف، حيث يقع الشرط وجوابه معاً، ولا يفصلهما أيّ فاصل زمني. وهذا الذي حدث في هذا الحدث العظيم، فلم يكن هناك أيّ فاصل زمنيّ بين إسلام سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل، وتلّ إبراهيم لإسماعيل للجبين، وبين نداء ربهما لإبراهيم أن قد صدّقت الرؤيا.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٥٥.

فالواو الذي دخل على جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ يدل على هذا الاتصال الزمني بين الشرط وجوابه، ولو لم يكن هذا الاتصال الكامل بين الشرط وجوابه لعملت الشفرة عملها!

أشباه ونظائر لهذا الأسلوب:

ويوجد في القرآن أشباه ونظائر لهذا الأسلوب، منها قوله تعالى في سورة يوسف:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [١٥].

قال أبوحيان في تأويل الآية:

«واختلفوا في جواب (لما) أهو مثبت؟ أم محذوف؟ فمن قال: مثبت، قال: هو قولهم: قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق أي: لما كان كيت وكيت، قالوا: وهو تخريج حسن. وقيل: هو أوحينا، والواو زائدة، وعلى هذا مذهب الكوفيين يزاد عندهم بعد لما، وحتى، وإذا. وعلى ذلك خرجوا قوله: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أي: ناديناه، وقوله: حتى إذا جاؤوها وفتحت أي: فتحت. وقول امرئ القيس:

(فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى) أي: انتحى. ومن قال: هو محذوف، وهو رأي البصريين، فقدره الزمخشري: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، وحكى الحكاية الطويلة فيما فعلوا به، وما حاوروه وحاورهم به. قَدَّره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم، وقدّره بعضهم جعلوه فيها، وهذا أولى إذ يدل عليه قوله: وأجمعوا أن يجعلوه».(١)

هكذا تحيروا في تأويل الآية، وذلك لعدم انتباههم لبلاغة هذا الأسلوب، وقد فصلناها آنفاً في قصة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام. فهنا أيضاً دخل الواو على جواب الشرط دلالةً على رعاية الله سبحانه وتعالى لسيدنا يوسف رعايةً حاضرةً ساهرةً، ودخل دلالةً على الاتصال الزمني بين الشرط وجوابه، فلم يكن هناك

---

(١) البحر المحيط- سورة يوسف: ٥/ ٢٣٨.

أيّ فاصل زمني بين ذهابهم بيوسف، وإجماعهم أن يجعلوه في غيابة الجب، وبين إيحاء الله سبحانه وتعالى إلى يوسف بما أوحى إليه، إذهاباً لهمّه، وتطميناً لقلبه.

وجاء على نفس الأسلوب قوله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٤].

فواضح أن الجملة: (وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وقعت جواباً للشرط بدليل قوله تعالى في حال الكفار: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

وإنما دخل الواو على جواب الشرط في ذكر المتقين بياناً لما اختص الله به المتقين من حفاوة حارة، وكرامة بالغة، حيث تفتح لهم أبواب الجنة، مع وصولهم إليها، وكأن الجنة كانت لهم بانتظار! فلايكون هناك أيّ فاصل زمني بين وقوع الشرط وجوابه، بل يقع الشرط والجواب معاً، خلاف ما هو معهود في الشرط وجواب الشرط، حيث يقع الشرط، ثم يتبعه الجزاء.

ويقاربه قوله تعالى في سورة ص:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [٤٩-٥٠].

أسلوب الاستثناء:

ومن الأساليب الشائعة في القرآن أسلوب الاستثناء، فما أكثر ما ورد الاستثناء في القرآن، ورد أحياناً في معناه المعروف، وأحياناً أخرى في غير معناه المعروف، حيث ورد في كثير من الآيات لتأكيد ما سبقه من كلام، ولا بأس بأن نمرّ على بعض الأمثلة.

الاستثناء لتأكيد ما سبقه من كلام:

قال تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أي: ليس للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء، منصرفين عن المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، فلستم أيها المؤمنون! من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة، أي: إلّا أن تبتعدوا من الكافرين ابتعاداً، وتنصرفوا عنهم انصرافاً، وتفاصلوهم مفاصلة كاملة.

فليس فيه إذن في موالاة الكافرين، كائنة ما كانت الظروف، بل فيه إنذار وتحذير شديد من سوء عاقبتها.

مثال آخر:

قال تعالى في سورة الأعلى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [٦-٧].

أي: سنقرئك فلا تنسى، لا تنسى إلا ما شاء الله، والله ما أنزل إليك القرآن لتنساه، فكيف يشاء أن تنساه؟

فالآية فيها تأكيد وتطمين أن الله تعالى تكفل بحفظ تلك الآيات في صدرك، وتكفل بتثبيتها في فؤادك، فلا تخافنّ نسيانها.

وليس في الآية ما يجيز نسيان الرسول لبعض ما أنزل إليه. وإنما جاء الاستثناء لنفي احتمال النسيان نفياً قاطعاً، فنسيان الرسول لما أُنزل إليه شيء مستحيل، ومخالف لمشيئة الله.

مثال ثالث:

قال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩].

أي: يومئذ لا تنفع الشفاعة، حيث لن يشفع يومئذ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً، وما كان الرحمن ليأذن لشافع أن يشفع للمجرمين، وما كان ليرضى له قولاً من هذا النوع.

ومثله قوله تعالى:

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

أي: وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً، فلن يشفع شافع إلا من بعد أن يأذن له الله، ولن يأذن الله إلا لمن يشاؤه ويرضاه.

قال الإمام ابن جرير في تأويل تلك الآية:

وقوله: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾، يقول تعالى ذكره: وكم من ملك في السموات لا تغني: كثير من ملائكة الله، لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له شيئاً، إلا أن يشفعوا له من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة لمن يشاء منهم أن يشفعوا له ويرضى، يقول: ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له، فتنفعه حينئذ شفاعتهم.

وإنما هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملأ من قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] فقال الله جلّ ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم.[١]

---

(١) تفسير الطبري- سورة النجم: ٢٢/ ٥٢٩.

ومثله قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أي: شركاؤهم لا يملكون الشفاعة، فليست هناك شفاعة، وإنما هي شهادة، ولا يقوم لها إلا من شهد بالحق.

ومثله قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

أي: يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون، لا يتكلم إلا من أذن له الرحمن، وإذا تكلم فلن يقول إلا صواباً.

فليس في تلك الآيات وأمثالها تمنية أو تطميع في الشفاعة، أو في الإذن بالشفاعة، وإنما هو نفي صريح وتيئيس واضح منها، فلا بيع في يوم الحساب، ولا خلة ولا شفاعة. وذلك كما قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

مثال رابع:

قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٢-٢٣].

أي: لن يمنعني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملجأ، فلا ملجأ لي إلا أن أبلغ بلاغاً من الله، وأؤدي رسالاته، فهذا الذي يمنعني من الله، وهذا الذي ينجيني من سخط الله.

مثال خامس:

قال تعالى:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٦].

أي: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، لا يذوقون فيها إلا حميماً وغساقاً.

مثال سادس:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

أي: لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إنك لست فاعلاً شيئاً إلا أن يشاء الله.

مثال سابع:

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

أي: إنني براء مما تعبدون، فلن أعبدهم، وإنما أعبد الذي فطرني فإنه سيهدين.

فتلك الآيات كلها لم يرد فيها الاستثناء بمعناه المعروف، وإنما ورد لتاكيد الكلام السابق.

فلا يظهر على غيبه أحداً:

ومن هذا القبيل قوله تعالى في سورة الجن:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [٢٦-٢٨].

ما قيل في تأويل الآية:

قال البغوي في تأويله:

(قُلْ إِنْ أَدْرِي) أي ما أدري (أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ) يعني العذاب وقيل القيامة (أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا) أجلاً وغاية تطول مدتها يعني: أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلا الله. (عَالِمُ الْغَيْبِ) رفع على نعت قوله «ربي» وقيل: هو عالم الغيب (فَلا يُظْهِرُ) لا يطلع (عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) (إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) إلا من يصطفيه لرسالته فيظهره على ما يشاء من الغيب لأنه يستدل على نبوته بالآية المعجزة بأن يخبر عن الغيب.(١)

وقال ابن الجوزي:

(قل إن أدري) أي: ما أدري (أقريب ما توعدون) من العذاب (أم يجعل له ربي أمداً) أي: غاية وبُعْداً. وذلك لأن علم الغيب لله وحده (فلا يُظهِر) أي: فلا يُطلِع على غيبه الذي يعلمه أحداً من الناس (إلا من ارتضى من رسول) لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارَهم بالغيب. والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه.(٢)

تأويل الآية في ضوء أشباهها:

هذا ما نرى عند أهل التفسير في تأويل الآية، فهم يثبتون لرسل الله شيئاً من علم الغيب، مع أن القرآن ينفي ذلك نهائياً، ويجعل علم الغيب مما استأثر الله به، واختصه لنفسه، فلننظر في تلك الآيات:

❖ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

❖ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٨-٥٩].

---

(١) معالم التنزيل- سورة الجن: ٨/ ٢٤٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: سورة الجن، الآية: ٢٥-٢٧.

❖ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

❖ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

❖ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

❖ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

❖ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فتلك الآيات واضحة صريحة في أن الخلق جميعاً، بما فيهم الأنبياء المرسلون، والرسل المكرمون، والملائكة المقربون، هؤلاء كلهم لا يعلمون شيئاً من أمور الغيب، أو أحوال الغيب، فما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما تدري نفس ماذا تلده الليالي الحبالى، وما تدري نفس بماذا تتمخض به الأيام المقبلة، فهذا كله في علم الله الذي لا تخفى عليه خافية.

دلالة السياق:

ولا يغيبنّ عن بالنا أن الآية التي نتحدث عنها، جاءت في سياق عدم اطلاع الرسول على علم الغيب، فقد سبقتها هذه الآية:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ [٢٥].

فإذا كانت هذه الآية تنفي علم الغيب عن رسول الله، فكيف يصح تفسير الآية التي بعدها تفسيراً يثبت له علم الغيب؟ هذا، تالله من الاقتضاب الذي ما عهدناه في كتاب الله.

والوحي وما يتصل به لا يدخل في هذا الغيب، فالقرآن حينما ينفي علم الغيب

عن غير الله لا يقصد به الوحي، والوحي يكون من جنس الغيب قبل أن يوحى إلى الرسول، ولكن بعد ما أوحي إليه، وتلقاه ممن جاء به، ثم تلاه على قومه، وعَلِمَهُ الشاهدُ والغائب، فارقه وصف الغيب، فإنه خرج من حيّز الغيب، ودخل في حيّز الشهادة.

والذي يظهر بعد التأمل في الآية وسياقها، أن الاستثناء في الآية ليس بمعناه المعروف، وإنما جاء هذا الاستثناء تأكيداً لما قبله.

فالله لا يُظهر الرسول على غيبه، كما لا يظهر غيره على غيبه، وإنما يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، ويراقبه أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة بكل صبر وصمود، من غير أن يستكين للظروف، ومن غير أن يجزع مما يعتريه من شدائد، أم جزع واستيأس من نصر الله، ووهن وضعف عن المسؤولية.

لنا العبرة في قصة يونس وموسى:

وليست قصة سيدنا يونس عنا ببعيد!

فلو كان سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام على شيء من علم الغيب، لما خفي عليه أن قومه، وإن طال جحودهم وإنكارهم، فإنهم سيلتفّون حوله من قريب، وسيشرح الله صدورهم للإيمان، فلا يبقى منهم كافر إلا وقد تاب توبة نصوحاً، ودخل في دين الله وكان عند ربه مرضياً، حيث قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

لو علم ذلك سيدنا يونس لما يئس من إيمان قومه، ولما هجرهم وهاجر منهم، ولما وقع فيما وقع فيه من محنة حاضرة، وعقوبة عاجلة غير رائثة!

ولو كان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام على طرف من علم الغيب، لما أنكر على صاحبه ما أنكر، حينما خرق السفينة، وحينما قتل الغلام، وحينما أقام جدارا يريد

أن ينقضّ!

ويقارب تلك الآية، التي نتحدث عنها، قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٧-٨].

فالرسل أُخذَ منهم ميثاق غليظ على تبليغ الرسالة، وعلى هذا كانوا تحت رقابة دائمة ساهرة من الله، وتبليغ الرسالة لا يعتمد على علم الغيب، والإخبار عن الغيب ليس من مهمة الرسول، وليس من دلائل النبوة.

وبالجملة فلا بد لتفسير آي القرآن من تذوق لسان العرب، وامتلاك ناصيته، والتضلع في أساليبه؛ فإن قلة الإلمام بأساليب اللسان، وتصاريف الكلام تجعل الباحث يتيه في الظلام، ولا تدعه يتوصل إلى التأويل الصحيح لآي القرآن.

❖❖❖ ❖❖❖ ❖❖❖

الأصل الرابع عشر
دراسة أقسام القرآن، واستنباط دلالاتها

هناك مجموعة من سور القرآن، استُهلَّت بالأقسام، وهي أقسام متنوعة أقسم الله بها، فأحياناً تستهل السورة بقسم واحد فرد، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢].

وقوله تعالى:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢].

وأحياناً أخرى تجتمع أقسام متعددة يتلو بعضها بعضاً مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٨].

وتارة يأتي القسم بأسماء العين، مثلما رأينا في تلك الآيات.

وتارة أخرى يأتي القسم بأسماء الصفة، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ١-٦].

ولا بد لمن يحر ص على فهم القرآن، ويستحب أن يملأ يديه بكنوزه ومعارفه، لا بد له من إمعان النظر في تلك الأقسام، وإن مرّ بها مروراً سريعاً خاطفاً، من غير أن يطيل عندها الوقوف، ومن غير أن ينعم فيها النظر، فهيهات أن يفهم تلك الأقسام، وهيهات أن يفهم ما يتبعها من بليغ الكلام.

كلمة الشوكاني بخصوص القسم:

ومن الغريب أن فحول المفسرين رحمهم الله لم يأخذوا أمر القسم مأخذ الجدّ، ومن هنا تحيروا في تأويله، فقال الشوكاني – مثلاً – وهو يتحدث عن أقسام

سورة «والتين»:

قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس (والزيتون) الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة.

قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه للبدن، وأكثرها غذاء، وذكروا له فوائد، كما في كتب المفردات والمركبات، وأما الزيتون، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم، ويدخل في كثير من الأدوية.

وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى.

وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس.

وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس.

وقال عكرمة، وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية.

قال الفراء: سمعت رجلاً يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلت: هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، ولا هو نقل عن الشارع.

وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء.

وقيل: إنه على حذف مضاف، أي: ومنابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوِّز خلافه.[1]

---

(١) فتح القدير: ٥٧٣-٥٧٤.

فالذي نلاحظه عند أئمة التفسير أنهم لا يرون في تلك الأقسام إلا جانب الشرف، أو جانب المنفعة، وإذاً، فالأشياء أو الأماكن التي أقسم بها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لم تخل من حالتين: إما أن كانت ذات شرف، أو كانت ذات منفعة.

وهنا يأتي سؤال: ماذا قصد ربنا حينما أقسم بتلك الأشياء، أو بتلك الأماكن؟ هل أقسم بها لكونها ذات شرف أو ذات منفعة فقط؟ وإن أقسم بها لشرفها ومنفعتها فقط، فهل الشرف والنفع محصور في تلك الأشياء، أو في تلك الأماكن دون غيرها؟ وما مناسبتها لتلك السور التي وردت فيها؟

رؤية السيوطي للموضوع:

لقد حاول السيوطي أن يجيب عن مثل تلك التساؤلات، ولكنه لم يضرب إلا في حديد بارد، قال رحمه الله:

لا يكون القسم إلا باسم مُعظَّم وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع.... والباقي كله قسم بمخلوقاته كقوله تعالى: والتين والزيتون، والصافات، والشمس، والليل، والضحى، فلا أقسم بالخنس.

فإن قيل كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟

قلنا: أُجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف أي: ورب التين، ورب الشمس، وكذا الباقي.

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يُجِلُّه وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على بارئ وصانع.

وقال ابن أبي الإصبع في أسرار الفواتح:

القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء أقسم الله تعالى بالنبي في قوله: «لعمرك» ليعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.(1)

هذا ما نجده عند السيوطي بهذا الصدد، وهو،كما لا يخفى، شيء لا يشبع ولا يغني من جوع، فهي آراء لا تستند إلى دليل، وهي أشبه بخواطر خطرت ببال أصحابها، ثم طارت في الآفاق، وراجت في الأسواق، وملأت ذلك الفراغ الذي كان يوجد في مجال التفسير بخصوص الأقسام في القرآن.

وكل ما قيل في شأن تلك الأقسام لا يفيد لماذا أقسم الله بما أقسم به دون غيره؟ وما مناسبة تلك الأقسام للسور التي استهلت بها؟ وما صلتها بما يتبعها من قصص وأحاديث، أو إنذار وتبشير، أو تحريض وتحذير؟

نظرة الرازي إلى الأقسام:

وهناك رأي آخر بخصوص القسم في القرآن، وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي، حيث يقول في أول سورة «والذاريات»:

«الأيمان التي حلف الله تعالى بها، كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، مثاله قول القائل لمنعمه: «وحَقِّ نعمكَ الكثيرة إني لا أزال أشكرك»، فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة فإن قيل: فلم أخرجها مخرج الأيمان؟ نقول: لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف، وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين، والتبيان المتين في صورة اليمين».(2)

---

(1) الإتقان في علوم القرآن،النوع السابع والستون في أقسام القرآن:٢/ ٣٥٠.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، سورة والذاريات: ٢٨/ ١٦٠.

فيرى الفخر الرازي أقسام سورة والذاريات من جنس الدلائل في صورة الأيمان، أي: هي لاتحمل معنى المنفعة، أو معنى الفضيلة والشرف، وإنما هي دلائل استدل الله بها على ما أراد.

وقفة جادّة للفراهي في الموضوع:

ثم جاء بعده الفراهي، وزاد هذا المفهوم جلاء، وأشبعه بحثاً وتمحيصاً، حيث وضع في موضوع القسم في القرآن سفراً نفيساً، أسماه: (إمعان في أقسام القرآن)وبرهن في سفره هذا على أن الأقسام في القرآن عن آخرها جاءت للاستدلال والاستشهاد، وليست من التعظيم في شيء، فكل ما أقسم الله به في كتابه، هو دليل على ما أراد إثباته، واقتضى المقام أن يساق هذا الدليل في صورة القسم، فجاء القسم.

قال الفراهي في «إمعانه»، بعد ما ناقش آراء العلماء في القسم، وبعد ما وفّى الموضوع حقه من البيان والإيضاح، قال رحمه الله:

«بعد ما تبين لك أن القسم أصله الاستشهاد، وأنه لا يراد به التعظيم، إلا إذا كان بالله تعالى وبشعائره، وعلمت أنه ربما يكون لمجرد الاستدلال، لا يخفى عليك أن أقسام القرآن ليست إلا للاستدلال والاستشهاد بالآيات الدالة».

وساق الفراهي في إمعانه عدداً من الشواهد من كلام العرب، على أن القسم كان شائعاً عندهم في موطن الاستدلال والاستشهاد.

فمنها قسم الهجرس حين قتل جساساً قاتل أبيه ، قال:

«وفرسي وأُذنيه، ورمحي ونَصْليه، وسيفي وغراريه لا يترك الرجلُ قاتلَ أبيه وهو ينظر إليه»[(1)]

فأقسم بهذه الأشياء استدلالاً بها، كأنه قال: فكيف أترك قاتل أبي؟ وأنا قادر على الكرّ والفرّ، والطعن والضرب.

فذكر في قَسَمه ما يُصدِّقُ دعواه، واستدل به على وجوب ما أراد به.

---

(١) الكامل لابن الأثير، الأيام بين بكر وتغلب: ١/ ٣٢٢.

ومنها قول عروة بن مرة الهذلي:

وقال أبو أمامة يال بكر فقلتُ وَمَرْخَةٍ دعوى كبير

يستهزئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر. فقال:

هذه دعوى كبيرة، أي ما أصغر من يدعوه لنصره!!

فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوي من يلوذ بها، وضربها مثلاً لأضعف الأشياء ملاذاً. ويتضح هذا المعنى مما قال أبو جندب الهذلي:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفـــة أشمر حتى ينصف الساق مئزري

فلا تحسبن جاري لدى ظل مرخة ولا تحسبنــه فقع قاع بقرقر[1]

ومنها قول الحصين بن حماد يرثي نعيم بن الحارث خليله:

قتلنا خمســة ورموا نعيماً وكـــان القتل للفتيان زينا

لعمر الباكيـات على نعيم لقد جلـت رزيته علينا[2]

فلم يقسم بالباكيات إلا لأن حالتهن تشهد بجلالة هذه الرزية.

وبعد إيراد الشواهد من كلام العرب، وغير العرب على أن القسم بغرض الاستدلال والاستشهاد كان شائعاً معروفاً عند العرب،كما كان شائعاً معروفاً عند غيرهم، يعود الفراهي، فيقول:

«فإن قال قائل: هب أن أصل القسم هو الإشهاد، أو الاستشهاد، ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول، وصار أصله كالمذهول. ولذلك نهي عن القسم بغير الله تعالى، فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بين.

قلنا: سلمنا ولكننا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة. ودونك بيانها».

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان: ٣/ ٢٦٧.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ١٤/ ٨.

ثم ساق الفراهي تلك الأدلة والقرائن التي تقود الباحث المتأمل إلى ما ذهب إليه في تأويل أقسام القرآن ألا وهو مفهوم الاستدلال والاستشهاد دون معنى التعظيم والتشريف.

وعدد الأدلة عنده بلغ ثمانية، وهي أدلة واضحة ساطعة، تشفي النفس، وتقنع العقل.

دلائل في صورة الأيمان:

ملخص القول أن القرائن والبراهين كلها متضافرة على رجحان الرأي القائل بأن أقسام القرآن كلها دلائل في صورة الأيمان، وإذا أقسم الله في كتابه ببعض مخلوقاته، فلا يكون فيه معنى التعظيم والتشريف البتّة، وإنما يكون فيه معنى الاستدلال والاستشهاد على أمر يريده الله.

وقبل أن نقفل الموضوع نودّ أن نتناول بعض أقسام القرآن بالبحث والإيضاح حتى يتجلى فيه وجه الاستدلال والاستشهاد، فذلك أدنى أن يقتنع به من أراد القناعة.

وقفة عند أقسام سورة والتّين:

قال تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ١-٨].

فتلك السورة جاءت لإثبات الدين، وهو الدينونة والمجازاة.

وجهة الاستدلال أن ربنا سبحانه وتعالى ليس غافلاً عن أفعال العباد، وقد خلقهم في أحسن تقويم، حيث سوّاهم وزودهم بكفاءات ومواهب تساعدهم في التسامي إلى الغاية العظيمة التي أرادها خالقهم لهم، فمنهم من تسامى إلى تلك الغاية، وذلك عن طريق الإيمان والعمل الصالح، ومنهم من أخلد إلى الأرض، ومال إلى السفل، ورغب عن التسامي إلى سماء الإيمان والعمل الصالح، فردّه ربه أسفل سافلين،

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات أكرمهم ربهم في الدنيا، ولهم أجر دائم غير مقطوع في الآخرة.

وأما من مال إلى السفل، وانغمس في الكفر، ذاق وبال أمره في الدنيا، وله في الآخرة عذاب النار.

ذلك ما ترمي إليه السورة، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على من تأمل فيها، فلننظر إلى الأقسام كيف تشهد بما ترمي إليه السورة.

ما التين والزيتون؟

أول قَسَمٍ أقسمَ الله به هو التين، ثم الزيتون، فما التين والزيتون؟

إذا رأينا إلى سياق الآيات، فالسياق يوحي إلينا أن المراد بالتين والزيتون ليس الفاكهة، فإنهما عطفا على طور سينين، والبلد الأمين، وهما ليسا من الفواكه، وإنما هما من الجبال، فإن كان من شأن المعطوف والمعطوف عليه أن توجد بينهما مناسبة، فالأولى أن يحمل التين والزيتون، على جبل التين وجبل الزيتون، دون فاكهة التين وفاكهة الزيتون. قال ابن قتيبة:

(التِّينُ) وَ(الزَّيْتُونُ) جبلان بالشام؛ يقال لهما: «طُورُ تِينَا، وطُورُ زَيْتَا» بالسُّرْيَانِيَّة. سمِّيا بالتين والزيتون: لأنهما يُنبِتانهما.[1]

وجبال التين والزيتون كانت معروفة عند العرب، قال النابغة الذبياني، وهو يذكر التين:

وهبَّتِ الرِّيحُ من تلقـــاء ذي أُرُلٍ   تُزجي مع اللَّيل من صُرّادها صِرَما

صهب الظِّلال أَتَيْنَ التينَ عن عرُضٍ   يُزجيـــن غيمـاً قليلاً ماؤهُ شبِما[2]

فأراد بالتين جبلاً في الشمال، يقال هو بين حلوان وهمذان.

قالَ الفرَّاءُ: سَمِعْتُ رَجلاً مِن أَهْلِ الشام وكان صاحِبَ تفْسِيرٍ قالَ: التِّينُ جِبالُ

(١) غريب القرآن لابن قتيبة :١/ ٥٣٢.

(٢) ديوان النابغة الذبياني :١/ ٩٥.

ما بينَ حُلوانَ إلى هَمَذان والزَّيتون جَبَلٌ بالشامِ.[1]

فأما حلوان فهي، كما قال أبو زيد، مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد أكبر منها، وسُرّ من رآها، وأكثر ثمارها التين، وهي بقرب الجبل، وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، وربما يسقط بها الثلج. وأما أعلى جبلها فإن الثلج يسقط به دائماً، وبها رمان ليس في الدنيا مثله، وتين في غاية من الجودة، ويسمونه لجودته (شاه إنجير) أي ملك التين.[2]

وأما همذان فقيل إن سليمان بن داود عليه السلام اجتاز بموضع همذان فقال: ما بال هذا الموضع مع عظم مسيل مائه وسعة ساحته لا تبنى فيه مدينة؟ فقالوا: يا نبي الله لا يثبت أحد فيه؛ لأن البرد ينصب فيه صباً، ويسقط الثلج قامة الرمح.[3]

قال الفراهي، وهو يشرح شعر النابغة:

«فإنه يصف الريح الباردة الشمالية التي تزجي السحب الصهب القليلة الماء التي مرت بجبل التين، فازدادت به برودة، والعرب تذكر كثيراً هبوب الريح الباردة من جهة الشمال، وهكذا يذكرون الجودي بالبرودة.

قال أبو صعترة البولاني، وهو جاهلي:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت — به جنبتا الجودي والليل دامس

فلما أقرته اللصاب تنفست — شمال لأعلى مائه فهو قارس[4]

فلا شك أن النابغة أراد بالتين جبلاً في الشمال، ولعله هو الجوديّ، أو قريب منه».[5]

---

(١) الزبيدي، تاج العروس: تين.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٢/ ٢٩١.

(٣) معجم البلدان: ٥/ ٤١٧.

(٤) معجم البلدان، باب الجيم والواو: ٢/ ١٨٠، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١/ ٣٩٣.

(٥) تفسير نظام القرآن، سورة والتين: ١/ ٣٤٦.

التين هو الجوديّ:

والقرائن كلها تدل على أن التين هو الجودي، كما يراه الفراهي، وكما يظهر مما ذكره ابن الجوزي، حيث ذكر الأقوال التي قيلت في تأويل التين، ومنها قوله:

«والثاني: أن التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي».(١)

وهو رواية عن سيدنا ابن عباس، حيث قال الإمام ابن جرير:

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) يعني مسجد نوح الذي بني على الجوديّ، والزيتون: بيت المقدس.(٢)

والشاهد في الرواية أن التين والجودي مكان واحد، سواء كان التين مسجد نوح على الجودي، أو كان الجودي هو التين، وسمي بالتين لكونه منبتاً خصباً لأجود أنواع التين، ثم بني على الجودي مسجد باسم سيدنا نوح عليه السلام تخليداً لذكرياته المجيدة، حيث أنجاه الله وأنجى أصحابه من القوم الظالمين، وقد استوت سفينته على الجودي، فالمسجد اشتهر بمسجد نوح، واشتهر بمسجد التين.

أياً كان الأمر، فالتين تحيط به ذكريات نوح وقوم نوح، وهو رمز للمكان الذي ظهر فيه قانون الدينونة والمجازاة في صورة واضحة سافرة مجلجلة!

فحينما أقسم الله بالتين، فقد استشهد به، أي: جعله شاهداً على أنه ليس غافلاً عما يعمل الظالمون، فهو يجازيهم، ولا محالة، ويذيقهم وبال أمرهم إن لم ينتهوا عن طغيانهم. فليعتبروا وليتّعظوا بما حلّ بقوم نوح، وليثوبوا إلى رشدهم.

هذا التين، فما الزيتون؟

الشهادة في الزيتون

قال الهمذاني: قال كعب في قول اللهّ عزّ وجلّ: وَ التِّينِ، قال: الجبل الذي عليه

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، سورة والتين، الآية: ١.

(٢) تفسير الطبري، سورة والتين، ٢٤/ ٥٠٣.

دمشق، وَ الزَّيْتُونِ، قال: الذي عليه بيت المقدس.[1]

فالزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس.

قال الفراهي: ولا يخفى أن المراد به جبل الزيتون، الذي كثر ذكر تضرعات المسيح عليه السلام، وكثر ذكر بكائه عليه، فقد جاء في لوقا (٢١:٣٧):

«وكان في النهار يعلّم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل، الذي يدعى جبل الزيتون».

وجاء في الإنجيل المنحول إلى لوقا (٢٢/ ٣٩-٤٦):

«وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه أيضاً تلاميذه. ولما صار إلى المكان، قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في الفتنة. فلما بلغوا المنتهى حقت عليهم كلمة اللعنة والطرد. وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلى، قائلاً: يا رب إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك. وظهر ملك من السماء يقوّيه. وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن. فقال لهم لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا، لئلا تدخلوا في تجربة».[2]

وأسهب الفراهي في سرد تلك النقول من الأناجيل، إلى أن قال:

«ومما ذكرنا يتبين للمتأمل ما وقع من الدينونة العظمى على بقعة الزيتون».[3]

وهنا يحضرنا قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [٥٤-٥٥].

---

(١) البلدان لابن فقيه الهمذاني: ١/ ١٥٥.

(٢) عبدالحميد الفراهي، تفسير نظام القرآن، سورة والتين: ١/ ٣٤٧-٣٥٢.

(٣) نفس المصدر: ١/ ٣٥٦.

فلعل تلك البشارات التي تحملها تلك الآية من رفع عيسى إلى ربه، وتطهيره من أعدائه الكفار الذين قد اجتمعوا لقتله، وكانوا له بالمرصاد، ثم من لعنهم وإخزائهم وتغليب أتباع عيسى عليهم، لعل تلك البشارات كلها ما جاءت إلى سيدنا عيسى إلا وهو على جبل الزيتون، الجبل الذي كان من عادته أن يبيت فيه، ويخلو فيه بربه، ويناجيه، ويتضرع إليه ويناديه.

وعلى هذا كان جبل الزيتون هو المكان الذي ظهرت فيه الدينونة العظمى في عهد سيدنا عيسى، حيث رُفع قوم بإيمانهم، ووُضع قوم من جراء طغيانهم.

فحينما أقسم الله سبحانه وتعالى بالزيتون، فقد استشهد به، بل جاء به كشاهد عيان على وقوع الدينونة والمجازاة، التي تدور حوله سورة والتين.

الشهادة في طور سينين:

وأما طور سينين فهو المكان الذي كان نقطة تحول في تاريخ بني إسرائيل، حيث نادى الله موسى من جانبه الأيمن، واختاره لرسالته، وأرسله إلى فرعون وقومه، فكذبوه وعصوه، فدمر الله بنيانهم وقطع دابرهم، حيث قال تعالى:

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧].

وهكذا كان طور سينين مكاناً يرتبط به تاريخ فرعون وآل فرعون، كما يرتبط به تاريخ بني إسرائيل، فقد قضى الله فيه بهلاك قوم بسبب كفرهم وتكذيبهم لنبيهم، كما قضى فيه بنجاة قوم بسبب صبرهم واستعانتهم بربهم.

وبذلك كان طور سينين مكاناً ظهرت فيه الدينونة العظمى في عهد سيدنا موسى، في صورة سافرة مجلجلة لا يمكن إنكارها.

فحينما أقسم الله بطور سينين، فكأنه أحضر شاهد عيان على وقوع الدينونة والمجازاة، الذي تدور حوله هذه السورة.

الشهادة في البلد الأمين:

وأما البلد الأمين، فهو البلد الذي يحوي في جنَباته البيت الحرام، والذي دعا له إبراهيم ربه أن يجعله آمناً، والذي سمّي بكّة، وكان آية واضحة ناطقة على ظهور سُنَّةِ الدينونة والمجازاة في العباد والبلاد.

وأهل هذا البلد إن تجاهلوا التين والزيتون، وتجاهلوا طور سينين فلن يتجاهلوا بلدهم، البلد الأمين الذي ينعمون بخيراته، وينهلون من بركاته، فهم أنفسهم كانوا شهود عيان لما وقع فيه من وقائع الدينونة والمجازاة، حيث حماه الله من أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، فأصبحوا حديث الأمس، بل أصبحوا وكأن لم يغنوا بالأمس!

أقسام سورة والضحى:

هذا، وبعد ما انتهينا بفضل الله وتوفيقه من بيان وجوه الشهادة في أقسام سورة (والتين) نأتي إلى سورة أخرى، ألا وهي سورة (والضحى) حتى نتدبر ما فيها من أقسام، قال تعالى:

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [١-١١].

أقسم ربنا سبحانه وتعالى أولاً بالضحى، والضحى- فيما يقول الراغب -انْبِساطُ الشمسِ وامْتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّي الوَقْتُ به.(١)

وحي لفظ «الضحى»:

والضحى يوحي فيما يوحي، بمعنى الأذى، والشدة.

قال الليث: ضَحِيَ الرجلُ يَضْحى ضَحاً: إذا أصابَهُ حَرُّ الشمس. قال الله تعالى: (وأَنك لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحى) قال: لا يُؤْذِيك حَرُّ الشمس.

---

(١) الراغب الأصفهاني- مفردات القرآن-كتاب الضاد:١/ ٥٠٢.

وقال الفراء: لا تَضحى: لا تُصِيبُك شمسٌ مؤذِيَةٌ.

ومنه جاء فيه معنى الهجوم والغارة، يقال ضَحَّيْنا بني فلانٍ، أي: أتيناهُم ضُحىً مُغيرينَ عليهم، قال:

أَراني إِذا ناكَبْتُ قوماً عَداوَةً فضحَّيْتُهم إني على الناسِ قادِرُ

ومنه قولُ حَسَّان بن ثابت يَرْثي سيدنا عثمانَ رضي الله عنهما:

ضَحَّوْا بأَشْمَطَ عُنوانُ السُّجودِ به يُقَطِّعُ اللَّيـــلَ تسْبِيحاً وقُرْآنا[1]

مفهوم «إذا سجى»:

ثم أقسم سبحانه وتعالى بالليل إذا سجى، وسجى من السجوّ، وهو يحمل معنى السكون والهدوء، والراحة والاستقرار.

قال الفراء: سجا، إذا أَظلم ورَكَد في طُوله كما يقال بحرٌ ساجٍ إذا ركد وأَظلم ومعنى رَكَدَ سكن، قال الأعشى:

فما ذَنْبُنا أَن جاشَ بحرُ ابن عَمِّكُمْ وبحرُك ساجٍ لا يواري الدَّعامِصا؟

وفي حديث علي عليه السلام: ولا ليل داجٍ ولا بحْر ساج أَي ساكن.

الزجاج : سَجا: سَكَنَ، وأَنشد للحارثي:

يا حبَّذا القمراءُ والليلُ الساجْ وطُرُقٌ مثـــلُ مُلاء النَّسَّاجْ

معمر: والليل إذا سَجا: إذا سَكن بالناسِ.

وسَجا البحرُ وأَسْجى إذا سكَنَ.

وسَجا الليلُ وغيرُه يَسْجُو سُجُوّاً وسَجْواً سكَن ودام، وليلةٌ ساجيةٌ إذا كانت ساكِنَةَ البرْدِ والرِّيح والسَّحاب غير مُظْلِمَة.

وسَجا البحرُ سَجْواً: سكَن تموُّجُه.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت : ١/ ٢٤٨، وانظر: ابن منظور، لسان العرب: ضحا.

وامرأَةٌ ساجِيةٌ فاتِرَة الطَّرْفِ.

الليث: عينٌ ساجيةٌ فاتِرَةُ النظر يَعْتَري الحُسْنَ في النساء.[1]

وجه الاستدلال بالقسمين:

هذان قَسمان، أحدهما يحمل معنى الأذى والشدة، ويحمل معنى الهجمات والغارات، والآخر يحمل معنى السكون والهدوء، ويحمل معنى الراحة والاستقرار.

فكما أن الضحى الصاخب المحرق الذي يتسم بالقيظ والحرّ، والذي يتسم بالضجاج والحجاج، والصيحة والجلبة، يتبعه ليل نديّ هادئ ساكن مريح، فكذلك هذه الظروف الحرجة القاسية الصاخبة ستتبعها ظروف كريمة ناعمة مفرحة.

هذه الظروف لا بد أن تتغير، وتلك الشدائد لا بد أن ترحل.

وإذا كانت أيامك هذه أيام عناء وشدة، وأيام بلاء ومحنة، فلا يجدنّ اليأس سبيلاً إلى قلبك، ولا يخطرنّ ببالك أن ربك ودّعك، أو قلاك، فالبلاء والمحنة من طبيعة الدعوة، ومن طبيعة الرسالة. وعلى الرغم من هذه البلايا وتلك المحن فإن دعوتك ستنمو وتزدهر، والغد المقبل سيكون خيراً من الأمس الدابر، ويكون خيراً من الحاضر الكاسر. وللآخرة خير لك من الأولى.

وأما ربك فقد تولاك بعطفه ورعايته، وأحاطك بودّه وكرمه منذ أن خلقك، فرحمته دائبة، وعنايته متواصلة في صغرك وفي كبرك، ومن قبل النبوة، ومن بعد النبوة، كنت يتيماً فآواك، وكنت ضالاً فهداك، وكنت عائلاً فأغناك. وشرح لك صدرك، ووضع عنك وزرك، ورفع لك ذكرك. فذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ١-٨].

فهاتان السورتان - سورة والضحى، وسورة الشرح - كأنهما توأمان، أو كأنهما شقيقتان جاءتا لتثبيت فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام، وتثبيت أقدامه، في ظروف

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: سجا.

حرجة مكفهرّة كانت تهدد بالخطر، وكادت تطفئ بارقة الأمل في نجاح الدعوة، وفي نموّها وازدهارها، واستوائها على سوقها.

تأويل صاحب «التبيان»:

وهناك نظرة أخرى تختلف عن هذه النظرة، في تأويل أقسام هذه السورة، قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافى بعد ظلام الليل، للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه».(١)

نقول إن قصة احتباس الوحي ليست ثابتة حتى يبنى عليه تأويل الآية، فهي من بلاغات الزهري حيث قال فيما رواه البخاري:

«وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا، حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تَبدَّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك».(٢)

قال صاحب السيرة النبوية الصحيحة، في ضمن الكلام على هذه الرواية:

«ويوضح بلاغ الزهري الأزمة التي تعرض لها الرسول لانقطاع الوحي، وإنه كان يتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة، ويبشره بأنه رسول الله، ولكن بلاغ الزهري لا يصلح لإثبات الحادث لتعارضه مع عصمة النبي عليه السلام، ثم إنه مرسل ضعيف، ولا يعلم على وجه التحديد كم دامت

---

(١) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، فصل القسم في سورة والضحى.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: ٦٩٨٢.

مدة انقطاع الوحي».[1]

ويقول العلامة محمد ناصر الدين الألباني: «وإذا عرفت عدم ثبوت هذه الزيادة، فلنا الحق أن نقول إنها زيادة منكرة من حيث المعنى لأنه لا يليق بالنبي المعصوم ﷺ أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل، مهما كان الدافع له على ذلك».[2]

فالصحيح أن الوحي لم يحتبس، ولم يحتجب، ولم يهيّئ الفرصة للأعداء قطّ، حتى يسخروا من رسول الله، ويقولوا: ودّعك ربك يا محمد! وقلاك!

وإنما كان يأتي الوحي بنظام حكيم وضعه الله، وما كان يأتي كل يوم، لا في أول النبوة، ولا في آخر النبوة، بل كان يأتي كلما أنى أوانه في علم الله، وكلما اقتضى الأمر، واجتمعت دواعيه وأسبابه في تقدير الله. وقد يتأخر الوحي شهراً وأكثر من شهر، وهذا الذي ذُكر في الرواية بلفظ «الفترة»، وتلك الفترة لم تكن مرة واحدة، كما تُوهِمُ هذه الرواية، بل كانت مرّات ومرّات في فجر البعثة، وضحاها، وظهرها، وعشيّها.

ثم سياق الآيات لا يشجعنا على القول بما قال به صاحب «التبيان» فإن الليلة الساجية أدعى إلى السكينة والبهجة من الضحى الصاخب، ولو كان المراد ما ذهب إليه صاحب «التبيان» لقيل مثلاً: والليل إذا دجا، أو: والليل إذا أغشى، أو ما شابه ذلك.

جملة القول أن ربنا سبحانه وتعالى استشهد بالضحى والليل إذاسجى، على تغير الظروف والملابسات التي كانت تحيط برسول الله وأصحابه في ضحى الدعوة في مكة، وطمّنهم أنهم سيتحولون من عسر إلى يسر، وسينتقلون مما يسوؤهم إلى ما يسرّهم، كما ورد في السورة التالية:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

فليواصلوا المسير، وليتوكلوا على العليم القدير.

---

(١) الدكتور أكرم ضياء العمري-السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) الألباني: دفاع عن الحديث والسيرة: ١/ ٤٢.

بلاغة أسلوب القسم:

والجدير بالذكر أن القسم لا يفيد معنى الشهادة فقط، بل يتضمن معه معنى التصوير والتشخيص، فهو يصور المقسم به، ويجعله حاضراً شاخصاً أمام الأعين، وكأن السامع، أو القارئ يراه رأي العين!

فإن الشهادة لا تحمل من بعيد، ولا تُقبَل من وراء حجاب، وإنما الشاهد من شأنه أن يشهد موقع الشهادة، ويؤديها أمام الملأ.

فربنا سبحانه وتعالى حينما أقسم بالتين، أو أقسم بالزيتون، أو أقسم بطور سينين، أو أقسم بالبلد الأمين، أو أقسم بالضحى، أو أقسم بالليل إذا سجا، فكأنه جاء بكل واحد من تلك الأشياء، وأحضره ليشهد أمام الناس بما عنده من أنباء، وبما عنده من أخبار.

فحينما أقسم بالتين - مثلاً - فكأنه جاء بجبل التين ليشهد بما عنده من أخبار قوم نوح، ومن أخبار الطوفان الذي أباد خضراءهم، وأسكت نأمتهم جزاء بما كسبوا.

وحينما أقسم بالزيتون - مثلاً - فكأنه جاء بجبل الزيتون ليشهد بما عنده من أنباء سيدنا عيسى وأصحابه الحواريين، الذين كانوا يأوون إليه في ليلهم حذراً من مؤامرات أعدائهم اليهود، وجاء به ليشهد بتضرعات عيسى في آناء الليل، ونداءاته الخفية، وآهاته الشجية، حتى يشفع لأعدائه عند ربه، وحتى يردّ عنهم ما قدر لهم من خزي وعذاب، ولكنه لم يستطع أن يخرجهم من شقائهم، إلى أن رفع عيسى إلى ربه، وحقت عليهم اللعنة!

وهكذا دواليك. فالأقسام كلها شهادات من هذا النوع، وكان لها وقع شديد في النفوس، حتى هزهزت المشاعر، وزحزحت الحواجز، وجعلتهم يفكرون، ويفكرون فيما تحمله تلك الأقسام من بصائر.

وتلك مزية من مزايا أسلوب القسم، نبّه إليها الفراهي في إمعانه حيث قال:

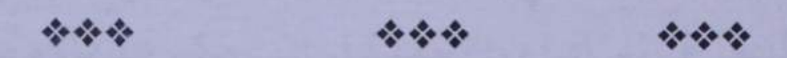
«ولا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم؛ فإن الذي أقسمت به

دعوته كالشاهد، فأوقفته بين يدي المخاطب متمثلاً».[1]

وتلك مزيّة نفيسة، من حقها أن يشدّ عليها الباحث يديه، ولأسلوب القسم مزايا أخرى غيرها، نبّه إليها الفراهي في إمعانه، وليس هذا موضع تفصيلها.

ولعل هذا الحديث الوجيز المستفيض حول أقسام القرآن يكفي لإدراك ما لها من أهمية كبيرة في فهم القرآن، وتذوقه، والحصول على كنوزه وفرائده، فالسور التي وردت فيها تلك الأقسام لا يمكن تذوقها واستيعابها حتى نطيل الوقوف عند تلك الأقسام، ونتبين دلالاتها وإيحاءاتها، ونستوعب وجوه شهاداتها.

ولقد ضربنا لها الأمثال، وبينا ما فيها من دلالات وشهادات، ونظنّها تكفي لمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.



---

(١) الفراهي، إمعان في أقسام القرآن، ص: ٩٩.

الخاتمـة

هذا ما تيسر لنا في بيان أصول التفسير، فنحمد الله سبحانه وتعالى على ما هدانا إليه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وإن بدا شيء من تلك الأصول خلاف المعهود، وخلاف المألوف المشهور، وأوجس أحد في نفسه خيفة منه، قلنا: لا تخف، ولا تعجل، ففي التأني السلامة، وفي العجلة الندامة، وليس كل مشهور معهود جديراً بالقبول والتقدير، وليس كل جديد غير مألوف حقيقاً بالنفور والتنفير.

وتلك أصول لها أصول، وهي كلها تستند إلى دليل قوي، وتأوي إلى ركن شديد، فلننظر في أدلتها، ولننظر في ثمراتها ونتائجها قبل أن نحكم عليها، وقبل أن نسيء الظن بها.

فإن كانت الأدلة لها وجاهة، وكانت الثمار لها حلاوة، وكانت النتائج عليها طلاوة، فلنطمئن إلى صحة تلك الأصول وجودتها، ولنحرص على تطبيقها والالتزام بها، ولنعضّ عليها بالنواجذ، فالحكمة ضالة المؤمن، وهو أحق بها أينما وجدها.

ولا ننس الحكمة القائلة: «اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال» فكم أصابنا ما أصابنا في تراثنا! وكم فاتنا ما فاتنا في تاريخنا بسبب الذهول عن تلك الكلمة الحكيمة الغالية!

ويمكننا أن نوجز تلك الأصول وتلك الضوابط، التي فُصّلت في هذا البحث، في النقاط الآتية:

❖ آيات القرآن كلها آيات محكمة لا نسخ فيها أصلاً، وهي ناسخة لغيرها من الشرائع المحرّفة والأعراف الجاهلية، وليست ناسخة لأخواتها، والقرآن لا يقرّ مفهوم النسخ في آياته، وإنما وقع في هذا الخطأ من ذهل عن سياق آيات النسخ، فلنعط كل آية حقها من التدبر والإمعان، ولنعطها حقها من العمل والتطبيق.

❖ أفضل طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن، وإذا فُسرت الآيات في ضوء نظمها وسياقها، فذلك من تفسير القرآن بالقرآن، ولا يُحسن تفسير القرآن بالقرآن إلا من فسر آياته في ضوء نظمها وسياقها، ومن غفل عن نظم الآيات وسياقها لم يتيسّر له ذلك إلا في جزء صغير من القرآن.

❖ التفسير بالمأثور ليس تفسيراً مأموناً، وإن كان أذكر في الناس، فالمرويات والآثار الواردة في التفسير يغلبها الضعف، وما دخلت الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير إلا من هذا الباب، ومن هنا ليس من الحزم أن يُبنى تفسير الآيات على الروايات والآثار، فالروايات والآثار لا تكون إلا للاستيناس، وإنما يُبنى تفسير القرآن على دراسة ألفاظه وأساليبه، وتتبع شواهده ونظائره، والنظر في سياق آياته وسوره.

❖ التفسير بالرأي لا يعني إلا تدبر القرآن، وهو مطلوب من كل إنسان، حيث قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تبارك وتعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

فلا بد لنا من تدبر القرآن تدبراً مباشراً، ولا بد لنا من معايشته معايشة ذاتية خالصة.

هكذا فعل أصحاب رسول الله، وهكذا فعل التابعون لهم بإحسان.

وأما التفسير بالمأثور فليس ذلك من دأب السلف، فكلهم كانوا يتدبرون القرآن، وكانوا يعايشونه معايشة ذاتية خالصة، وكانوا يُبدون رأيهم في تأويل الآيات حسبما فتح الله عليهم بفضل ذلك التدبر، وبفضل تلك المعايشة. وأما حكاية الأقوال والآثار بدون معرفة الدليل، فلم يكن ذلك من دأب فقهاء السلف.

❖ الممنوع من التفسير هو التفسير بالهوى، وليس التفسير بالرأي، والناس أخطؤوا حينما خلطوا أحدهما بالآخر، وجعلوهما شيئاً واحدا، فالرأي يعتمد على العلم

والتدبر، والهوى تتولّد من الجهل والعمى، وشتان بينهما.

❖ التفسير بالرأي إذا كان خاضعاً لضوابط علمية محكمة، فهو أسلم وأحكم من التفسير بالمأثور؛ فإن التفسير بالرأي - وهو الإقامة العاقلة الواعية على الآيات - ارتباط مباشر بكتاب الله، وأما التفسير بالمأثور فهو اشتغال بالآثار والروايات دون كتاب الله، وهو عامل كبير من عوامل الغفلة والبعد عن تدبر كتاب الله.

❖ نزل القرآن كله بلسان عربي مبين، حتى يتيسر فهمه للجميع، وليست فيه كلمات أو عبارات لا يقدر على فهمها أحد، والمتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، لا يوجد إلا في المعاني، دون الألفاظ والعبارات، فأمور الآخرة، وأمور البرزخ، وأحوال الجنة والنار، وصفات الله وأسماؤه، كلها من المتشابهات، حيث لا يحيط بها عقل، ولا يُدركها مُدرك، ولكن الألفاظ والعبارات التي تتحدث عن تلك الأمور، وتتحدث عن تلك الأسماء والصفات ليست من المتشابهات، ولا مانع من فهمها وتدبرها.

❖ إذا وردت الروايات والآثار بتأويل لا يقبله لفظ الآية وأسلوبها، أو نظمها وسياقها، وجب الانصراف عن تلك الروايات والآثار إلى لفظ الآية وأسلوبها، ونظمها وسياقها، فاللفظ والأسلوب ونظم الكلام أولى بالتمسّك من الروايات والآثار التي تحفّها إشكالات، وتصحبها احتمالات، ومن القواعد المعروفة أن القطعيّ الثبوت لا يُبنى على الظنيّ الثبوت.

❖ الشريطة الأولى لصحة الحديث أن يكون موافقاً لكتاب الله، فإذا كان حديث لا يوافق كتاب الله، ولا ينسجم معه انسجاماً، فذلك دليل على عدم صحته، وإن جاء بسند صحيح؛ فإن الحديث بيانٌ لكتاب الله، ومن صحة البيان أن يكون موافقاً لما يبيّنه.

❖ القرآن كلام الله العظيم، والروعة والعظمة صفتان لازمتان لكل آية من آيات القرآن، فلا بد أن يكون تأويل الآيات أيضاً عظيماً رائعاً، فالكلام الرائع العظيم لا يقبل إلا تأويلاً رائعاً عظيماً.

❖ التماس المناسبات بين الآيات والسور ليس شيئاً مقصوداً لذاته، حتى نركن إلى أية مناسبة بعيدة لا يستجيدها عقل، ولا يستعذبها ذوق، وإنما المقصود منه تلك الحِكَم

العالية وتلك المعارف القيمة، التي تموج بها تلك المناسبات، فليكن من همّ الباحث أن يفوز بتلك الحكم وتلك المعارف التي تقود إليها الآيات بنظمها وسياقها وأساليبها.

وأما الاشتغال بمناسبات لا تفيد علماً، ولا تنوّر أفقاً، ولا تريك جمالاً، وإنما هي تكلفات وتعسفات تنقل المرء من حيرة إلى حيرة، فمثل تلك المناسبات يكون ضررها أكبر من نفعها، وهي أحرى بان تطوى على غَرّها.

هذا، وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، الذين عاشوا بالقرآن، وعاشوا للقرآن، ولم يكن لهم همّ ولا وسن إلا أن يرفعوا راية القرآن، ويقيموا دولة القرآن، فأكرمهم ربهم، وبارك في جهودهم، وحقق لهم أمنيّتهم، فلك الحمد يا رب، ولك الشكر على ما أسديت، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.



ثبت المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، الناشر: دار الفكر، لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ.

٣. أحسن ما سمعت لأبي منصور الثعالبي، نقلا من المكتبة الشاملة.

٤. إحكام الأصول لعبد الحميد الفراهي، مخطوط.

٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة.

٦. أساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٧. أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة. ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٨. الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور السيد حسين الذهبي، الناشر: دار الإيمان، دمشق. الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ.

٩. الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين للخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٠. الأصمعيات للأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، تحقيق: أحمد محمد شاكر-عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر. الطبعة السابعة: ١٩٩٣م

١١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

لبنان. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٢. إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢١ه-٢٠٠١م

١٣. الأم لمحمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة، بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ.

١٤. الأمالي في لغة العرب لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

١٥. إمعان في أقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق-الدار الشامية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

١٦. إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٧. إيقاظ همم أولي الأبصار للإقتداء بسيد المهاجرين والأنصار لصالح بن محمد بن نوح العمري، الشهير بالفلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت. ١٣٩٨هـ.

١٨. البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

١٩. بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٢٠. البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى: ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٢١. البلدان لأحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني المعروف بابن الفقيه، تحقيق: يوسف

الهادي، الناشر: عالم الكتب، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٢. البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان.

٢٣. تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، دار الفكر، شارع عبد النور.

٢٤. التبيان في آداب حملة القرآن للإمام أبي زكريا بن شرف النووي، تحقيق وتعليق: محمد الحجار، الناشر: دار ابن حزم.

٢٥. التبيان في أقسام القرآن لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت. لبنان.

٢٦. تحقيق كتاب «أسباب النزول للواحدي »، للسيد أحمد صقر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، المملكة السعودية العربية. الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ.

٢٧. التصوير الفني في القرآن الكريم، للشهيد سيد قطب، الناشر: دار عمار، عمان، الأردن.

٢٨. تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: د.عاصم بن عبد الله القريوني، الناشر: مكتبة المنار، الأردن. الطبعة الأولى.

٢٩. تعليقات في تفسير القرآن الكريم لعبد الحميد الفراهي، إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي، مراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي، الناشر: الدائرة الحميدية، الهند. الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٣٠. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م.

٣١. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله شمس الدين القرطبي،

تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة. الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٣٢. تفسير البغوي (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٣. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٤. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى) الناشر: دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٣٥. تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م.

٣٦. تفسير الماوردى (النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

٣٧. تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣٨. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسى، الناشر: دار الفكر.

٣٩. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي)، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، الطبعة الثانية: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤٠. تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للعلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، الناشر: دار

الكتاب العربي. بيروت. ١٤٠٧هـ.

٤١. تفسير نظام القرآن لعبدالحميد الفراهي، الناشر: الدائرة الحميدية، اعظم كره، يوبي. الهند. الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م.

٤٢. التكميل في أصول التأويل، لعبد الحميد الفراهي، الناشر: الدائرة الحميدية ومكتبتها، الطبعة الأولى: ١٣٨٨هـ.

٤٣. تهذيب التهذيب للامام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٤٤. تهذيب الكمال مع حواشيه ليوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٤٥. تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

٤٦. الثقات لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٤٧. جامع التحصيل في أحكام المراسيل لأبي سعيد بن خليل بن كيكلدي أبو سعيد العلائي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: عالم الكتب، بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٤٨. جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، دراسة وتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، الناشر: مؤسسة الريان، دار ابن حزم. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٤٩. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر: دار الجيل بيروت - دار الأفاق الجديدة ـ بيروت

٥٠. الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥١. جمهرة البلاغة لعبد الحميد الفراهي، الناشر: الدائرة الحميدية، الهند. الطبعة الأولى.

٥٢. جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، الناشر: دار صادر، بيروت.

٥٣. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة الأولى: ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

٥٤. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي- اميل بديع اليعقوب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. ١٩٩٨م.

٥٥. الدر المنثور في التفسير بالماثور لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار هجر، مصر. ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٥٦. دفاع عن الحديث والسيرة لناصر الدين الألباني، مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق.

٥٧. دلائل النبوة للإمام البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد المعطى قلعجى، الناشر: دار الكتب العلمية ـ ودار الريان للتراث، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥٨. دلائل النظام لعبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند. الطبعة الأولى: ١٣٨٨هـ.

٥٩. دواوين الشعر العربي على مر العصور، نقلا من المكتبة الشاملة.

٦٠. ديوان جرير، نقلا من المكتبة الشاملة.

٦١. ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، مع شرح التبريزي، الناشر: مطبعة التوفيق بشارع كلوت بك، بمصر. ١٣٢٢هـ.

٦٢ . ديوان النابغة الذبياني، الناشر : مطبعة الهلال بالفجالة، مصر. ١٩١١م.

٦٣ . ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت. لبنان.

٦٤ . ديوان كثير عزة، نقلا من المكتبة الشاملة.

٦٥ . ديوان ابن دريد لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهيه، نقلا من المكتبة الشاملة.

٦٦ . ديوان لبيد بن ربيعة العامري، الناشر : دار المعرفة، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٦٧ . ديوان ابن المعتز لأبي العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله، الناشر: دار صادر، بيروت.

٦٨ . ديوان ذي الرمة، الناشر: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت. الطبعة الأولى: ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٦٩ . ديوان امرؤ القيس لامرئ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، الناشر : دار المعرفة، بيروت. لبنان. الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٧٠. ديوان عبيد بن الأبرص، دارصادر، بيروت، لبنان.

٧١. ديوان زهير بن أبي سلمى، الناشر : دار صادر، بيروت. لبنان.

٧٢. ديوان بشار بن برد، نقلا من المكتبة الشاملة.

٧٣. الرائع في أصول الشرائع لعبد الحميد الفراهي، مخطوط.

٧٤. زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ.

٧٥. الزهد لعبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٦. زهر الأكم في الأمثال والحكم لنور الدين اليوسي، نقلاً من المكتبة الشاملة.

٧٧. زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.

٧٨. سبل السلام لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة: ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

٧٩. سحر البلاغة وسر البراعة لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: عبد السلام الحوفي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

٨٠. السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند. الطبعة الأولى: ١٣٤٤هـ.

٨١. سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٨٢. سنن النسائي الكبرى لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٨٣. سنن النسائي بأحكام الألباني (المجتبى من السنن) لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب. الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٤. سنن ابن ماجة لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، طبعة الرسالة.

٨٥. سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

٨٦. سنن الدارقطني لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٨٧. سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني، تحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الناشر: دار العصيمي، الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

٨٨. سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبو عبد الله الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

٨٩. السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، مركز بحوث السنة والسيرة، دولة قطر. ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٩٠. شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٩١. شرح ديوان الحماسة لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين- عبد السلام هارون، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ١٣٧٢هـ.

٩٢. شرح ديوان عمر ابن أبي ربيعة المخزومي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

٩٣. شرح السنة للحسين بن مسعود البغوي، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق. بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩٤. شرح معاني الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بالطحاوي، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٩٥. شرح المعتمد للدكتور محمد الحبش، نقلا من المكتبة الشاملة.

٩٦. شرح المعلقات السبع للزوزني للحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، تحقيق: عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٩٧. صبح الأعشى لأحمد بن علي القلقشندي، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة. ١٣٤٠هـ-١٩٢٢م.

٩٨. صحيح البخاري (الجامع الصحيح) لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

٩٩. صحيح ابن حبان، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٠. الصحاح في اللغة لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت. لبنان. الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

١٠١. الضعفاء الكبير لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد بن اسماعيل السلفي، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٠٢. طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن أبي يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١٠٣. غاية المقصد في زوائد المسند للحافظ علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٠٤. غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠٥. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٠٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٠٧. الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار ابن الجوزي بالسعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٠٨. الفوز الكبير في أصول التفسير، للإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، الناشر: دار السنة للطباعة والنشر والتوزيع. لكناؤ. الهند. الطبعة الرابعة: ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٠٩. في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم ، الناشر: دار الشروق، القاهرة.

١١٠. في علوم القرآن للدكتور أحمد حسن فرحات، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع،

عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

١١١. الكامل في ضعفاء الرجال لأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، الناشر: دار الفكر، بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٩م.

١١٢. الكامل في التاريخ لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف ب «ابن الأثير»، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١١٣. جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١١٤. كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ لعبد الحميد الفراهي، مخطوط.

١١٥. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، الناشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١١٦. كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: منشورات محمد علي بيضوت، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١١٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١١٨. كيف نتعامل مع القرآن العظيم للدكتور يوسف القرضاوي، الناشر: دار الشروق، القاهرة. الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١١٩. لباب النقول في أسباب النزول لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

١٢٠. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت. الطبعة الأولى.

١٢١. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين للامام الحافظ محمد بن حبان بن

احمد ابى حاتم التيميمى، تحقيق: محمود ابراهيم زايد، الناشر: دار الوعي، حلب. الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ.

١٢٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: دار الفكر، بيروت. ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١٢٣. مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة: ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٢٤. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١٢٥. المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٩٨م، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٢٦. المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٢٧. المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، الناشر: مكتبة الجمهورية العربية، مصر.

١٢٨. مسند أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، الناشر: عالم الكتب، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م.

١٢٩. مسند أبي يعلى لأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٣٠. مسند عبد بن حميد لعبد بن حميد بن نصر الكيسي، الناشر: عالم الكتب، بيروت. لبنان.

١٣١. مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد، الناشر: دار المعارف، بمصر. الطبعة السابعة: ١٩٨٨م، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٣٢. مصنف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٣٣. معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، الناشر: دارالمصرية للتأليف والترجمة، مصر.

١٣٤. المعاني الكبير لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

١٣٥. المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٣٦. معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر للطباعة والنشر، بيروت- دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

١٣٧. معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٣٨. المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٣٩. المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: ادارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.

١٤٠. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٤١. المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودى، الناشر : دار العلم الدار الشامية، دمشق - بيروت.١٤١٢هـ.

١٤٢. مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي، تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الناشر: الدائرة الحميدية، الهند. الطبعة الثانية: ٢٠٠٤م.

١٤٣. مقدمة في التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٤٤. مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

١٤٥. منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٤٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

١٤٧. الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٤٨. الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٤٩. موسوعة هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون الأصول لأبي سند محمد، نقلا من المكتبة الشاملة.

١٥٠. ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. لبنان.

١٥١. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ٢٠٠١م.

١٥٢. الناسخ والنسوخ لقتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

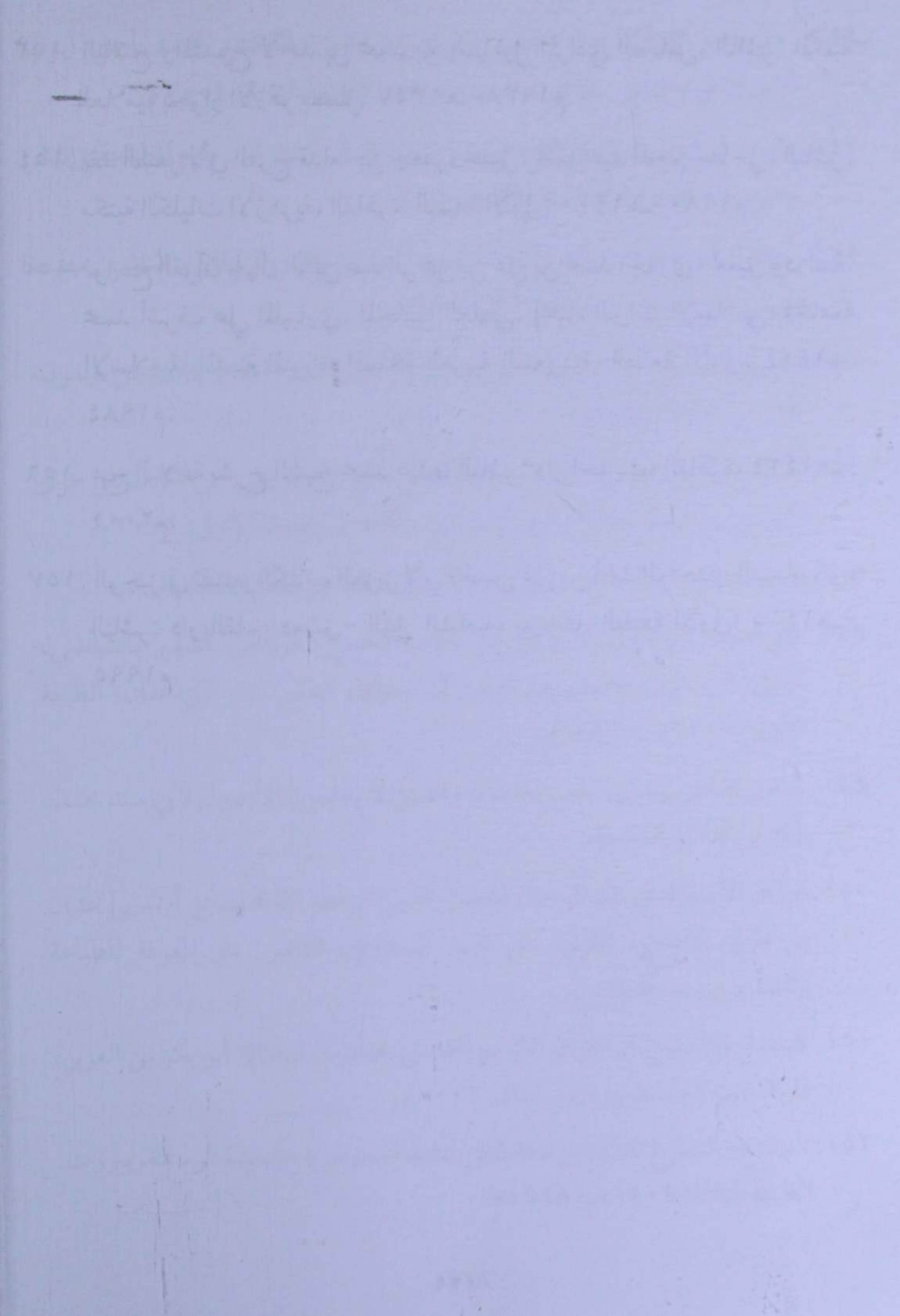
١٥٣. الناسخ والمنسوخ لأحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس، الناشر: المكتبة العلامية بجوار الأزهر بمصر. ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

١٥٤. نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٥٥. نواسخ القرآن لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق ودراسة: محمد أشرف علي المليباري، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى: ١٤٠٤ه-١٩٨٤م.

١٥٦. نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٥٧. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، الناشر: دار القلم، دمشق- الدار الشامية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.



الفهرس

مقـدّمـة.. ٥
لمحة إلى منهج البحث.. ١٣
الأصل الأول: إخلاص النيّة لله.. ١٩
الأصل الثاني: حسن الاستجابة لدعوة القرآن.. ٢٢
الأصل الثالث: استشعار عظمة كلام الله.. ٢٥
كلام ليس كمثله كلام.. ٢٦
ليس من تعظيم القرآن أن يقال.. ٢٦
إجابات لا تُغني ولا تشفي!.. ٢٩
أشياء غريبة!.. ٣١
لا يقاس كلام الله بأيّ كلام:.. ٣٢
شرع كامل لا يقبل أيّ زيادة.. ٣٢
رواية بما فيها من إشكالات.. ٣٤
مشاكل في متن الحديث.. ٣٥
مشكلة أولى.. ٣٥
مشكلة أخرى.. ٣٥
مشكلة ثالثة.. ٣٥
لا نسخ مع بقاء الحكم!.. ٣٦
مشكلة رابعة.. ٣٧
وظيفة الرسول هي البلاغ.. ٣٨

حديث: نكاح المرأة على عمتها ٣٩
حديث: الحرمة من الرضاعة ٤٠
الحرمة من ناحية أحكامها نوعان ٤٠
الحرمة بسبب النسب والرضاعة ٤٠
الحرمة بسبب الصهر ٤١
حرمة لحم الحمار والسباع في القرآن ٤٢
حديث أحلت لنا ميتتان ودمان ٤٣
روايات الزيادة على كتاب الله ٤٤
نقد الأسانيد ٤٥
مضمون الرواية يتضمّنه القرآن ٤٦
مثال آخر لما يوهم الزيادة على كتاب الله ٤٨
معنى «ومثله معه» ٤٩
السنّة كلها شرح للقرآن ٤٩
«ألا لا وصية لوارث» مما يتضمّنه القرآن ٥١
كان رسول الله شارحاً لا شارعا ٥١
معنى الكلالة في الآية ٥٢
رواية في معنى الكلالة ٥٣
العمدة في معنى الكلالة ٥٤
الأصل الرابع: رعاية النظام والمناسبات في تأويل الآيات ٥٦
الفرق بين نظام الآيات وتناسب الآيات ٥٩

ملخص الكلام.. ٦٠
مثال اعتراض الآيات.. ٦٠
مثال آخر.. ٦٢
اعتراض السور.. ٦٤
علاقة السور العشر فيما بينها.. ٦٤
سورة الحديد وسورة المجادلة.. ٦٤
علاقة سورة الحشر بما قبلها.. ٦٥
بداية السورة وختامها.. ٦٧
علاقة سورة الممتحنة بما قبلها.. ٦٧
سورة الصف وسورة الجمعة.. ٦٩
سورة المنافقون مع سورة الجمعة.. ٦٩
سورة التغابن مع سورتي الطلاق والتحريم.. ٧١
سورة الإخلاص مع المعوذتين.. ٧٢
سورة البقرة مع سورة آل عمران.. ٧٢
نظام تنتظم به السورة كلها.. ٧٣
نظام سورة النساء وعمودها.. ٧٤
نظام السورة.. ٧٤
نظم الآيات: (١-١٤).. ٧٥
نظم الآيات: (١٥-٢٥).. ٧٦
نظم الآيات: (٢٦-٢٨).. ٧٧

نظم الآيات: (٢٩-٤٢) ٧٨

نظم الآيات: (٤٣-٥٠) ٧٩

نظم الآيات: (٥١-٥٩) ٨١

نظم الآيات: (٦٠-٨٣) ٨٢

نظم الآيات: (٨٤-٩٣) ٨٣

نظم الآيات: (٩٤-١٠٤) ٨٤

نظم الآيات: (١٠٥-١١٥) ٨٥

أسلوب من أساليب القرآن ٨٦

نظم الآيات: (١١٦-١٢٦) ٨٧

نظم الآيات: (١٢٧-١٣٥) ٨٨

نظم الآيات: (١٣٦-١٦٢) ٩٢

نظم الآيات: (١٦٣-١٧٥) ٩٤

نظم الآية: (١٧٦) ٩٦

عمود السورة ٩٧

التماس النظام مفتاح لكنوز القرآن ١٠٠

معان ومعارف في نظم الآيتين ١٠١

رؤيتان مختلفتان في نظم الآيتين! ١٠٣

جماع القول في علم النظام ١٠٤

الأصل الخامس: تفسير القرآن بالقرآن ١٠٧
تفسير القرآن بالقرآن عند الزرقاني ١٠٨
عند العلامة القرضاوي ١٠٨
عند الشيخ ابن الوزير ١٠٩
تقويم تلك النماذج ١١١
مفهوم العالمين ١١١
لا تقييد ولا تخصيص! ١١٢
حديث يردّ الشفاعة أصلا ١١٣
الاستثناء لتأكيد النفي ١١٣
منهج ينقصه الشمول والدقة ١١٥
مدار تفسير القرآن بالقرآن ١١٧
أضرار ضيق المفهوم ١١٧
احتجاج بما ليس فيه حجة! ١١٨
أمثلة لإطلاق الظلم على الشرك ١١٩
رواية أقرب إلى الوهم ١٢٠
منهج الصحابة في التفسير ١٢١
القرآن كله قطعيّ الدلالة ١٢٢
تنبيه على وهم ١٢٣
تنبيه على وهم آخر ١٢٤
تنبيه على وهم آخر ثالث ١٢٦
تنبيه على وهم آخر رابع ١٢٨
مشتقّات السرقة في الروايات ١٢٨

مثال آخر........................ ١٣٠
مثال آخر ثالث........................ ١٣٠
الأصل في معنى السرقة........................ ١٣١
دلالة سياق الآيات........................ ١٣٢
الأصل السادس: المعايشة الذاتيّة لكتاب الله........................ ١٣٥
روايات التحذير عن التفسير بالرأي........................ ١٣٦
نقد الرواية........................ ١٣٦
رواية أخرى........................ ١٣٧
نقد الرواية........................ ١٣٨
تدبر القرآن واجب شرعي........................ ١٣٩
الممنوع هو التفسير بغير علم........................ ١٣٩
الأصل في «الرأي» هو العلم دون الهوى........................ ١٤٠
قول في غاية النكارة! ١٤٢
خُطّة مدبّرة! ١٤٣
معان لا أصل لها في لسان العرب........................ ١٤٤
ظلمات بعضها فوق بعض! ١٤٥
حكايات ليس لها أصل! ١٤٦
تعليم القرآن مسؤولية في أعناق العلماء........................ ١٤٨
رواية لا تخلو من خلط وإلحاق! ١٤٨
سدّ منيع دون التفسير بالهوى........................ ١٥٠
كلمة موزونة لأحمد فرحات........................ ١٥٠
لابد من تصحيح المفهوم الخاطئ........................ ١٥١

الأصل السابع: تصحيح مفهوم المحكم والمتشابه في القرآن.................. ١٥٣
المحكم في رأي العلماء.. ١٥٣
المتشابه في رأي العلماء... ١٥٤
آراء تشبه الخواطر.. ١٥٤
لمحات من سياق الآيات... ١٥٦
أنموذج لاتباع المتشابه... ١٥٧
تأويل الآية في ضوء سياقها.. ١٥٨
اتباع المتشابه ليس من دأب الراسخين.............................. ١٦٠
معنى التأويل.. ١٦٠
مفهوم المتشابه.. ١٦١
اتباع المتشابه ابتغاء تأويله.. ١٦٢
ليس التشابه في لفظ الآية وعبارتها.................................. ١٦٣
فائدة هذا التفسير... ١٦٥
ردّ لا يقرّه القرآن!... ١٦٦
علمٌ ليس من مقاصد القرآن.. ١٦٧
عصفوران بحجر واحد!.. ١٦٨
لا تشابه في الحروف المقطعات...................................... ١٦٩
رأي الفراهي في الحروف المقطعات.................................. ١٧١
لوامع من القرآن... ١٧٣
كلمة وجيهة للسيوطي.. ١٧٤
سؤال وجيه.. ١٧٥
علامات على المناسبات بين السور................................... ١٧٦

آيات متشابهات في الزهراوين.......................... ١٧٧
وجوه التشابه بين الزهراوين.......................... ١٧٩
الوجه الأول.......................... ١٧٩
الوجه الثاني.......................... ١٨٠
الوجه الثالث.......................... ١٨٠
الوجه الرابع.......................... ١٨١
الوجه الخامس.......................... ١٨١
الوجه السادس.......................... ١٨٢
الوجه السابع.......................... ١٨٢
الوجه الثامن.......................... ١٨٣
الوجه التاسع.......................... ١٨٣
الوجه العاشر.......................... ١٨٤
وجوه التشابه بين السور الستّ.......................... ١٨٥
الوجه الأول.......................... ١٨٥
الوجه الثاني.......................... ١٨٥
الوجه الثالث.......................... ١٨٦
الوجه الرابع.......................... ١٨٧
الوجه الخامس.......................... ١٨٨
الوجه السادس.......................... ١٨٩
الوجه السابع.......................... ١٩٠
الوجه الثامن.......................... ١٩١
وجوه التشابه بين السور الأربع.......................... ١٩١

سورة الروم ليست تبشيراً بفتح الروم........................ ١٩٣
قطب الرحى هو الإيمان بالقرآن........................ ١٩٥
الأصل الثامن: تصحيح مفهوم النسخ........................ ١٩٧
مفهوم النسخ في اللغة........................ ١٩٧
ما مفهوم النسخ عند المتقدمين؟........................ ١٩٨
الأصل في موضوع النسخ........................ ١٩٩
ما قيل في تأويل آية النحل........................ ٢٠٠
ملخص ما قيل........................ ٢٠٠
ما قيل في تأويل آية البقرة........................ ٢٠١
ملخص ما قيل........................ ٢٠٣
سؤال لا يصح الإغماض عنه........................ ٢٠٣
سنة الله في الوحي........................ ٢٠٤
تطلق «الآية» على نصوص القرآن وغيره........................ ٢٠٤
دلالات لفظ «الآية» في كلام العرب........................ ٢٠٦
كلام فيه نظر........................ ٢٠٨
كلمة قيمة للفراهي........................ ٢٠٩
قرائن تصرف الآية إلى نسخ الشرائع السابقة........................ ٢١١
قرينة أخرى........................ ٢١٣
قرينة ثالثة........................ ٢١٣
قرينة رابعة........................ ٢١٤
الحجة على تحريفاتهم في أمر القبلة........................ ٢١٥
عودة ابن جرير إلى سياق الآيات........................ ٢١٦

تأويل آية النسخ في ضوء سياقها........................ ٢١٨
رواية مسلم في إنساء السورة........................ ٢١٩
نقد الرواية........................ ٢١٩
رواية الطبراني في إنساء السورة........................ ٢٢١
نقد الرواية........................ ٢٢١
رواية النسائي في إنساء الآيات........................ ٢٢٢
نقد الرواية........................ ٢٢٢
رواية الصنعاني في إنساء الآيات........................ ٢٢٣
نقد الرواية........................ ٢٢٣
آية سورة النحل في ضوء سياقها........................ ٢٢٤
آيات تحدّد اتجاه السورة........................ ٢٢٥
حقائق عن دين المشركين........................ ٢٢٦
الفرق بين آية البقرة وآية النحل........................ ٢٢٨
لا اجتهاد في أمر النسخ أصلاً........................ ٢٢٩
لاحكم للروايات على الآيات........................ ٢٣٠
شتّان بين التواترين!........................ ٢٣١
لا ناسخ للقرآن غير الله........................ ٢٣١
ألم نجعل القرآن عضين؟........................ ٢٣٢
وجوب علم الناسخ والمنسوخ!........................ ٢٣٤
رواية أولى ونقدها........................ ٢٣٤
رواية أخرى ونقدها........................ ٢٣٥
رواية ثالثة ونقدها........................ ٢٣٦

رواية رابعة ونقدها ٢٣٦

رواية خامسة ونقدها ٢٣٧

رواية سادسة ونقدها ٢٣٨

إشكالات تتعلق بمضمون الروايات ٢٣٩

كم عدد الآيات المنسوخة؟ ٢٤٠

لا معنى لدعوى الإجماع! ٢٤٢

مثال يشخّص أضرار القول بالنسخ: ٢٤٣

ملخص ما قيل ٢٤٥

موقف ابن العربي والسيوطي والدهلوي ٢٤٥

ماذا ربحنا من القول بالنسخ؟ ٢٤٦

سبب نزول الآية ٢٤٧

رواة ينقصهم الضبط والإتقان ٢٤٧

لا فرق بين الأمس واليوم ٢٥٠

حقيقة هامّة جديرة بالانتباه! ٢٥١

لا يغني غناءهم إلامن بات بِيْتَتَهم! ٢٥٢

قيام الليل مما يوجبه الإيمان الحيّ! ٢٥٣

فكرة ليس لها أصل! ٢٥٤

الأصل التاسع: لا يُبنى التأويل على الروايات والآثار ٢٥٧

لا بدّ من الحذر والتثبّت ٢٥٧

المعوذتان وقصة السحر ٢٥٩

هل الختام برقية السحر؟ ٢٦٠

الصمدة في اللغة ٢٦١

المناسبة بين الفاتحة والخاتمة ٢٦٢
تقويم روايات السحر ٢٦٢
الحادث أكبر من رواته ألف مرة! ٢٦٥
نردّ ما يجعلها فوق القرآن! ٢٦٦
مثال آخر ٢٦٧
أساس غير ثابت ٢٦٨
مثال ثالث ٢٦٩
الكلالة في بيان القرآن ٢٦٩
الكلالة في الآثار والروايات ٢٧٠
الفرق بين التعريفين ٢٧١
فما الموقف؟ ٢٧١
مثال رابع ٢٧٢
مفاد تلك الآيات ٢٧٢
مفاد الآثار والروايات ٢٧٤
الآيات في واد، والروايات في واد! ٢٧٥
الأصل العاشر: تجنب الإسرائيليات، والحذر منها كما نحذر الأفعى! ٢٧٨
سؤال يختلج في النفس ٢٧٩
ما معنى التحديث عن بني إسرائيل؟ ٢٨٠
ما معنى: لا تصدّقوا ولا تكذّبوا؟ ٢٨١
الحكاية في حكم التصديق! ٢٨٢
معنى: التحديث عن شخص أو قوم ٢٨٣
معنى: حدثوا عن بني إسرائيل ٢٨٤

روايات كاذبة عن الصحابة! ٢٨٥
دفع شبهة ٢٨٦
رواية قوية في سندها، منكرة في متنها! ٢٨٦
نقد الرواية ٢٨٧
رواية أخرى سندها قوي، ومتنها منكر! ٢٨٨
وجوه النكارة في الرواية ٢٩٠
الوجه الأول ٢٩٠
الوجه الثاني ٢٩١
الوجه الثالث ٢٩١
الوجه الرابع ٢٩٢
الوجه الخامس ٢٩٢
الوجه السادس ٢٩٢
أمارات الوضع بادية عليها! ٢٩٣
رواية أخرى ثالثة سندها قوي، ومتنها منكر! ٢٩٤
المعضلة الأولى ٢٩٥
المعضلة الثانية ٢٩٦
المعضلة الثالثة ٢٩٧
لفظ: «سقيم» في كلام العرب ٢٩٧
أيّ كذب يا ترى؟! ٢٩٨
المعضلة الرابعة ٢٩٩
كلمة فيها سخرية واستهزاء! ٢٩٩
لفتات قيمة للفراهي ٣٠٠

توجّه إبراهيم إلى أرض الكعبة ٣٠١
أرض الكعبة هي الأرض المباركة للعالمين ٣٠٢
السيدة هاجر من أسرة شريفة من جُرهم ٣٠٢
الحق أبلج والباطل لجلج! ٣٠٣
كلمة حكيمة للإمام الرازي ٣٠٤
قصة الزاملتين ٣٠٥
الإسرائيليات كلها شرّ وبلاء! ٣٠٥
ما أشبه الليلة بالبارحة! ٣٠٦
الأصل الحادي العاشر: تصحيح الرؤية في أسباب النزول ٣٠٨
روايات ضررها أقرب من نفعها ٣٠٨
مثالان مما ذكره الواحدي في سبب النزول ٣٠٩
ملاحظات على كتاب الواحدي ٣٠٩
سبب نزول آية الحول ٣١٠
تأويل الآية وما فيه من إشكالات ٣١١
أساليب لبيان العدّة ٣١٢
تأويل آية الحول ٣١٢
التساهل في أسباب النزول ٣١٤
معالم وحقائق ٣١٥
كلمة نيّرة رائعة ٣١٥
مفتاح يفتح المغاليق كلها! ٣١٦
نقاط أساسيّة في البحث ٣١٩
الأصل الثاني عشر: إتقان لغة القرآن ٣٢١

التثبّت في معاني المفردات ٣٢٢
لفتات بارعة للفراهي ٣٢٣
هل خفي معنى كلمة؟ ٣٢٤
تحقيق معنى (الأبّ) ٣٢٥
الرواية من وضع الأعداء ٣٢٦
التخوّف وما ورد في معناه ٣٢٧
تشويه الصورة وتثبيط الهمم! ٣٢٨
آية من سورة الأنفال ٣٢٩
تحقيق معنى الإثخان ٣٢٩
الفرق بين الأسلوبين ٣٣١
مثال آخر ٣٣٢
معنى الأهلّة في أقوال المفسرين ٣٣٣
تحقيق معنى الأهلّة ٣٣٣
قد يطلق الهلال على الشهر ٣٣٥
الأهلة هي الأشهر الحرم ٣٣٦
مثال ثالث ٣٣٦
معنى (على سفر) ٣٣٧
نظائر هذا الاستعمال في كلام العرب ٣٣٩
الفرق في دلالة اللفظين ٣٤٠
أوثق مرجع في لغة العرب ٣٤١
ما قيل في معنى: (قطّعن أيديهن) ٣٤١
الإشكال الأول ٣٤٢

الإشكال الثاني ٣٤٣
الإشكال الثالث ٣٤٣
معنى السكّين ٣٤٤
معنى: (قطّعن أيديهن) ٣٤٧
تأويل الآيات كما يمليه علينا السياق ٣٤٨
مثال آخر ٣٥٠
ما قيل في معنى الجبت ٣٥٠
معنى الجبت في ضوء الآيات ٣٥١
الأصل الثالث عشر: التضلع في أساليب العرب ٣٥٣
آية البرّ وتأويلها ٣٥٤
بلاغة الأسلوب في الآية ٣٥٥
سرّ البلاغة في هذا الأسلوب ٣٥٦
مثال آخر لهذا الأسلوب ٣٥٧
إعراب الآية عند الزمخشري ٣٥٧
أسلوب الآية ٣٥٩
مثال ثالث لهذا الأسلوب ٣٥٩
تأويل الآية عند المفسرين ٣٥٩
أسلوب الآية ٣٦٠
القول بالزيادة ليس قولاً مأموناً ٣٦١
حرف «لا» قبل القسم ٣٦٢
موقف فريق من المفسرين ٣٦٢
موقف الفراهي في الموضوع ٣٦٣

أسلوب آخر من أساليب القرآن ٣٦٥
معنى النهي ٣٦٥
معنى العتاب ٣٦٦
معنى الاستحالة ٣٦٦
معنى تنزيه الساحة ٣٦٧
لفتة هامّة لصاحب المنار ٣٦٨
الفرق في الأسلوب ٣٦٩
أسلوب الحذف ٣٧٠
من فوائد الحذف ٣٧٠
فائدة أخرى ٣٧٢
فائدة ثالثة ٣٧٤
فائدة رابعة ٣٧٥
أسلوب العطف ٣٧٦
الحقيقة الأولى ٣٧٧
الحقيقة الثانية ٣٧٨
الحقيقة الثالثة ٣٧٩
نوع آخر من العطف ٣٨٠
أشباه ونظائر لهذا الأسلوب ٣٨١
أسلوب الاستثناء ٣٨٢
الاستثناء لتأكيد ما سبقه من كلام ٣٨٣
مثال آخر ٣٨٣
مثال ثالث ٣٨٤

مثال رابع ٣٨٥
مثال خامس ٣٨٦
مثال سادس ٣٨٦
مثال سابع ٣٨٦
فلا يظهر على غيبه أحداً ٣٨٦
ما قيل في تأويل الآية ٣٨٦
تأويل الآية في ضوء أشباهها ٣٨٧
دلالة السياق ٣٨٨
لنا العبرة في قصة يونس وموسى ٣٨٩
الأصل الرابع عشر: دراسة أقسام القرآن، واستنباط دلالاتها ٣٩١
كلمة الشوكاني بخصوص القسم ٣٩١
رؤية السيوطي للموضوع ٣٩٣
نظرة الرازي إلى الأقسام ٣٩٤
وقفة جادّة للفراهي في الموضوع ٣٩٥
دلائل في صورة الأيمان ٣٩٧
وقفة عند أقسام سورة والتّين ٣٩٧
ما التين والزيتون؟ ٣٩٨
التين هو الجوديّ ٤٠٠
الشهادة في الزيتون ٤٠٠
الشهادة في طور سينين ٤٠٢
الشهادة في البلد الأمين ٤٠٣
أقسام سورة والضحى ٤٠٣

وحي لفظ «الضحى» ٤٠٣
مفهوم «إذا سجى» ٤٠٤
وجه الاستدلال بالقسمين ٤٠٥
تأويل صاحب «التبيان» ٤٠٦
بلاغة أسلوب القسم ٤٠٨
الخاتمة.. ٤١١
ثبت المراجع.. ٤١٥
الفهرس.. ٤٣١

البرهان في نظام القرآن
في الفاتحة والبقرة وآل عمران

عقد الجمان
في تقويم تدبر القرآن





عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة [illegible]
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

